

التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
بالقاهرة

مسألة الدين

تأليف
الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

الكتاب العاشر
١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

بطل محارب :

صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بطل شرقى مسلم من أبطال الحروب ، وهو ان كان قد أحب السلام من كثرة ما كابد وما لقي فانه ليست له فى السلم أيام . ليس له منه يوم واحد ، حتى ولو سكن فيه الى هدنة أو راحة أو مرض ، لأنه كان فيه يستعد ويتجمع أو يستجم ، وسواء أوقعت الهدنة باتفاق مع عدوه أو وقعت ضرورة . لأن السلم فيها كان كأيام سلم القبائل المتعادية فى قصائد زهير ، حيث تتأهب فيها القبائل وتستعد للقاء جديد .

نعم ، ليس فى حياة صلاح الدين يوم واحد من السلم ، وهو منذ ولد لم يعرفه ، لم يعرفه قط ، فقد ارتحل — على ما قيل — محمولا فى رحل والديه من قلعة « تكريت » الى مدينة « الموصل » فى الليلة التى ولد فيها . فاذا صح هذا ، فقد ولد هذا البطل المجاهد قلقا على الرضاع ، ثم استمر قلقا حتى مات ، بل قلقا الى ما بعد الموت ، لأنه حمل معه ظنونا ومخاوف على بلده وأهله وقومه ، وكان يراها كأنها تتحقق — كما تحققت فيما بعد — عيانا ، فلم تكن ميتته هادئة لكثير من الناس ، وحتى من الأبطال ، الذين يكونون قد اطمأنوا وهدءوا وهم يودعون الدنيا .

وهل لوليد فى احدى القلاع أن يفكر فى السلم وهو يدرج بين المقاتلة وآلات الحرب وأصواتها وتدريب المدارس القائمة بين جدرانها ، كل يوم ، وفيما بين ذلك — وفى ذلك الزمان خاصة — تنتظر قلعته مثل كل القلاع مفاجآت الليالى؟!!

حتى منصب الشرطة الذى أضيف اليه فى دمشق وهو شاب كان منصبا ذا مشاكل : مع رئيسه الذى هو فوقه ، ومع العامة الذين هم تحته ، فقد كان رئيسه يعكس أغراضه ، لأنه كان يريد عدلا صافيا ، وكانوا هم فى حاجة لمن يؤدبهم بعقوبات ادارية خالصة ، فوقع صاحب

الشرطة الذى كانوا يطلقون عليه اسم « الشحنة » - وقع بين غضب رئيسه وغضب مرءوسيه : فوقع بين شقى الرحى !

فلما تولى وزارة مصر ثارت به العداوات وأرقتة المؤامرات ، فحارب الحسد فى نفوس زملائه القدامى ، ثم حاربه فى نفوس أعدائه المحدثين ، بات طول لياليه - كما يقول القدماء - على جمر الغضا .

واذ تولى قيادة جانب من الجيش ثم كل الجيش طرح كل ما كان يتلهم به كأحد الضباط الشبان ، وصار ضابطا كبيرا رزينا قبل الأوان ، ثم خاض المعامع وشيكا . ولم يلبث أن ألقى عليه عبء المنطقة بأسرها ، فسهر لها حذرا مقداما يدارى سوس الداخل ويترد غربان الخارج ، وظل يدفع ويمنع طول حياته ، لم يهدأ ولم يكل ، حتى قضى .

ضوء من الماضى :

وترك هذا الرجل سيرة أبهى من الضوء تنير الطريق لمن يريد أن يهتدى وأن يصل . يرى كل عابر طريقه فى هذه المنطقة أن يشعل منه قبسا ، حتى يستضىء فيهتدى ويصل . وهى مهمة التاريخ ، ووظيفة الاقتداء ، وحكمة الانتفاع بالقياس .

وينفرد صلاح الدين دون كثير من القادة والأبطال - بأنه كان ضرورة زمنه ، فلم يكن يعوضه فيه بطل آخر تقل صفاته عن الصفات التى جاء بها بين قومه ، وهم قومنا ، وفى أرضه ، وهى أرضنا ، وفى زمانه الذى هو أشبه بزماننا .

واشتعال قلبه بالحنز والذكاء وحب الجهاد ليحمى قومه وبلاده كان كذلك ضرورة ، فلم يكن يصلح مكانه قلب آخر ، فأتى صلاح الدين هو وقلبه وصفاته فى الوقت المناسب الذى يتطلبه وحده ويحدد ذاته

ويتلهف عليها ، لم يتقدم به الزمن ولم يتأخر ، فانفرد بالبطولة التي يكون بها — فى الظروف المناسبة لها — الاقتداء ، ويحسن منها الارتفاع .

وكان الوطن — اذا صح أن نذكر كلمة « الوطن » لتعبر عن الحمى الذى حماه — يدعو فى ذلك الزمان من يمد له يد المعونة — كما مدها — لينقذه من محتتيه : محنة الداخل ، ومحنة الخارج .

وليس معنى افراد صلاح الدين بهذه الصفات أن المنطقة قد عقت عن خلق الرجال وولادة الأبطال فقد جاءت فى عصرنا برجل مقدم هز العالم كله من أقصاه الى أقصاه .

بلايا الداخل

أما فى الداخل فكان يقتسم الخلافة خليفتان : يقتسمانها فى أرض المشرق القريب ، أما المشرق البعيد فكان قد ضاع . وأما المغرب فكانا عليه خلفاء آخرون . والخليفتان فى المشرق القريب لا شأن لهما بالمغرب ، ولا شأن للمغرب بهما ، وكان أحدهما بالقاهرة والآخر ببغداد ، ولا يرضى أى خليفة فى المشرق أو المغرب الا أن يثدعى — دون غيره — بأمر المؤمنين .

وكل من خليفتى القاهرة وبغداد قد صار فى ذيل دولة تلفظ النفس الأخير ، فلم يكونا الا كبقية زيت المصباح القديم ، تكاد تجف وتنفى فينطفئ السراج : خليفة القاهرة كان طرف الذيل فى دولة العبيديين ، وخليفة بغداد كان قد قارب طرف الذيل فى دولة العباسيين .

وكانا يصدران الأوامر ، ويعينان الوزراء ، ويبعثان الرسل والكتب ، ويهبان الهدايا ويخلعان الخلع ، ولكنهما كانا فى كل ذلك عن غير رأيهما ، فلا رأى لهما ولا خيار ، بل كانا مجبورين عليه ، وعليهما أن يطيعا .

وفى لقاء ما نرلا عنه من السلطان مدوا لهما فى أسباب الترف واللهو ، فسبحا فى قصرهما على الشهوات ، وتمرغا على مفاتن الدنيا من

الذهب والجواهر والأثاث والرياش ، وحشد لهما الخدم والحشم والعبيد والاماء . وحتى يكون لهما أمر فى العامة ينتفع به ان احتيج اليه ضربت باسميهما النقود ووقعت الرسائل وخطب باسميهما على المنابر .

هذه بعض المشابه بين الخليفتين ، ولكنهما مختلفان : فخليفة بغداد سنى وخليفة القاهرة شيعى قد تطرف حتى خرج عن التشيع .

ووزراء بغداد سلاجقة أتراك انحدروا من قلب القارة واعتنقوا الاسلام فى غلظة ، واتبعوا مذهب السنة فى حدة . ووزراء القاهرة — مصريين أو غرباء — قد مزقوا شمل بلادهم فى فتن دامية انتهت باغتيال وزير يدعى « طلائع بن رزيك » كان قد استطاع أن يقر السلام فى وطنهم ، ولكنهم لم يتركوه غير فترة وجيزة ، فانهى باتهاء عهده السكون والسلام .

وكما تعادى الخليفتان تعادى الوزراء السلاجقة ووزراء مصر ، فما لبث السلاجقة أن استولوا على دمشق وانتزعوها من « العبيدية » ثم انتزعوا سوريا بأكملها ، فانتقلت منهم — شبه موحدة — الى ملك « الأتابكة » أولاد « عماد الدين زنكى » ، وانحسر سلطان العبيدية داخل مصر .

ودخل وزراء مصر بذلك فى منازعات عنيفة مع جيرانهم من حكام الشام ، واستعانوا الفرنجة عليهم ، ورضوا للفرنجة بما لم يرضوا به لجيرانهم ، فوقعت أبواب القاهرة ومداخلها فى يد حامية أجنبية ، وصار للفرنجة بمصر مفوض سام ، فضلا عن جزية ضخمة تؤدى اليهم .

وفى ظل ما يدعونه من تعادى المذاهب ، وفى حماية التطرف الضال استخدم الاتهازيون — الذين أبطنوا الشر — الدعوة لأنفسهم ، فصار لهم سلطان لا يقاوم ، وصارت لهم داخل الدولة دولة ، وبجانب حصونها حصون وقلاع ، وكان المظنون أن ينشروا سلطانهم حيث يحميهم التطرف ، وفى بلاد العبيديين وحسب ، ولكنهم نشره فى البلاد التى تدين بالمدى

السنى أيضا ، فاستطاع أولئك الاتتهازيون أن ينشروا الذعر فى ربوع الشرق الأدنى كله سنوات طوالا .

وعلى مثل اختلاف الخلفاء والوزراء ، كان الولاة والعمال فى الولايات التى تتساقط من أملاك الدولتين أو تخف عنها قبضتهما ، يسوقون الناس لغاياتهم وتوسيع أملاكهم ، حتى حلت بالناس فى جميع الولايات مصائب الفقر والفساد والموت ، وتركت مدن بأسرها طعمة النيران .

انتفاص الارض :

ولم يبت الأمر مقصورا على أمراء الداخل يأكل بعضهم بعضا ، ويسقط الناس هلكى على حفافى الأرحاء الدائرة على أجسادهم فى معارك الأمراء ، ولكن الصليبيين كانوا قد غلبوا فى أكثر الأنحاء ، واقتطعوا من أرض هذا المشرق القريب — برغم ما حاول بعض الأمراء المخلصين دفعهم — أقاليم أنطاكية وطرابلس فى الشمال ، وبيت المقدس فى الوسط ، وساحل الشام كله فى الغرب .

وقطع الصليبيون ما بين دمشق ومصر ، ودمشق والحجاز ، من طريقين : طريق « عسقلان » — فى الجنوب من يافا — على شاطئ البحر ، وطريق « الكرك » و « الشوبك » من الداخل — فى الجنوب من بحيرة لوط — فباتت البلاد الباقية فى المنطقة بأيدي المسلمين أجزاء منفصلة تميل أن تتواصل فلا تستطيع .

وزاد النار ضراما واشتعالا أن الحملة الصليبية الثانية — وكانت باقية بثقلها — قد سلطت أحد أمرائها الأشرار على العهود والمواثيق فنقضها ومزقها ، ثم جاوز حده فأزمع أنه سيمحو الاسلام من الأرض وأنه سيسحق البلدين المقدسين نفسيهما : مكة والمدينة ، ولم يكن تجاوزه نية أو تهديدا وحسب ، ولكنه ساق فرقا من عساكره لتحقيق الأهداف الطائشة التى خيل له غروره أنه سيدركها .

صلاح الامة :

واذا كان حال بلادنا قد بلغ هذه الغاية ، وكان الأمراء قد جعلوا أمر الأجنبي الدخيل أمرا ثانويا ، أهم منه أن يتقاتلوا ويدك بعضهم حصون بعض ، فإن الأمة لم تكن قد فسدت كلها ، بل كانت تنطوى على كثير من الخير والفضائل التى لا يستطيع طمع الأمراء وفسادهم أن يطمسها أو يأتى عليها .

كان الناس فى الزمان الثالث — كما رتب الفلاسفة الأزمنة — كانوا قد صلحوا وفسد الأمراء ، فكانوا كالجسد الذى لم تزل فيه السلامة ، بينما فسد الرأس ، ولو فسدوا هم أيضا لبلغوا الزمان الرابع ، وهو أفسد أزمنة الأمم ووقت فنائها . ولو صلح الرأس كما صلحوا لبلغوا الزمان الأول ، وهو أصلح أزمنة الأمم ووقت بقائها . فلم يرض الناس فى أى بلد بما هو كائن ، وتمنوا فى كل وقت أن يجدوا مخلصا ينقذهم من المنحدر الذى هوى اليه ، فلما جاء « نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى » وفيه من الصفات والفضائل ما يعجبهم وينقذهم التفوا حوله ، فسهل عليه بحبة الناس له تأديب كثير من الأمراء واخضاعهم لأمره ، ولكنه مع ذكائه وصلاحه كان ذا حظ قليل ، أو لم يصب الناس به حظا كبيرا ، فذهب ، وكان كالارهاص بين يدى المعجزة الآتية عن قريب .

واستطاع الصلاح الكائن فى الأمة أن يخلق الضرورة التى جاءت بزعيم مههد لزعيم أقوى ، حتى يقضى — كما تود الأمة — على التصارع والتفرق ، ويجمع القوى ويوحد الفكرة والاتجاه ، ثم يدفع عدوان المغير ، جاعلا دفعه الهدف الأول ، وبغير كل ذلك فلن ترد للشعب كرامته ، ولن تصان له مقدساته .

وقد قضى صلاح الأمة الذى حدد صفات الزعيم المرجو بأنه من المستحيل أن لا يكون ، فقد كانت المنطقة كلها تريد أن تنفى عنها عيوبها

وتتخلص من بلاياها ، ولكنها لم تكن تجد الأداة ، أو كانت تجدها قديمة الفساد . ولم تكن تبصر الطريق ، أو كانت تجده ملتويا فتسير فيه على مشقة واضطراب ، فاصطنع القدر الأداة ، وهيباً الطريق ، وأرسل بطلا شحنه بكل القوى ليقود المعارك ضد البغى والعدوان ، وينصر أمته التى باتت تترقبه وهى تستحقه أن يكون .

وكان للناس أو لصلحائهم — على الأقل — آمال كبرى فى الزعيم القادم : كانوا يرجون أن يبتز ويقص ويمحو ويطرد ، ثم ينشئ وينبئ ويعلى ، وعليه فى أثناء ذلك أن يقوم باصلاح دينى نسبى غير عنيف ، يقضى على التطرف والانتهازية اللذين خلقا تحت ستار التشيع ، بل يشجع مذهبا لم يجر به تيار السلاجقة والأتابكة : مذهباً سليماً وسطاً ، فكان لابد من زعيم شجاع ذكى يتحين الفرصة لضرب التطرف ، ويحاول أن يجمع الناس أو معظمهم على رأى واحد ومذهب واحد ، ووطن واحد ، فى حرص وذكاء ورفق ، من غير حدة ولا عنف ، فان الاسلام لا يقبله . فلم يكن ذلك الذكى الشجاع المرجو الا صلاح الدين .

حقاً ، انه لم يقم هو بالاصلاح الدينى أو ما أشبه الاصلاح ، لأنه لم يكن فقيهاً ، وانما هو اعتنقه ودعا اليه وناصره فنجحت دعوته وكتب لها الانتصار .

مشاق الطريق :

وكانت الطريق كثيرة الصعاب مسدودة المسالك ، لا تجدى فيها الحيلة وحدها ولا الحرب وحدها ، بل لابد منهما جميعاً ، ضد أمراء الداخل وغزاة الخارج ، وهم وان كانوا فريقين فظالما كانوا فريقاً واحداً : اذ كان يتصل بعضهم ببعض ، ويحمى بعضهم بعضاً . وفى هذه المأساة الحزينة الدامية كان المغنم دائماً وعلى وجه أكيد للأجنبى الدخيل .

فلما جاء صلاح الدين كان عليه أن يحارب باليدين ، ويقاثل الطائفتين ، منفردتين ومجتمعتين ، وقد قاتلها وأظفره الله عليهما ، وما لبث أمراء الداخل أن خضعوا له حين غلبهم ، وخدموه حين أدبهم أو حاسنهم ، فلما اجتمعوا حوله استطاع أن يلقي أوروبا كلها ممثلة في ملوكها وفرسانها ومحاربيها ، أو معظم دولها وأقواها .

واستمر صلاح الدين يلقي العدو لقاء بعد لقاء ، والعدو لا ينقطع ولا يخمد ، وكلما مضى به زمن جاء به زمن ، وكلما فنت عدة أنشأ الأعداء عدة ، وهم على كل لون ، وبكل سبيل ، وكأن العداوة تنمو على الحصاد كأنها النبات — كما قال صلاح الدين نفسه — والبحر لا يمسك عن القذف بأمواجهم الى الساحل كأنهم تياره الذي لا يهدأ ولا ينام .

وكان نظام الاقطاع في القرون الوسطى قد بنى قلاعاً وحصوناً ترهق بضخامتها ومنعتها جيوش الغزاة مهما قويت ، اذ كان كل حصن يعنى سلامة منطقة بأسرها ، فكانت الحصون تبنى مراكز للحراسة وترقب العدو وتخزن الأسلحة والمؤن والأموال ، ولا سيما اذا قامت على أفواه المسالك بين الممالك ، كما قامت الحصون أيضاً بمدارس لتعليم فنون الحرب لمن يعيش فيها .

وقد قيل : ان حصنى الكرك والشوبك (١) كان بهما بعض الأحيان ما يقرب من خمسين ألف غرارة من الحبوب والأطعمة ذخيرة للحرب ، فاذا نشبت حملت منها الغرارات الى المدن والأمصار وجبهات القتال .

وكانت القلعة لذلك أعظم من ولاية بأسرها :
قال ياقوت :

قلعة « جعبر » على الضفة اليسرى من الفرات الأوسط ، كانت لشهاب الدين مالك بن على ، فعوضه نور الدين محمود بن زنكى عنها .

(١) لعل قرية الشوبك المصرية سميت بهذا الاسم لان جالية من الشوبك الأردنية نزحت اليها .

سروج وأعمالها وملاحة حلب وباب بزاعة ، وعشرين ألف دينار ، فقيلا .
لصاحبها : أيما أحب اليك : القلعة أم هذا العوض ؟ فقال : هذا أكثر
ملا ، وأما العز ففقدناه بمفارقة القلعة ! .

وقال ابن العبري :

ان صاحب حلب سلمها الى صلاح الدين وأخذ العوض عنها : سنجار
ونصيبين والخابور والرقّة وسروج ، وجرت اليمين على ذلك ، فباعها
صاحبها بأوكس الأثمان : أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضا قرى
ومزارع ، فقبح الناس كلهم ، ما أتى به ! .

فلهذه الأوتاد القائمة في طريق الجيوش اتخذ صلاح الدين العدد
وآلات الحصار ، وأعد الجلد والصبر ، وحسب الزمن ، فاستطاع أن
يتغلب على مناعتها ويتمكن من اخضاعها ، وكما أعد لها جهاز الهجوم أعد
لها أيضا — اذا دعا الأمر — أدوات الاحراق وأساليب التدمير .

وكان هناك ضغث آخر ، فقد كان العصر عصر فروسية ، هنا وفي
أوروبا . والفروسية مركب ذلول للحماسة العمياء ، ومن شأنها أن تبرز
صفات الفارس الفرد وتظهر مزاياه . وقد فتحت العقائد الشائعة عندهم
— حينذاك — منافذ الولوج للفرسان ، فبدءوا يسرون مع المقاتلة لشراء
أنصبتهم من الجنة ، وبدا الموت في سبيل موطن المسيح سهلا محبوبا ،
أما ما وراء ذلك من الأسباب : كامتلاك أقاليم آسيا الواسعة المملوءة جبا
وثروة ، ورد الأتراك عن أبواب القسطنطينية ، فقد كان أمرا ثانويا
بالنسبة لشراء نصيب في الجنة باقناذ بيت المقدس بحجة أنه مهد المسيح .

ولمعت هذه العقيدة — وكأنها جديدة — في نظر القوم . أما بالنسبة
للمسلمين فقد كان شراء الجنة عندهم قد صار عقيدة قديمة راسخة ،
فهم أصحابها ، وقد حاربوا منذ الأول ليدخلوها ، وهم مطالبون دائما
— فريضة محتومة — بالدفاع عن دينهم لتكون لهم بهذا الدفاع مفاتيح
الجنة . وقد علموا في الآثار التي حفظوها أن رجلا سأل نبيهم أن يدعو

له بأفضل ما عند الله لعبده ، فقال له النبي : « اذن تعقر فرسك وتموت . شهيدا ! » .

هذه عقيدة المسلم وفريضة جهاده ، فاذا انضاف اليها أنهم مهاجمون . في ديارهم ، ومن أجل استلاب بيت المقدس منهم ، وعنده مسجدهم الأقصى ، فقد وجب الموت دون الدين ودون بيت المقدس ودون الأموال . والديار .

وكانت الخيل لم تزل في هذا المشرق مراكب العرب والمسلمين ، بل . الخيل عندهم أجود وأكثر ، وقد جاء يقودهم في معاركهم فارس نشأ من فرسان ، مؤمن بما آمنوا به ، بل هو يدعوهم الى الايمان . فلما التقى الجمعان التقوا في حروب مقدسة ، عندهما معا ، اشتعلت عنيقة حامية . الوطيس ، ينظر الفارس فيها الى الموت كأنه أحب الشهوات ، لأنها بدافع من الدين ، وبوسيلة من الفروسية ، وليس شيء يقحم الناس في الموت . مثل تلك الدوافع وتلك الوسائل ! .

مؤازرة الناس :

وكتب الله لصلاح الدين أن ينجح ، فساق اليه الناس زمرا ، من كل الأطراف ، يؤازرونه ويفدونه . حقا ، انه لم يحصل على مؤازرة كاملة من الناس الا بعد أن آمنوا به . والايمان برجل صعب شديد ، وهو أكثر صعوبة وشدة من الحب ، ذلك أن حب الناس يمكن أن يجلب ببذل المال . والتودد ، ولكن الايمان لا يكون الا بمشاهدة التوفيق يكتب للآراء . والأعمال والتجارب ، ويحقق الناس به كثيرا من الآمال ويصييون كثيرا من المرامي .

وكذلك أقبل الناس على صلاح الدين — أول ما أقبلوا — مترددين ، ثم أحبوه حين تقرب اليهم بالمودة والمال والانصاف ، فلما :

انتصرت آراؤه ومواقفه ، وحققوا من ورائها كسبا للدين والوطن والمجد
أقبلوا على الايمان به والثقة به .

وحين دعا صلاح الدين للحرب والاشتراك فى قتال مرير استجاب
له الناس ، وأقبل عليه المتطوعة من كل مكان — ما عدا بغداد فقد غابت
الا قليلا من محاربتها ورماة السهام فيها — وأقبل المتطوع بمحض ارادته
وملء حرثه ، حاملا معه — لو كان فارسا — كفاية بيت بأسره لمدة
شهور ، فاذا انتهت المعركة بانتصار نقل معه حملة الى معركة أخرى ،
واذا انتهت بهزيمة أحرق متاعه وطعامه ، أو تركه نهى ان لم يستطع له
اتقاذا أو احراقا .

وقد بدت معارك صلاح الدين كأنها كلها تطوع ، من غلبة المتطوعين
فيها ، ومن النتائج التى جناها استمرارهم أو انسحابهم ، بسبب الحرية
التى كانوا يتمتعون بها فى البقاء أو الانسحاب ، ولكنهم — على كل
حال — قد كثروا وغلبوا ، وأجابوا دعوة صلاح الدين ، وكانت كثرتهم
فى جنده أهم مظهر لايمان الناس به واتباع مبادئه .

وآزر صلاح الدين ما جاء به هؤلاء وغيرهم من المال ، فقد كفوا
الدولة عبء الاتفاق على كل المحاربين لو كانوا جندا دائما مجبورا ، وكان
من لم يجد مالا من المطوعة اقترض وسار للمعركة ، حتى غلبت الناس
الديون ، فكانت فى بعض الأحيان من أسباب التفرق فى المعارك وتركها
بغير انحصام .

وظهرت فى مؤازرة صلاح الدين قوة هائلة ساحقة ، لا سبيل الى
الغض منها أو التهوين من شأنها ، وتلك هى تمرد الجماهير على الأمراء
والولاة الذين يعاندونه أو يحاربونه ، وثلاث حوادث منها تكفى فى
عرضنا هذا للدلالة القاطعة على مؤازرة الجماهير له وايمانهم به :

فقد حدث عند موت نور الدين أن تولى الوصاية على ابنه اسماعيل
رجل يقال له « كمشتكين » فأخذ اسماعيل الى حلب فأقامه بها ، فلما بلغ

ذلك أهل دمشق خافوا « كمشتكين » فكاتبوا صلاح الدين أن يسير اليهم من مصر ، فسار اليهم في جريدة من الخيل عليها سبعمائة فارس ، فلما وصل الى دمشق تلقاه أهلها بالترحيب والتكبير ، وفرحوا به ، وسلموا اليه قلعتها .

وحدث عندما مات « شاه أرمن » صاحب « خلاط » أن دعاه أهل خلاط لامتلاك بلدهم ، دون غيره ، فلم ير صلاح الدين بدا من النزول على ما شاءوا ، فسار اليهم من الموصل مستجيبا لرجائهم ، وألحق بلدهم ببلاده وأهلها بقومه .

وحدث كذلك أن اشترك « ابن بيسان » صاحب آمد حين فتحها صلاح الدين وظهر عليه أن يحمل في ثلاثة أيام من آمد ما يقدر عليه ، فأقره صلاح الدين على شرطه ، بل زاد فأعانه على نقل الأموال بالدواب والرجال ، ولكنه تعذر على ابن بيسان أن ينقل ما أراد ، فقد تخلى عنه الرجال وانصرف الناس ، ولم يعنه أحد منهم ، حتى من كانوا في خدمته فتخلوا عنه ونهبوا أمواله .

أما خاصة رجال صلاح الدين الذين أحاطوا به من قرب : من القادة والعلماء والدعاة والمهندسين وغيرهم في شتى المناصب والأعمال فقد آزره بما يجلب عن الأمثال ويعز عن الأضراب ، وكان معظم القادة من اخوته وأولاده وأصفي أصدقائه ، ومن الذين تعودوا اللقاء واستخفوا بالمعارك ، وقد اختار من العلماء أصدقهم وأوفاهم ، ومن المهندسين أدقهم فنا وأكثرهم نشاطا ، ومن الرسل أخبرهم وأكتمهم للسري . وإذا لم يكن لصلاح الدين خيار في اختيار أهله ، لأنه منهم ، فقد كان له الخيار في اصطفاء الصلحاء من كل النواحي :

من حلب ودمشق وشيزر ، ومن غزة وعسقلان والأردن ، ومن مصر والاسكندرية ، ومن بغداد وأقصى البلدان . قوم تختلف شهرتهم في السياسة والعلوم والآداب والفنون والحروب ، قد دعاهم اليه من كل

بلد ، فكان له من كل بلد معين وصديق . وتلك احدى قرائد صلاح الدين .

بعض الاخطاء

وليس من شك فى أن صلاح الدين كان متجردا — أو تجرد وهو سلطان — عن أى نزعة الى كسب شخصى ، وانما كان منصرفا كل الانصراف الى خدمة أمته ، ليس غير ، ومن يفعل مثل ذلك لا تذكر الناس له أخطاء .

ومن كل ما سبق لا تكاد تبدو على صلاح الدين غلطة أو هفوة ، ولكنه انسان ، وابن آدم لا يسلم من عيب ، فقد أخطأ فى الحرب أحيانا ، وقصر فى اجتناء النصر ، وأخطأ فى غير ذلك ، وسنعرض لأخطائه هذه وغيرها فى أثناء هذا الكتاب .

ولكننا نبادر فى هذا التقديم الى الكلام عن خطأ الاسراف ، فانه دأؤه وداء آل أيوب جميعا ، وقد كان غلطته الدائمة التى طالما أوقعته فى قلق واضطراب ، ولم تغلح معه التجربة ولا العظة . وهذا شأن الكرماء ، لأنهم — كما يقال — لا تعلمهم التجارب .

وذلك أن صلاح الدين لم يمسك المال : لا ماله الخاص ، ولا مال الدولة العام ، بل كان ينفقه كله بغير مبالاة : كان كأحد ملوك العطاء فى أوصاف الشعراء : كان يهب الولايات ويمنح القلاع ويقطع الأرض ، وكان يفرق رءوس الخيل ويقسم الغنائم والأموال والأثاث والكتب ، وكان فى كل ذلك لا يبالى ، وكأنه أحد المسرفين المبددين .

وليس هذا قولنا فيه ، ولا ادراك المؤرخين من بعده ، وانما هو قول خزنة أمواله ، فقد حدث بعضهم أنه كان يخفى عنه ما فى خزائنه حتى لا يبدده . وقد شكاه أخوه من تبديد ألوف كثيرة فى ليلة واحدة

أرسلها إليه أخوه غب ففتح القدس ، فأرسل إليه فى اليوم التالى يطلب غيرها ليفرقها ، فأرسل إليه .

وقد يكون لصالح الدين عذر فى أن يهب ويعطى غب المواقع والاتصارات حتى يجتذب الأمراء والولاة ، ويكافئ المطوعة حين النصر ، أو يعوضهم حين الهزيمة ، ويقرب اليه قلوب الأعداء . كما قد يكون له عذر آخر : هو فلسفته فى الحياة ، اذ لا ضرورة — فى رأيه — لاقتناء المال ما دامت الدولة كلها له ، لأنه مهما طلب فانه سيجد ، أما اذا ذهبت الدولة منه لغيره فلن يبقى له شئ من عام أو خاص ، فلا ضرورة اذن للاقتناء . ولعله درس تعلمه من أساتذة دولته : زنكى وابنه نور الدين ، وسنعرض لهذا الدرس فى أثناء الكتاب .

قياس الازمنة :

هذا صلاح الدين ، وهذا عصره ، فهل عدنا اليوم كما كنا بالأمس ؟ يقول بعضهم : ان التاريخ لا يعيد نفسه ، ويقول آخرون : انه يعيد نفسه ، وأرى الثانى أصح الرأيين ، وعليه اجماع كبير . حقا ، انه لا يعيد نفسه بحيث تنطبق الحوادث فى زمنين مختلفين تمام الانطباق كالانطباق المثلثين فى علم الهندسة ، ولكنهما يتطابقان تطابقا ملموحا ، كما فى التشبيه اللغوى ، تكفى فيهما عدة وجوه ، أو وجه واحد لا غير .

غير أن حوادث الزمن عادت كما كانت ، وعلى الأرض نفسها ، ومن سوس الداخل وغربان الخارج ، وهما مرة يفترقان ومرة يأتلفان ويتفقان ، وقد قرمت الشهوات ولمعت مطامع الدنيا ، ولكن الأمة تضمن بين جوانحها صلحاء كثيرين ، وجمهور الناس يريد الخلاص .

ليس فى زمننا خلفاء ، ولكن فيه من يشبهونهم ، والامارات تسمى دولا ، ولو أطلقت أيدى ولايتها لتحاربوا ، ليوسع كل منهم فى رقعته

ويسيطر سلطانه ، والعدو الأجنبي قد ملك جزءا كبيرا من الساحل ، وقطع الطريق بين دمشق والقاهرة قريبا من أرض عسقلان نفسها وقريبا من أرض الكرك والشوبك نفسها ، وقد قام على الدعوة للوحدة والجهاد داع جديد .

غير أنه يختلف عن صلاح الدين ويتفق معه : يختلف عنه في صلاته بأمراء الولايات وحكام الدويلات : ذلك أن صلاح الدين رأى أن يقاتل — في سبيل الوحدة — كل من يتصدى لها ، حتى أستاذة بالأمس وابن أستاذة ، ولم يرجع عن خطته الا في أخريات أيامه ، وقبل موته بست سنوات لا غير — حيث كانت الوحدة قد تمت بين الولايات العربية وقليل من غيرها — وقد نصح له مشيروه أن يقلع عن خطته في محاربة أمراء المسلمين ، فنذر أن لا يحاربهم بعد ، ونذر مضطرا لأنه كان عليلا مريضا يلتمس الشفاء .

وكان آل أيوب على رأيه ، ما عدا أباه نجم الدين ، فانه كان لا ينجيز أن تلتقى عساكر المسلمين في حروب بينها ، ولكنه لم يلتزم رأى أبيه هذا ، وكان ذات مرة قد فكر هو وآله أن يلقي نور الدين ، غير أن أباه ثناه عن رأيه وصده عن قصده .

أما داعى اليوم فانه رأى أن لا يقاتل عربى عربيا ولا مسلم مسلما ، مهما دعت الدواعى وألحت الخطوب . والزمن — فى رأيه — كفيل أن يردع الولاة ويجذب الخارجين ويقهر المعاندين .

أما العدو الأجنبي فلا يرى له الا لقاء ومقاتلته ، فهو يخالف صلاح الدين فى علاج أمر الداخل الى أفضل مما رأى صلاح الدين وعالج ، ويتفق معه فيما لا بد منه من حرب الأجنبي وملاقاته ، فكأنه صلاح الدين .

القدوة الحسنة :

والغريب أن صلاح الدين مهما أخطأ فقد نسيت أخطاؤه ، وستر
بياض انتصاراته سواد هزائمه ، وغريبت كذلك أن يظل في صلاح الدين
— بعد موته بأجيال — سر من العجاذبية القوية يجذب القادة والأبطال الى
قبره الساكن كما كانوا يلوذون به حيا في خيمته المتحولة ، وسواء في
ذلك المنتصر أو المهزم أو الزائر العابر .

وهكذا ظل اسمه لامعا ، ومحاسن سيرته متلوة ، فاستحق أن يكون
أعلى قدوة ، وهو في هذا الجانب يبدو حفا سعيدا لعصرنا اذ نرى فيه
المقدمات والنتائج وما بينهما ، ونطمئن — حين نسير على ما يليق بنا
من خطاهم — الى أننا نسير على الخطة ونمشي على الجادة ، ولم نخطيء
حين قلنا — من قبل في هذا التقديم — انها مهمة التاريخ ، ووظيفة
الاقتداء وحكمة الانتفاع بالقياس .

وأى فارس معلم مر في حقيقته مرور أسطورة — وهو من آبائنا —
يصلح أن يكون قدوة لنا غير صلاح الدين ؟ لقد كان وحده الفارس
المعلم الذي يفخر به قومه ويتغنون به كأسطورة خيالية حلوة التكرار ،
وستظل حلوة في أفواههم حتى غاية الأبد .

انه الفارس ارتبط بمتن فرسه ، ولم يفارقه كمنزل متنقل ، أكثر من
ربع قرن ، حتى انه كان يمرض فيحملونه الى الخيمة فيثقل عليه المرض ،
حتى اذا شدوه الى ظهر حصانه اعتدل وعوفى أو نسي العلة ، لأنه سكن
الى فراشه الوثير وركب سهوة ملكه وسلطانه .

ولقد إعوج ساقاه من كثرة ركوبه ، فكان اذا مشى على الأرض
عرج ، فلم ير أن يراه الناس الا راكبا ، كما لم يره الناس منذ انفتحت
عليه أبصارهم قد خلع لباس الجندي الا مرة واحدة في دمشق ، وكانت
قبل وفاته بأيام .

وكان أصعب من ركوب الفرس طريقه الذى يشقه ، وكثير من
الناس والقراء لم يروا أرض الشام ولا جبال لبنان والأناضول ، وسيارات
عصرنا تحترق آلاتها وتزل دواليبها وهى مصعدة فيها ومنحدرة ،
والمتنبى وهو فارس دولة بنى حمدان يقول — وقد تردد أن يعبر بفرسه
جبال لبنان فى الشتاء :

وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء ، وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها على مسالكى فكأنها بياضها سوداء

أما طريق صلاح الدين فى هذه الجبال وتلك الوديان مصعدا أو
مجرجما ، فكان كالنسر اذا نهض والقمة اذا انحدرت والعاصفة اذا هبت ،
ومن حق الناس أن يصدقوا خيالات الأساطير اذا رأوها قد أصبحت
حقائق فى حياة صلاح الدين !

وفرس صلاح الدين وأفراس أصحابه ، وهى لا تبلغ أقدار قطع من
الأحجار فى جدران الحصون ، كانت تروع القلاع وتمنع عنها الكرى
وتسلبها الحياة أكثر مما تفعل مدافع زماننا وأدوات قتالنا ، لأنها حملت
فارسا صمم على أن يموت دون قومه ودينه أشرف الميئات ، ولم يتردد ولم
يتحول حتى جاءه الموت ، وهو كما أراد .

كتابه فيه

وسيرة هذا البطل من أغنى السير بما كتب فيها ، بل تكاد تكون
أغناها ، لأنه من أكثر وجوه الأبطال فتونا ، بل هو بطل رواية الفروسية
الحقيقى ، ولم يخطئ الفرنجة حين فتنوا به فجعلته زوجة الملك فى إحدى
القصص الفرنسية مثال الرجولة الكاملة ، فأرادت من أجله الفرار من
زوجها الملك اليه .

ومنذ كان صلاح الدين حيا سارت معه وفي أثره أقلام أصحابه ، قدونت كل ما رأته في يوميات لم تهمل شيئا ، فلما جاء أبناءؤهم تبعوهم فأكملوا ما فاتوا وبسطوا ما أجملوا ، فلما جاء عصرنا ونهت ذكرى صلاح الدين واستيقظت مرة أخرى — بوجود الرائد الجديد والقائد الشبيه — عاد الكتاب عليه ، بروح عصرنا ، يعرضون قصته ويفصلون أسطوره ، ويشعلونها ضوءا وقدوة ، فصار لصلاح الدين غنى جديد وذكر فريد ، حتى بعد موته بمئات السنين .

فلما نويت أن أجعل فيه كتابا ، ورأيت القدامى والمحدثين قد أوفوا على الغاية ، جانبت طريقتهم الى كتاب تبدو فيه العبرة وتبين القدوة ، راميا الى الایجاز حينا والتفصيل حينا ، مقسما تاريخ صلاح الدين الى أقسام تتجاوز مجازاة الزمن ونظام السرد ، وقد رأيته أخف وأروح ، وذلك ظني وقدر اجتهادي ، ولكل مجتهد نصيب .

كما أنني أردت أن يقع القارئ — في دقة وسلامة — على وجوه الشبه بين أحداث زماننا وزمانه ، غير جاعل ، الا للبحث العلمي ، مشابه الحوادث ومنافع التجارب ، وعسى أن ينبئ الصدق عما أقول فيكون للكتاب قيمة ما أردته له عند المنصفين .

وقد أتاح لي القدر حظا غير قراءة صلاح الدين في مراجعته التي أشرت اليها في فهارس هذا الكتاب ، فقد رأيت المنطقة التي تمثلت عليها أيام صلاح الدين ، أو رأيت معظمها :

رأيت الساحل كله ، وقطعته ما بين مصر وحدود الأناضول ، وعبرت الأردن وفلسطين ومنطقة القدس ، وشاهدت طبرية وعكا وصور ومرجعيون وقلعة الشقيف ، ونزلت بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب ، وسلكت أفواه الجبال في ساحل لبنان كله حيث كان فرسان الدروز العرب في جيش صلاح الدين يحبسون الفرنجة الغزاة عند شط البحر ويصدونهم

عن الولوج ، ثم بقيت سلالاتهم الى اليوم تسكن بعض هذه الأفواه ،
وتفتخر بأنها حفظتها يوما ما من غزو المغيرين ، كما أنها تنتصر بقوة الى
الرائد الجديد .

وها هو ذا الكتاب ، فعسى الله أن يكتب له وينفع به ، فيكون عبرة
من التجربة ، وقياسا للأزمة ، وارتفاعا بالتاريخ . والله ولي التوفيق .

عبد العزيز سيد الاهل

عضو المجلس الاعلى للشئون الاسلامية

يوسف بن أيوب

- مولد الأبطال
- قلعة تكريت
- نجم الدين أيوب
- يوسف بن أيوب
- في الموصل وبعليبك
- في دمشق
- مع شيركوه
- شحنة دمشق
- يوسف وملاعبه
- سلم المجد
- منازل سكناه
- العظمة والألقاب
- في الوسط العربي

مولد الأبطال :

لا ضرورة لأن يكون لكل قائد بطل شباب فذ غريب الأطوار ، أو طفولة عبقرية خارقة ، بحيث تؤدي الى نتائج محتومة بأسبابها ، كما يحاول كثير من المؤرخين أن يفعلوا ويصوروا ، وانما يكفي من صفاته — حين يتم أمره — أن يعرف ببعض المواهب ، وخير منها أن يلتزم الخطة التي يرسمها لنجاحه بوعى وبصيرة ، وأن يرسم طريقه التي يسلكها في حذر ودون تردد أو انحراف .

وقد سبقنا نحن الى هذا الرأي ولكننا نزيدة تفصيلا : فالذين يعنتون أنفسهم ليخلقوا للأبطال قصصا كرهوس الأغوال مخطئون ، فالهبات قد تكون جبال مخلوقة ، وقد لا تظهر الا في أوقات معينة من العمر ، وقد تظل مختفية في أدوار أعمارهم الأولى فلا تظهر منها علامة ولا دليل . وكثير من الأبطال والقادة ، وحتى الأنبياء ، مرت في بداية أعمارهم بمقادير من الأزمنة منسية مجهولة ، حتى اذا ما استنوروا على الرسالة أدوها ، وهم في القمة ، كما يجب أن تؤدي .

ويوسف بن نجم الدين أيوب كان أحد أولئك الذين درجوا كغيرهم من الشباب ، وكانت ميزته أنه يبدو على بعض الاعتدال ، أو يقبله اذا نبه اليه ، وهي ميزة تبشر بخير . حتى اذا استوت له الرئاسة وهو ابن ثلاثين كان كفوا لها قادرا عليها ، أقدر من كل من كان على الحكم والسلطان في المنطقة كلها ، مع أن زملاءه لم يروا صلاحه للوزارة وهو في هذه السن ، والذين استوزروه اختاروه لأنه كان في نظرهم صغيرا يمكن التغلب عليه .

قلعة تكريت

ومنذ علا نجمه التفت أهل التنجيم بالحساب يرتدون مع تاريخ الأيام حتى يعرفوا مولده ، بمراجعة السنين التي قضاها بعد أن ترك « تكريت » . وقد كان مولده لا يعرف على التحديد .

فلما تتبع هؤلاء مولده - على قياس حسابهم - اقتضى ذلك أن يكون في سنة (٥٣٢ هـ - ١١٣٧ م) . أما المكان الذي ولد فيه فكان قلعة تكريت . وتكريت كانت بلدة قديمة أقرب الى بغداد منها الى الموصل وقد قامت في طرفها الأعلى قلعة حصينة راکبة على دجلة ، بناها ملوك الفرس منذ القدم على حجر عظيم ، وجعلوها مخازن للذخيرة ومراقب تكون بينهم وبين الروم لئلا يدهمهم من جهة الروم أمر على فجأة ، ثم افتتحها المسلمون في السنة السادسة عشرة من الهجرة أيام عمر بن الخطاب (١) .

وظلت تكريت تنتقل تحت دول المسلمين حتى كانت تحت الدولة السلجوقية ، واتصل أيوب بن شاذي بأحد رجال « الشحنة » السلجوقية ببغداد واسمه « بهروز » فجعل أيوب حاكما على قلعة تكريت ، وجعل معه أخاه « شيركوه » أسد الدين ، فصار أيوب وهو يحكم القلعة أشبه بحاكم تكريت .

وكان هذان الأخوان قد قدما الى العراق من قرية في أقصى حدود « آذربيجان » يقال لها « دوين » في ناحية من اقليم « آران » . وكانا من الأكراد الروادية ، فنزلا تكريت وعملا في شحنة بهروز . والحق ان أباهما « شاذي » كان أول من سار مع بهروز الى قلعة تكريت في خدمة الدولة السلجوقية فلما مات شاذي ولى بهروز ابنه الأكبر أيوب أمر القلعة ، وكان قد تعلم حراسة القلاع وسياستها من أبيه ، فنهض بأمرها كما كان قد نهض أبوه .

والأكراد الروادية بطن من « الهذانية » وهي من أكبر القبائل الكردية ، وقيل : ان نجم الدين أيوب قد ولد بقرية على باب « دوين » اسمها « أجدانقان » وأخذ شاذي ولديه من هذه القرية وخرج بهما الى بغداد فتكريت حيث مات شاذي بها . فهي أسرة صغيرة ، لم يعرف من

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٨ .

رجالها غير أب وولدين ، والابن الأكبر ، وان لم يؤسس دولة ، وانما أسسها أولاده وأحفاده ، فقد سُميت باسمه ونسبت إليه .

وقد وقفوا بالنسب عند شاذى الجد ، ولكن بعضهم وصله بأباء من العرب فى سلسلة تنتهى عند مضر الذى ينتمى الى عدنان (١) ، فقالوا : انه عربى . وقد كان لهم عذر فى هذا الظن ، وحتى اذا صار محصورا فى المولد ، فان بعض قبائل العرب كانت قد سكنت نواحي تكريت ، فلم يكن كل سكانها من الأكراد ، وقد نزل العرب بها مهاجرين من حلب وما حولها أيام فتنة الأمين بن هرون الرشيد ، ونزل قوم منهم أيضا بأرمينية وفى بلدان كثيرة هناك ذكرها « البلاذرى » فى فتوحه (١) .

بل ان هذه المناطق حتى ما وراء « آذربيجان » لم تغل من العرب الذين استوطنوها منذ الفتوح الأولى . وقد أراد بعضهم أن يجعله تركيا ، ولكن المؤرخ « سيدىو » يتعصب لكرديته ويسوق الأدلة عليها ويقول : فيوسف — على هذا — كردى الأصل — لا يمت بصلة الى العرق التركى (٢) .

نجم الدين أيوب :

وكان من حظ أيوب أن يكون الأشهر كما كان الأكبر ، على أنه يستحق حظه ، لأنه شب عاقلا رزينا ، وأدق ما وصف به أنه كان رجلا نزر الكلام ، فلا يتكلم الا عن ضرورة ، وهذه أشبه بصفات القضاة ، يسكتون حتى يجدوا طريق القول ، وينصتون حتى يحكموا وينصفوا ، والصمت أزين ما يتحلى به العقلاء .

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩١ — روضة المناظر ص ٧٧ — وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٣ ، ج ٦ ص ١٤٠ .
(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٦ .
(٢) تاريخ العرب لسيدىو ص ٢٦٢ .

وكان أيوب مع صمته وعقله حسن السيرة منكبا على الفروسية باحثا عن أنساب الخيل ، ولعا بلعب الصوالج عليها ، بحيث يظن من يراه وهو يلعب بها وجواده يركض به كالعاصفة أنه ما يموت الا من وقوعه عن متن فرس . وكانت نبوءة تحققت ، فقد خرج أيوب راكبا الى باب النصر بالقاهرة فى يوم من أيام ذى الحجة سنة (٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م) وركض بفرسه فجمحت ، فسقط عنها ، فحمل الى داره متوجعا ، ثم مات بعد بضعة أيام ، وكان ابنه على مصر سلطانا ، ولكنه كان حين ذلك خارج القاهرة : كان يحاصر « الكرك » فبلغه هناك خبر موت أبيه (١) .

وقد تولى نجم الدين أيوب منصب الحاكم على قلعة تكرت فحاكم قلعة « بعلبك » فقائدا من أكبر قواد نور الدين محمود بن زنكى فحاميا لدمشق فخاننا على بيت المال بمصر فى وزارة ابنه للخليفة العاضد ، فعرف بذلك أهم المناصب . وأهمها ما كان عسكريا أو يختص بإدارة القلاع وحفظ الحصون .

يوسف بن أيوب

وحين كان نجم الدين أيوب على قلعة تكرت رزق بمولود أسماه « يوسف » ولا بد أن يكون ملحوظا من الآن أنه تشبه بيعقوب النبى حين سمى ابنه الصديق « يوسف » . الا أن مأساة هذا جرت مبكرة ، ففي الليلة التى ولد فيها حدث أمر مقلق لم يكن على بال ، ولعل تسمية الوليد بيوسف قد جاءت بعد أن وقعت المأساة :

ذلك أن عمه « شيركوه » أسد الدين قتل أحد قواد بهروز أو أحد غلمانه ، من أجل امرأة آذاها القائد أو الغلام ، فانتقم للخلق والمروءة

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٧ - النوادر السلطانية ص ٣٦ - ذيل النوادر ص ٢٦٧ .

حين استغاثت بفارس يمر فقتله ، والنخوة خلق الفارس ، ولكن أخاه أيوب حاكم القلعة وحاكم البلدة لم يهمل الجناية ، فأصدر أمره باعتقال أخيه فاعتقل ، ولكن بهروز وقع فى حيرة من شأنه وشأن ضيفيه : فقد خاف على نفسه من القواد أو الغلمان ، ورهب شيركوه لمجازفته ، ثم خاف على أيوب وأخيه أن يصيبهما الأذى ، وقد أحسنا إليه فى خدمته ، فجاء بهما مظهرا الخوف عليهما ، وطلب اليهما أن يخرجوا فى ليلتهما من تكريت الى حيث يريدان ، وحيث يجدان رزقهما ، فخرج الرجلان يقصدان الموصل ، وقد حملا أسرتيهما ، وفى رحل نجم الدين يوسف ابنه الطفل المولود .

قال ابن خلكان :

ولم يقيم والده بتكريت بعد ولادته الا مدة يسيرة ، ولعل خروجهما كان فى السنة التى ولد فيها ، أو فى السنة التى وليتها ، بل يقولون : انهم خرجوا من تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين ، فتشاءموا به وتطيروا منه ، فقال بعضهم : لعل فيه الخير ، وما تعلمون ! فكان كما قال (١) .

هذا ، ولم يذكر المؤرخون عن أمه شيئا سوى أنهم قالوا ان خاله هو « شهاب الدين الحارمى » فاذا كان منسوباً الى « حارم » التى كانت حصنا عند أنطاكية وهى اليوم من أقلية حلب ومن أقرب بلادها الى لواء الاسكندرون كان الأمل فى أن تكون أمه عربية أملا آخراً جديداً ، ولكن لفظ « الحارمى » جاء على غير صورة واحدة فى كتب التاريخ ، فبعضهم قال الحارمى (بالحاء والراء) وبعضهم قال الجارمى (بالجيم والراء) وبعضهم قال الحازمى (بالحاء والزاي) فكثير الاضطراب فى اسمه فلم نستطع أن نبت فيه برأى الا اذا ثبت أنه اللفظ الأول فيكون الظن فى أن تكون أمه الحارمية عربية قريباً .

(١) وفيات الأعيان ٦ ص ١٤٤ .

في الموصل وبعلبك :

ولم يسر الطريدان المدلجان بعيدا فقد حطت رجالهما بالموصل من قريب ، ولم يطل بهما الشقاء ، فقد كانت لنجم الدين أيوب يد على صاحب الموصل ، فذهب اليه يستردها ، أو ذهب ليفيء في ظل منها ، وكانت اليد عند رجل وارف الظلال :

كان عماد الدين زنكي صاحب الموصل قد حارب السلجوقية عند تكريت أيام كان بهروز الخادم الرومي الأبيض في خدمتها ، وكان من أعوانه في تلك الخدمة أيوب وأخوه شيركوه ، فانهزم عماد الدين وكاد يؤخذ ويؤسر ، ورأى نجم الدين حاكم القلعة أن عماد الدين أولى أن ينتصر أو ينجو ، لما كان قد عرف من حسن قصده وبعد غايته ، فلما رآه نجم الدين منهزما أحضر له سفنا فعبّر بها دجلة ونجا هو وأصحابه ، فأبقاها عماد الدين يدا لآل أيوب ، وعلم بها بهروز فعدها عليهم ، ويقولون : انها السبب الأول في طردهم ولكنه أبقاها في نفسه حتى جاء سبب آخر هو قتل القائد أو الغلام (١) .

فلما بلغ الرجلان الموصل لقيهما عماد الدين بالترحاب ، وجازاهما على ما صنعا معه من الجميل عند تكريت ، فلما امتلك قلعة « بعلبك » في بداية توحيد الاقليم السوري استخلف عليها نجم الدين ومكن له فيها ، فعمر بها أيوب دارا للصوفية وسماها « النجمية » وكان رجلا — كما قالوا — كثير الصلاح حسن الطوية (٢) . أما شيركوه فقد صار عند عماد الدين في رتبة ابنه نور الدين ، بل كان نور الدين يندرج أحيانا في عسكر « شيركوه » (٣) .

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٤ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٤ .

(٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٢ .

في دمشق :

فلما تولى نور الدين بعد موت أبيه انضم اليه الإخوان وعاوناه عرفانا له ووفاء لأبيه ، فقد بدأ نور الدين يشمر عن ساعديه لمداغة الصليبيين ، ولأول مرة يلقي المعتدون فيه خصما عنيدا ، فأعجب بسلوكه أولاد شاذى كما أنه احتاج اليهما لعلمهما بالحرب وشئون الحصون .

ونصف المملكة الذى ورثه نور الدين عن أبيه كان الى الغرب من نصيب أخيه سيف الدين ، فكان مجاورا للصليبيين ، فكان لا بد من الاحتكاك بالعداوة ، فتعاون الثلاثة على الأمر ، وجعل ملك نور الدين يمتد ويتسع ويستتب ، وصار أمر الأخوين يعلو مع علو أمره وامتداد سلطانه ، فصار أيوب من أكبر أمرائه فى عسكر دمشق ، وصار شيركوه صاحب حمص والرحبة ، ومقدم عسكر نور الدين كله لما رأى من شجاعته وبأسه .

مع شيركوه :

واتصف شيركوه بمجازفته بنفسه عند القتال ، وكان التناسب وثيقا بين فعله ولقبه فسمى بحق « أسد الدين » ، كان كالفدائى الذى لا يفر من المعركة بل هو يطلبها ، ولا يقتل من جنوده واحد الا فداه بأحد ، وحين لقي الفرنجة فى الحرب صار فى خيالهم غولا يعذرون الخائف اذا فر منه . وكان قد أتقن قديما شئون القلاع ، فلما لقي الفرنجة تعلم منهم ترتيب الجند ، والافتنان فى المكر والتدبير ، وعقد بلوائه النصر فلقب بالملك المجاهد (١) .

(١) ابن الاثير ج ١١ ص ١١١ ، ١٢٢ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣١٢ .

وصحبه يوسف بن أخيه فتأثر بشجاعته ومجازفته ، وتديره وفنه ،
وصار مثله ، فكان اذا انكسر جانب عمه فى الجيش حمل هو بنفسه
وجازف بها (١) فرد الهزيمة انتصارا .

وكما كان شيركوه ثبت الجنان كان خارق الذكاء بارع الحيلة ،
لا يحيط به الكرب الا اخترع له ما ينجيه منه . ومن طريف ما حكمه
عن ذكائه : أنه لما قتل وزير مصر « شاور السعدى » وكان هو متهما به ،
استدعاه الخليفة العاضد ليوليه الوزارة مكان شاور ، ولكنه ما كاد يجاوز
خيمته ويدخل القاهرة فى اتجاه قصر الخليفة حتى رأى جموعا كثيرة من
العامة تسد الطريق ، فظن شيركوه أنهم من أصحاب شاور فحذر
لنفسه ، ومضى فى طريقه لم يرجع ، فلما اقترب منهم نظروا اليه فابتدروهم
قائلا :

ان مولانا العاضد أمركم بنهب دار شاور . فتفرق المجتمعون سريعا
ومضوا الى نهبا ، ودخل هو على الخليفة ، فتلقاه بالتكريم والمهابة ،
وأفاض عليه خلعة الوزارة ولقبه : « الملك المنصور أمير الجيوش » (٣) .

شحنة دمشق :

والشحنة منصب كمنصب الشرطة تجتمع فيه سلطة الاتهام والقبض
والتأديب ، وقد مر على دمشق عند انتقالها الى حكم نور الدين زنكى
زمن ملء بالقلق والاضطرابات وعبث اللصوص ، وبات التجار
عند كل صيحة يخفون بضائعهم فتقف دمشق . وكان على شحنة دمشق
أن يهدى القلاق ويضرب على أيدي اللصوص لتستقر الأمور .

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٧ ، ج ٣ ص ١٧٨ .

(٢) وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٥٠ .

وكان يوسف بن أيوب قد صار شابا ينتفع به ، فوله نور الدين — حين وثق به وجربه — منصب الشحنة ، ولكنه لم يكن فيه رئيسا صاحب أمر مطلق ، وانما كان عليه أن يتقيد برأى القاضى الذى يشرف على منصبه بحكم النظر فى المظالم والبت فيها ، وكان يدعى « كمال الدين الشهرزورى » ، فعلى يوسف الأيوبى أن يعمل تحت مشورة القاضى ورأيه ولا ينفرد فى منصبه بأمره .

واذ تولى يوسف العمل فى الشحنة جعل يخالف رئيسه ، فجعل القاضى يعكس مقاصده ويكسر أغراضه ، ويعترضه فى أوامره ، ومع أن كتب التاريخ لم ترو تفاصيل هذا الخلاف فانها تقول : ان القاضى كان يتوخى الأحكام الشرعية ويتعصب لها فحدثت بينهما المجافاة .

ويبدو أن يوسف بن أيوب — مثل كل الشبان الذين يعتزون بآرائهم فى أول ظهورهم — لم يكن يريد الا أن يعمل برأيه فى منصبه الذى اختير له ، وان ناقض هذا رأى بعض أحكام الشرع ، أو قصر دونها ، ولعل يوسف كان يريد أن يقضى فى بعض الأمور بالظنة ، ويريد القاضى ألا يقضى فيها بغير الأدلة والشهود .

غير أن الطبقة العاقلة والتي تريد أن تستتب الأمور عاجلا ولو كان ذلك بأوامر إدارية ظنية قد فرحت بتولى يوسف منصب الشحنة ، ويبدو أنها كانت تعرف من صفاته لياقته له وقدرته عليه ، أو كانت ترى توليه أمر هذا المنصب ضرورة ملحة فى الوقت الذى أسنده اليه نور الدين .

ولعل حسان بن نمير المعروف « بعرقلة » الدمشقى يوضح فى فرحته بيوسف لشحنة بلده أسباب اسناد المنصب له ، وذلك حيث يقول :

رويدكم يا لصوص الشام فانى لكم ناصح فى المقال
أناكم سمى النبی الكري م يوسف رب الحجا والجمال

فذاك يقطع أيدي النساء وهذا يقطع أيدي الرجال (١)

وقد ذكر صاحب « كنوز الأجداد » أن سطو التركمان والحرامية على دمشق كان قد فشا وكثر منذ استيلاء نور الدين على دمشق (٢) والأطراف ، فانتهاز الشر اضطراب الأحوال حين انتقال الملك وانطلق كما يريد ، وذلك برغم استقامة نور الدين وسهره على مصلحة الناس .

وقد أحب يوسف منصبه هذا في دمشق برغم خلافه مع القاضى وآثره على غيره ، ويبدو أنه لقي فيه نجاحا فامتنع اللصوص أو قلوا واستتب الأمن ، حتى انه لما دعى ليخرج مع عمه شيركوه الى مصر فى المرة الثالثة لى الدعوة مرغما وخرج من وظيفته بالشحنة مغضبا (٣) مع أنه كان قد تمنى أن تكون له مصر ، وكاشف بعض أصدقائه بأمنيته هذه وسيأتى الكلام عنها فى موضع من هذا الكتاب .

وقد ظهر — فيما بعد — أن يوسف بن أيوب لم يكن ذا قلب يحقد ، فانه لما صار سلطانا وصارت له دمشق مع مصر جاء برئيسه القاضى الشهرزورى وثبته فى قضائه ، ولم يؤاخذه على ما كان يصدر منه فى مخالفته وعكس مقاصده حين كان شحنة تحت رياسته ، بل أكرمه واستشاره ، وكأنما تحول يوسف الى تقبل الأحكام الشرعية حين نضج وجرب (٤) ، فأقر رأى رئيسه القديم ، وجعله من أصدقائه وقضاته ومستشاريه .

يوسف وملاعبه :

لقد وصفه عرقلة الدمشقى الشاعر بالجمال — كما رأيت — ولست أظنها ضرورة شعر ، فالصور المنقولة له والمتخيلة كلها تنطق بجماله وتشير

-
- (١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٢٦ .
 - (٢) كنوز الأجداد ص ٢٩٦ .
 - (٣) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨ .
 - (٤) مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٠ .

اليه ، وان كانت الصور التى تعرف به قد رسمت وهو فى أخريات أيامه .

وقد لعب يوسف الشطرنج ، ومع أنه لم يدمن عليه ولم يتخذ حرفة ككل هواة الشطرنج ، فانه قد قهر فى اللعب به ، وكان يجتمع عليه أصحابه أحيانا عنده (١) فى دمشق للتسلية واللعب . كما أنه ركب للترد واتخذ الصيد رياضة (٢) . وكلا اللعبتين قد أعانه ابان الحروب على قيادة الجند والتصرف فى المآزق تصرفا منجيا . وقد علمت أن رائد العرب اليوم يلعب الشطرنج ويفضل لعبته . ولكنى لم أعرف أنه يركب للصيد والترد . ولعل ذلك يرجع الى الفرق بين القاهرة ودمشق ، حيث هناك فى دمشق مسارح الظباء والغزلان .

وقد قيل : ان التشاغل بالصيد يصرف عن النظر فى أمور الرعية ، وهو قول حق متى كان الطرد شاغلا دائما ولهية مستمرة ، وقد رأيته فى ولاية من أهل زماننا ، وقد جعلوا لهم يوما فى الأسبوع يصيدون فيه ويتردون ، وهم فى هذا اليوم لا يرعون للرعية شأنًا ، فكيف بهم لو اتخذوه شاغل العمر ولهية الأيام؟! أما اذا كان وسيلة من وسائل الفروسية فانه يكون حينئذ أمرا نافعا بل أمرا لازما .

وقد اتخذ يوسف الصيد وسيلة للفروسية ، اذ كان همه فى الخيل اكبر من همه فى الصيد ، لأنه أضاف اليه علمه بأنساب الخيل (١) ، وهو الدليل على ما نقول ، وقد يسر له أبوه معرفتهما : الفروسية والأنساب ، فكان شبه أبيه حين الركوب للصيد أو القتال ، من حيث علمه الشطرنج — على ما نظن — بعض خطط الوثوب .

ولقد كان العصر عصر فروسية وصيد وقلاع ، فاتخذ الفرسان الصيد واقتنوا آلاته وطيوره لارهاق الحاسة وسرعة البديهة وترقب الفرصة ،

-
- (١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٠٣ .
(٢) جيش مصر أيام صلاح الدين ص ١٠٤ .
(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٨ .

فمكنت هذه الرياضة لكثير منهم أن ينجوا من المهالك اذا حضرتهم عقولهم وتجاربهم فيها .

وقد حكى أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار أن أحد فرسان المسلمين فى أيامه استقبله أسد ، فحاص به الحصان فرماه ، فجاءه الأسد وهو ملقى ، فرفع الفارس رجله اليه فتلقمها ، وبادره أصحابه فقتلوا الأسد واستخلصوه وهو سالم ، ثم قالوا له : لِمَ رفعت رجلك الى فم الأسد ؟ فقال : جسمى — كما ترون — ضعيف نحيل ، فقلت : أشغله بها عن أضلاعى أو يدي أو رأسى الى أن يفرج الله تعالى ! ويقول أسامة : فهذا حضره العقل فى موضع نزول فيه العقول (١) .

وكذلك كان يوسف بن أيوب : يحضره عقله حين نزول عقول من حوله ، ويثبت قلبه حين تخف قلوبهم وتطير ، ولم ينهب نفسه حزن . اذا كان الحزن لا يجدى فى ازالة الكرب ، ولم يغير من مظهره اذا وجب أن يظل كما هو أمام العيون .

جاءه عند حلب خبر بقتل أخيه تاج الملوك ، وجاءه ابان هزيمة عكا خبر بموت أخيه الملك المظفر وكان من أعظم مهندسيه فى تحصين القلاع وتديرها وحراستها فلم يغير مظهره فى المعركتين حينما جاءه يريد السر بموت هذا وقتل ذاك .

سلم المجد :

ودأب يوسف على الصبر ، فخرج من معركة الى معركة ، لم يتأخر ولم يضعف ، وسواء أكان له النصر فى المعركة أو الهزيمة ، وكان أشدا ما يكون اقبالا على التدبير اذا بلغ العدو مكان قدميه ، وكثيرا ما ثبت فعاد المنهزمون اليه يقاتلون معه من جديد .

(١) الاعتبار ص ٨٦ .

وأعظم ما حدث له من ذلك كان عند مرج عكا فقد انهزم جنده
— ذات معركة — وتبددوا فانهزوا في نفر قليل منهم إلى الجبل يجمع
الجند ويردهم إلى صفوفهم ، وما زال بهم حتى اجتمعوا وعادوا للقتال ،
ثم انتصروا في يومهم ذاته واستردوا ما ضاع منهم وغنموا أكثر منه .

ومنذ وطئت قدم يوسف بن نجم الدين أيوب طريق المجد ظهر كأنه
أحد الأبطال الذين تحلوا بصفات البطولة طبعاً وتعلماً ، ولم يفارق ما
لزمه من هذه الطباع في حالي صحته ومرضه ، وفي يومى نصره وهزيمته ،
وفي أمرى ضيقه وميسرته . بل كان أسمى ما تعلو صفاته إذا كان في
الحرب واشتدت الكريهة وضائق حوله حلقة الحديد ، فكان حينئذ
يطوف بصفوف جنده ويخترقها عليهم في المعارك ، وربما شارف العدو
وجاور مرمى سهامه .

وعلى قدر ما كان الناس على شجاعة في حروبهم حين ذاك فقد أثر
صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأثر بنو أيوب في أصحابهم وجنودهم
والأمة الإسلامية كلها أعظم تأثير ، فحارب معهم الفقهاء والعلماء والأدباء
والشعراء والمعلمون ، ثم الصبية والنساء ، لم يتخلف أحد قط يستطيع
أن يجد له منفذاً إلى القتال فانتصروا :

هزم شيركوه أعداءه المشاركة والفرنجة في جملة مواقع ، وهزم تقي
الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب عشرين ألفاً عند حصن « رعبان »
بألف فارس ، وجعل يفتخر ويقول : هزمت بألف عشرين ألفاً ! (١)
وفتح توران شاه بن أيوب النوبة واليمن ، وفتح بهاء الدين قراقوش ساحل
أفريقية ، وهاد الملك المظفر أحسن القلاع ، وامتلك أولاد صلاح الدين
أمنع الحصون ، وصار على طرازهم من الأمة الشجعان والفرسان
والفدائيون ، وكان كل ذلك اقتداءً بصلاح الدين .

(١) ذيل النوادر ص ٢٧٦ .

منازل سكناه

كان عماد الدين زنكى والد نور الدين حين تم له الملك واتسع ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، ويقولون فيه بسبب ذلك : انه كان سييدا يعرف معنى السيادة ، فكان يقول لهم : اذا كانت البلاد لنا فأى حاجة بكم الى الأملاك ؟ فان الاقطاعات تغنى عنها . وان خرجت البلاد من أيدينا فان الأملاك تذهب معها . ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها !

كان هذا رأى زنكى وفلسفته فى حيازة الأمراء للأملاك ، وقد صار رأى ابنه نور الدين ، ثم صار رأى صلاح الدين ، وكأنه درس تلقنه ووعاه ، فليس ينساه أبدا ، فصار لا يملك الأرض ولا يملكها ، الا على سبيل الاقطاع ، فتغل لصاحبها حتى يموت أو يخلع ، ثم لا تكون ارثا ، بل تعود ملكا للدولة يتصرف فى أمرها السلطان أو يردها الى بيت المال اذا شاء .

وقد طلب اليه أخوه العادل — ذات مرة — أن يملكه نواحى حلب : يكتب له بها كتابا كأنه بيع وشراء ، فامتنع صلاح الدين وقال له : انما تكون اقطاعا ، والبلاد لأهلها والمرابطين بها ، ونحن خزنة للمسلمين ودعاة للدين .

وملخص القول فى فقه الاقطاع قديما أن الاقطاع مختص بما جاز فيه تصرف السلطان ، ولا يصح فيما تعين فيه مالكه بحق وتميز مستحقه ، وهو ضريان : اقطاع تملك واقطاع استغلال ، والأول لا يجوز للسلطان الا بحق ، وانما الذى يجوز فهو الثانى ، وهو مالم يزل مواتا من الأرض على قديم الدهر ، فلم تجر فيه عمارة ولم يثبت عليه ملك ، فهذا الذى يجوز للسلطان أن يقطعه لمن يعمره ومن يحييه (١) ، وكانت هذه عادة الاسلام من قديم .

(١) الأحكام السلطانية ص ١٦٨ .

ولم يعن صلاح الدين بعمارة القصور والدور ، ولم يدع أحدا يعنى بها ، ولعل غرفة فى الحروب والهجرة وراء مواقعها كل يوم كان له الأثر الأكبر فى مزاجه هذا ، مضافا الى اقتدائه بزكى وأولاده ، حتى ان « الصفى بن القابض » لما تولى خزانة دمشق فى عهده فبنى دارا مشرفة على قلعة دمشق ، وأنفق عليها مالا جما ، وبالع فى تزيينها وتحسينها ، ظنا منه أنها تقع من السلطان بموقع ، ثم دعاه اليها ، لم يستحسن السلطان ما فعل خازن ماله ، ولم يعر داره طرفا ، بل كانت من جملة ذنوبه عنده فأوجبت عزله عن الديوان .

وكان صلاح الدين على حق فى فلسفته والعزوف عن البناء والتشييد الخاص فى زمانه ، فانه لم ينزل بمكان الا توقع فيه الموت من مرض أو قتل ، وكان دائما يقول : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعى والسعادة وما جئنا لنقيم ! (١) .

وهناك درس آخر تلقاه صلاح الدين عن نور الدين : فان نور الدين حين كان سائرا من حصن الأكراد الى طرابلس ليحاصر الفرنجة فيها كبسه الفرنجة على غرة ، فانهزم عسكره ، ونجا هو ، فنزل على بحيرة حمص ، وحلف بالله أن لا يظله سقف حتى يأخذ بالثار ، ثم شرع يجمع عسكره للانتقام ، ثم أخذ بثأره بعد عام فأخذ منهم « حارم » وأخرجهم منها بعد أن امتلكوها ستة عشر عاما .

فاذا كان نور الدين قد بقى عاما لا يظله سقف حتى يأخذ بثأره من الفرنجة فان صلاح الدين تبع فلسفة نور الدين أكثر منه اذ ظل أكثر من ربع قرن لا يظله سقف الا قليلا ، وكان مسكنه الدائم خيمة متنقلة أو صهوة جواد .

والدور التى نزلها قليلا : دار لأبيه نجم الدين كان قد اتخذها بدمشق كأنها ناد يجمع الناس ، وكانت من قبل دارا للشريف العقيقى عند باب

(١) غوطة دمشق ص ٢٣٢ .

البريد بدمشق فى القرن الرابع الهجرى يؤمها الناس ويقصدون سيدها الشريف العقيقى أحد أمراء دمشق وينشدون الشعر بين يديه (١) .

ودار أخرى فى قرية يقال لها « شفر عم » (٢) بينها وبين عكا ثلاثة أميال ، ولم تكن دارا على الحقيقة ، وإنما كانت قاعدة قيادته حين كان عند عكا سنة (٥٨٦ هـ - ١١٩٠ م) لمحاربة الفرنجة حين حاصروها .

ودار ثالثة بساحة «بزة» فى حلب ، اتخذها بين دور الشحنة للحفاظ عليه مدة اقامته ببلدهم ، فلم تكن دار اقامة . وتلك الدور سوى دار عمه شيركوه بمصر فقد سكنها حينما صار وزيرا .

هذه دوره التى عرفت ، وكأنها خانات يستريح بها المسافر فى الطريق ، أما داره التى سكنها ولم يخلها فهى الخيمة ومتن الفرس ، وقد ظل سابجا عليهما ما عاش ، ففضل بذلك بطرس الناسك نفسه الذى كان أول داعية لحرب الصليب ، ثم اشترك فى حروبها الأولى ، فلما حميت الحروب واشتدت المواقع تركها وفر هاربا ، أما صلاح الدين فقد أقام ولم يفر حتى مات .

ولم يكن نور الدين محمود قد اتخذ الحجاب على بابه اقتداء بعمر ابن عبد العزيز ، فأراد صلاح الدين أن يقلده ، ولكنه رجع من قريب ، فخفف من ملاقة الناس وأقام الحرس والحجاب حين أكثروا عليه واجترأوا .

العظمة واللقاب :

ولم يكد يوسف صلاح الدين يخطو فى طريق المجد ويربح فى معاركه وتجاربه حتى أضاف اليه الناس الألقاب وأكثروا له الكنى ، وقد

(١) الناصر صلاح الدين ص ٧٧ .

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٣ .

تسابق فى ذلك الرؤساء والعامّة ، وظلت هذه الألقاب والكنى تتعالى كلمة تعالى حفظه وتوافر نصره : فسمى أبا المظفر والسلطان الناصر وخادم الحرمين ومنقذ بيت المقدس وصلاح الدين ، ودعاه نور الدين « الاسفهلار » أى مقدم الأمراء ، ولكن كنية صلاح الدين غلبت عليه فاشتهر بها ، حتى كادت تغطى على اسمه الأول ، بل استطاعت وصارت عليه علما .

وقد ظل صلاح الدين يتعالى حتى بلغ من العظمة ما لم يبلغه ملك عربى أو فرنجى فى زمانه ، وأحاطه الأمراء والملوك بالاعظام والاحلال ، وصاروا معه كأنهم من أتباعه . وقد حكوا أنه خرج ذات يوم لتوديع « قيصر شاه » بن « قليج أرسلان » صاحب الروم ، وكان قد جاء لزيارته ، فلما ركب السلطان لتوديعه ترجل قيصر شاه فترجل السلطان تعظيما له وجبرا لخاطره ، ثم هم السلطان بالركوب ، فتقدم منه قيصر شاه وسانده من عضده حتى ركب ، وكان السلطان « علاء الدين زنكى » صاحب الموصل حاضرا ، فتقدم هو أيضا يسوى ثياب صلاح الدين ، فقال بعض الحاضرين :

ما بقيت تبالى يا ابن أيوب بأى ميتة تموت ! يركبك ملك سلجوقى ،
ويصلح ثيابك ابن أتابك زنكى ! (١)

وهذا كان رأى الناس فيه ، أما هو فكان أعظم مما قالوا : كان لا يرى العظمة فى الركوب واصلاح الثياب ، بل كان لا يراها الا أن يموت أشرف الميتات (٢) .

وبين نظر الأبطال الى نفوسهم ونظر الناس اليهم خلاف :

فالناس — ولا سيما كبارؤهم — ينظرون من عيون الحسد وقلوب
الغيرة والبغض ، ولكن الأبطال ينظرون الى نفوسهم من خلال الواجب

(١) روضة المناظر ص ٩٨ .

(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٣ .

الذى يؤدونه والمنافع التى يحققونها والتبعات التى تثقل كواهلهم ، وهذا فى كل زمان وكل مكان عند من يستحقون لقب الأبطال .

وكان اسم نور الدين قد علا وطوف فى الأرجاء قبل صلاح الدين ، ولم يبق اسم أحد يعلوه أو يساويه ، بفضل خلقه وسياسته وعدله ودينه ، وأصبح من العسير على أحد أن يغطى اسمه الا بأفعال خارقة تحول الجماهير عنه ، فقد كان حب الناس له ايمانا فى قلوبها لا يخلعه الا ايمان مثله أو أكثر منه .

ولكن صلاح الدين استطاع أن يفعل ، وشاء له حظ له أن ينال ، ولكن لم يكن من السهل أن يتأثر به الناس فى الأعمال التى عملها لسيطرتهم ونفوذه ، بل ربما لاموه من أجلها أو كرهوه وحسدوه ، وانما تأثروا بالأعمال التى صنعها خالصة لذات المجد ، وكانت وقائعه مع العدو فى قمة هذه الأعمال ، وقد بلغ ولوع الناس به ولا سيما فى أيامه الأخيرة وعندما مات ، حدا لا تطيقه الصدور .

وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي رحالة زمانه حين رآه لأول مرة فى القدس فكان مما قال : فرأيت ملكا عظيما يملأ العيون روعة والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا مجيبا ، وأصحابه يتشبهون به ويتسابقون الى المعروف ، كما قال تعالى : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » (١) .

هذا ، وقد عرف صلاح الدين فى مجلسه رجلا مجدا لا يهزل ، عف اللسان لا يهجو ، نبيل القلب فلا يحقد ، لا يتكلم فى انسان بغير الخير ولم يسمع وشاية لأحد .

فى الوسط العربى :

ومن غير ما نزاع فإن شخصية صلاح الدين ظهرت فى الوسط العربى ونمت ، ولولا العرب الذين أحاطوا به ، أو لولا الأرض العربية التى

(١) كنوز الابداد ص ٣٢٧ .

عمل عليها ما ظهر اسمه كما ظهر ، ولا علا نجبه كما علا ، فان لجيل العرب من الصفات ما ميز صلاح الدين حين صاروا من جنده وعسكره وجند أهله وعسكرهم ، وحين صنع مجده بينهم وفي أحيائهم وبلادهم وبأيديهم ، ولذلك اذا قيل ان صلاح الدين كردى المولد قيل انه عربى النجدة والمجد والانتصار .

وكان صلاح الدين عربى اللسان والأدب والعلم والدين ، عربى الصحبة والدار ، وحتى الطعام والشراب والعادة عليهما ، كان كل ذلك عربيا محضا ، وليس شئ فى صلاح الدين الا وهو عربى أصيل .

وجاء صلاح الدين فى عقب نور الدين الذى نبغ فى العرب أيضا ، بل ان أتابك زنكى والد نور الدين كان قد أجاد العربية ونادمه أدباؤها وشعراؤها . وقد صار للعربية مكانها عند الأمراء كما كان عند سكان هذه الأقاليم ، وصار التركى أو الكردى أو الفارسى ، وحتى الفرنجى الذى ينزل فى ديار العرب ويتبلد فيها يدغم فى العربية ويتعالى فيها حتى يقول الشعر ، كما قاله طلائع بن رزيك وأجاد فيه (١) .

وأعرب من ذلك ما قاله ياقوت فى بعض أقواله ، قال :

ان أكثر الشعر الذى فى ديوان طلائع بن رزيك وزير مصر انما هو من عمل الشاعر ابن المهذب ، وقد حصل له من ابن رزيك بسببه مال جم ، ولم ينفق عنده أحد مثله (٢) . فاذا صح هذا الخبر فان الالتصاق بالعربية أو الالتصاق بعلمها وأدبها كان أمراً يشرف المنتسب اليه ويعليه ويمكن له ، ولعل ذلك ما فعله ابن رزيك .

وكما ازدهت الأيووية بالعرب وعلت بهم كان بنو سلجوق وكان الأتابكة ، ومن قبلهم كان بنو بويه وكان كثير من الأعاجم . ولا شك فى

(١) أنظر سيرة ابن رزيك فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٩ .

أن القوة العربية من شأنها أن تسرع في تعريب ضيوفها ، يتعلمون دينها
ولغتها ، ويصير منهم قادة لها في أمور السياسة والحرب واللغة والدين ،
أو كائدين لها إذا تعلموا لغتها وعرفوا عاداتها ، فيكونون يداً للمستعمر
عليها كما هو معروف في أيامنا مشهور في زماننا .

سياسة السلطان

- نظام الأسرة
- التولية والعزل
- القسوة واللين
- الإدارة والاحتجاب
- القوة الطيبة
- مكافحة الشر
- الخلاص من الضرغام
- الخلاص من شاور
- وزارة مصر
- خلع الخليفة
- الحذر والحيلة
- حظ جديد
- دمشق وحلب
- موت اسماعيل
- الباطنية
- القبائل المتطرفة
- توحيد البلاد
- مواصلة المغرب

نظام الاسرة :

لم يشتهر من الخارجين من قلعة تكريت سوى رجلين من أسرة شاذى ، هما نجم الدين وشيركوه ، وقد كان معهما أولاد لهما ، ولكن لم يشتهر أحدٌ منهم الا بعد أن علا نجم صلاح الدين بن أيوب ، وقد نسبت الأسرة كلها الى اسم أبيه مجاوزة اسمى شيركوه وشاذى .

وقد وضح فيما مضى أنها كانت أسرة صغيرة ، وحتى لو كانت منتمية الى احدى القبائل الكردية الكبيرة — كما قيل — فانه لم يعرف من أقاربهم أحد سوى من رحلوا من تكريت ثم جاءوا الى الموصل فالشام ومصر .

وقد مات منها وشيكا كبارها : فمات شاذى الجد بتكريت ، ومات شيركوه ونجم الدين بمصر : أولهما مات حتف أنفه ، وثانيهما دقت عظامه حين سقط عن متن فرس ، ثم مات الأخوان تاج الملوك والملك المظفر تقي الدين : أحدهما قتيلا عند حلب ، والثانى فى وخم عكا ابان الهزيمة عندها .

ولم يبق كبيرا لهذه الأسرة الا صلاح الدين ، حتى وأولئك أحياء ، فيما عدا عمه شيركوه . وكما وضح اسمه من بين أسماء أهله فقد صار أكبر مسئول فيها اثر موت عمه شيركوه ، فكان عليه أن ينظر لأسرته أن تنمو حتى يستقر لها الأمر ويدوم فيها الملك الى أجل طويل .

وقد رسم صلاح الدين لأسرته طريق النمو والتجمع والتساند ، حتى اذا كانت قوة فى ذاتها أصبحت قوة أمام غيرها ، وكثير من الكبار والصغار يمزقون أسرهم ولا يفعلون فعل صلاح الدين فيذبوبوا من قريب ؛ ولكن صلاح الدين لم ينس أن يكون العصبية التى تشد ظهور الرجال ، فزوج شبانها من بناتها ، وزوجهم صغارا ليكثروا ، وأكثر من ذلك التزويج عند كل هدنة أو صلح أو انتصار فى معركة ، وتولى بنفسه

عقد الزواج . ومن العقود التى تولاهما عقد بين الملك الظاهر واحدى بنات الملك العادل (١) ، وعقد بين الملك الأفضل وبنت ناصر الدين محمد بن شيركوه .

وعود أسرته التحاب والتعاطف بما كان يفعله هو من توقيير كبارها والحنو على صغارها ، فكان يلقي الكبار لقاء الملوك ، ويلقى الصغار بالتقبيل ومسح الرؤوس ، كما يفعل كل أب لم تشغله أبهة الملك عن الطبع المخلوق فى الأبوة ، ولم يكن أفضل منهم عنده غير الجهاد ، فكان اذا دعاه لى وترك للفراق أن يضرب بينهم وبينه بأمنع الأسوار .

وقد خلع صلاح الدين على الرجال من أهله ألقاب الملوك ووزع عليهم الرتب ، كل بما يستحق ، ولم يكن عليه فى ذلك لوم ، ولم يكونوا بما أوتوا فى موضع حسد ، فانه وجههم جميعاً الى جبهات القتال ، ولم يترك عزيزاً منهم دون أن يؤدى فريضة الجهاد ، ويكون فى الصف قبل أن يكون الجنود من الناس .

فكبرت الأسرة بهذا ونمت ، ووقعت لها المهابة فى الناس ، وكافأته على اهتمامه بها فرضخت لطاعته ، ولم يحدث أن خرج أحد منها عاصياً ، الا من أطفاه الدلال أو فساد الرأى ، وكان ذلك قليلاً نادراً ، بل مرة واحدة لم تتكرر ، فعله واحد ، ولكنه عاد الى سيده طائعاً راضياً .

وظهر من الأسرة قواد عظماء ، منهم غير عمه شيركوه ، اخوته : توران شاه شمس الدولة ، والملك العادل أبو بكر ، والملك المظفر تقي الدين ، وتاج الملوك . وظهر من أولاده : الملك الأفضل على ، والملك الظاهر ، والملك العزيز . كما كان أولاد عمهم قادة مظفرين ، وكانوا كما قال الشاعر :

بكل فتى من آل أيوب لم يزل دفاعاً لخطب أو سداداً على ثغر

(١) النوادر السلطانية ص ٥٩ .

التولية والعزل :

وحين أصبحت ولايات المنطقة كلها محكومة بصلاح الدين أناب عنه الأمراء والولاة من أهله وأولاده ومن غيرهم ، ولم يكن يرعى فى التولية والعزل غير صالح الأمة ، لا تأخذه فى ذلك شفقة ولا لوم ، وقد كان من أحب أبنائه الى قلبه الملك الظاهر صاحب حلب : كان هذا الابن فطنا كياسا فولاه حلب فغفل وتلهى ، وشغف بالملك وأحبه ، فخاف صلاح الدين أن يسد عليه حبه للمنصب والجاه أبواب الذكاء والفطنة وحسن الخدمة ، فصرفه عن ولاية حلب وأرسل مكانه أخاه العادل ، فلم يمنعه حبه لابنه وطاعة ابنه له أن يعزله (١) .

القسوة واللين :

ولم يمنع صلاح الدين أحدا - حين احتجب عن العامة - أن يصل الى مجلس قضاائه الذى يحضره القضاة والفقهاء والعلماء حتى ولو كان خصما له ، ولكنه كثيراً ما تأخر عن مجلسه هذا فتأجلت بعض الحقوق عن أصحابها ، فلما بلغته مظالمهم كان ندبا مغيثا . وقصة المظلوم الذى لاذ بقبر نور الدين ، وصرح مستغيثا به ، فأنصفه صلاح الدين معروفة مكررة فى كتب التاريخ ، وقد قامت دليلا على أن صلاح الدين ما كان يهمل أمرا أهمله قومه والمحيطون به لو رفع اليه أو سمع به .

ويتحدثون عن تواضعه ، ويستشهدون بقصص كثيرة ، والحق انه تواضع للناس حتى اجترأوا عليه وتعاوروه بالقصص والأحاديث (٢) ، وقد شكوا هو نفسه من ذلك ، ولكنه لم ينزل عما طبع عليه من رقة القلب ولين الجانب .

(١) النوادر السطانية ص ٥١ .

(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧٧ .

ولقد ظن الناس أحيانا أنه متهاون ، وقد حدث ذات مرة أن أفلت لباس القدم من جندى رمى به زميله فأصاب طرف ثياب صلاح الدين ، فأدار وجهه وتغافل تغافل الملوك عن صغيرة الجندى ، فالتفت إليه أستاذه الحافظ الدمشقى ابن عساكر وكلمه كلاما فيه بعض اللوم على الحلم وقال له :

انه كان أيام سلفه نور الدين يروى الحديث فيستمع له كل من فى الدار كأن على رؤوسهم الطير (١) !.

ولم يرم صلاح الدين بمصاحبة أحد متى عرفه مخلصا ، حتى ثقل الناس ، لم يدعهم ولم يهرب منهم ، وقد حدث حين كان بإحدى دور حماة مع ثقیل يسمى عبيدا أن وقعت زلزلة هائلة هدمت أنحاء المدينة ، ما عدا هذا البيت وبعض البيوت ، فلم يمس صلاح الدين ولا صاحبه أذى فقال عرقلة الشاعر :

قل لصلاح الدين رب الندى بلغ عبيدا كل ما أمله
بثقله لما تصاحبتما سلمك الله من الزلزله (٢) ١ .

وكان كثير الرقة لعدوه كما كان لقومه : جاءوا اليه فى مرج عكا برجل طاعن فى السن فسأله : ما الذى جاء بك ؟ قال : جئت للحج لا للحرب (٣) ، فأمر بإطلاقه على فرس الى معسكر العدو . وقدموا بين يديه بأسير فرنجى يرتجف ، فسأله عن سبب جزعه وارتجاعه ، فألهم الأسير أن يقول : لا أخاف شيئا وقد رأيت وجهك ، فهش له صلاح الدين وأطلقه . وقصة المرأة الفرنجية التى خطف طفلها فأعادته اليها حين استعانت به أشهر من أن تعدد .

-
- (١) كنوز الأجداد ص ٣٠٨ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٨ .
(٣) النوادر السلطانية ص ١٤٢ .

ولكن هذا المتواضع الرقيق القلب كان أقى الرجال وأعنفهم ، فإذا غضب — وكان الغضب حقاً — وعلى خارج أو معتد أو ناقض عهد فانه كان حينئذ لا يدع القصاص . وقد طرد عن بابه المجترئين عليه ، وقضى على العاضد ووزرائه حين كانوا عملاء الفرنجة ، وصلب ثائرين عليه فى قفط ، وضرب الباطنية وفرق الحشاشين وقوض حصونهم ، وقتل فى مرج عكا جماعة من الفرنجة قسوا على المسلمين ومثلوا بقتلاهم ، وطعن بخنجره أميراً فرنجياً فحل كتفه ، وأباد فرق الهيكليين وضياف الغرباء حين عبثوا بأرواح المسلمين . وحين قبل صلاح الدين قول عرقلة الشاعر فى زلزال حماة وضحك له لم يقبل أن يهجو الشاعر « ابن عنين » أصحابه ورجاله فى دمشق فنفاه ، فخبط فى البلاد ولم يرجع الى دمشق الا بعد أن خلت دمشق والدنيا من صلاح الدين .

وحين بر صلاح الدين بابتنة نور الدين ووهب لها كثيراً مما طلبت لم يخذع بما فعله بعض الأمراء من سوقهم النساء اليه بالشفاعة ، فقد حدث عند حصاره الموصل أن سيقّت اليه طائفة من الفتيات الأتابكيات يشفعن عنده ليكف عن الموصل ويرحل عنها ، فردهن معتذراً اليهن ، ومضى فى الحصار .

وهكذا كان صلاح الدين مع تواضعه ورقة قلبه رجلاً قاسياً ماضياً لا يتردد أن يعاقب وأن تكون عقوبته موارد الموت .

المدارة والاحتجاب :

وجرب صلاح الدين أن يصارح الناس وأن يداريهم فأفلحت معه المدارة وأكسبته رضاهم ، ويقول هو فى ذلك : لم أبلغ ما بلغت فى الناس الا بمداراتهم (١) .

(١) ذيل النوادر ص ٢٤١ .

وكان الناس يتكاثرون عليه فيدنيهم ويدنو منهم ويتحجب اليهم ، ولكنه ما لبث أن أفلح عن عادته هذه ، وأفلح عنها مضطراً ، فامتنع واحتجب ، ولم يعد يلقي أحداً عن قرب الا من أراده هو وضرب للقائه موعداً . وكان حقا عليه أن يمتنع ويحتجب ، بل كان ذلك عليه واجباً ، فانه لم يصير ملك نفسه ، وانما صار ملك الناس وحصن المسلمين . وقد وقع منه التمتع والاحتجاب حين اعتدت عليه طائفة الحشاشين مرتين : مرة في حلب على جبل جوشن في المكان الذي كانت عليه مدينة سيف الدولة قديماً ، وعلى طرفيه اليوم الكلية الأمريكية والكلية الاسلامية ، وهو في غربى حلب الحالية . ومرة أخرى في « عزاز » قرب حلب ، فاحتجب عن العامة احتياطاً ، الا في المواقع ، وقد أمن من حوله ، فقد صار يضرب حول سرادقه سرادقات من الخشب المعقود المغطى باللبد ، ويوقف الحراس (١) ، وكأنها الأسلاك الشائكة في زماننا .

ومن قبل ذلك كان يعتزل بعض الناس اذا غضب وغضبوا ثم يعود اليهم اذا هدأ وهدءوا : وقد حسب الأكراد حيناً قرابتهم له ، فكانوا أجراً الناس عليه ، فأغضبوه كثيراً ، فكان يلقي عتابهم وعنفهم عليه بالبعد عنهم حتى يهدأ فيعود اليهم اذا رأى أن يعود (٢) .

وانه لمن حق كل زعيم صارت للناس عليه جرأة أو لم تصر أن يمتنع ويحتجب ، ولا سيما حين يصير ملك الناس وحصن آمالهم ، وان ذلك وان كان يظهر فيه بعض الترفع والكبرياء فانه من خيرهم وصالح بلادهم ومستقبل أيامهم .

القنوة الطيبة :

وبرغم امتناع صلاح الدين عن العامة واحتجابه ، فقد لقيهم وسط حراسه عند الأمور الملزمة وفي الأزمات الجامعة ، وعمل بيده في البناء

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٥ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٢٣ .

والانشاء ، وعمل معه أولاده وأمرأؤه وأجناده ، لم يتخلف منهم أحد اذا دعا الأمر : وقد شوهدهوا جميعاً يعملون فى عمارة القدس وتحصين أسواره وحفر خنادقه ، ومعهم العلماء والفقهاء والقضاة . وحين أصدر صلاح الدين أمره للعسكر بنقل الحجارة جعل هو يعاونهم وينقل بيده على فرسه ، بل قيل : كان يحمل على كتفه ، فحمى العسكر وحمى الناس ، فكان يجتمع لدى العمال والبنائين من الحجارة ومواد البناء ما يكفيهم للعمل عدة أيام .

وقد رآه الرحالة البغدادى وهو يشارك الناس فى بناء سور القدس وحفر خندقه فقال : يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس : الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل .

وكما كان صلاح الدين قدوة فى البناء والتحصين كان قدوة فى الاحراق والتخريب ، متى دعت الأسباب .

وأعظم من ذلك كله أنه استطاع بعمله فى القدوة أن يوجه الناس فى المنطقة التى سادها الى ما يريد ، فاتبعوه وأقبلوا على دعوته هم وأولادهم وأموالهم بلا تردد ، وكأنما لم يتخلف عنه فى المنطقة انسان . ولولا ضيق نفوسهم وأيديهم عند بعض الهزائم لم يتركوه قط ، مع أنه لم يكن له عليهم جبر ولا قهر .

مكافحة الشر :

وكانت الدولة قبيلا زمانه قد ماجت بالشر وحفلت بالأشرار : فحكمها رؤساء لا هم لهم الا شهواتهم ولو أدوا عنها الجزية من مهج الأمة ودمائها . وتمردت بها قبائل لا تنقطع عن العدوان والبغى ، وأحاط بها مكررة يختطفون مناصب الوزارات بالقوة والرشا وعصابات القتل

والختالين . وامتألت القصور بنساء من أشباه نساء العباسيين قد درجت نفوسهن فى مدارج الدس ومهرت أيديهن فى اصطناع السموم .

وفشت فرق المتعصبة للرأى والدين فى أرجاء البلاد الاسلامية وقويت شوكتها فاحتلت القلاع القديمة ثم انشأت لها قلاعاً جديدة برضا الدولة أو على كره منها ، لتحجى بها باطلها وسمعتها ، ولم تر بأساً أن تعاون المستعمر المغير ، ولو سلمته هذه الحصون .

ولمعت مفاتن الدنيا ، ورخصت أثمان الخيانة ، فلم يكن لدى بعض الناس من بأس أن يتقاضوا الفرنجة بضعة دراهم فيدلوه على الثغور الضعيفة فى الجيش ، أو يسلكوا به طرائق البلاد ويعرفوه مسالكها . وليس ذلك غريباً على النفوس الواهنة الغبية فقد رأينا فى زماننا أشباه هؤلاء ، وكلما باد منهم نفر ظهر نفر ، وقد رأيت فى احدى البلاد التى زرتها من يتقاضى مرتبات من سفارات الأجانب ليدلوهم ويخدموهم ، فلما أخذهم الناس بالملامة قالوا — ليبرئوا أنفسهم — انما يأخذونها منهم جزية لأنهم أهل ذمة ، وهو منطق مقلوب وعقل عجيب .

وحتى الأدب كان قد مال جانب منه ميلاً جائراً نحو البغى الخلقى والتحريض على الفساد وتمزيق الأعراض ، وحتى يكون له قدر فقد تناول ذوى الشرف والأقدار ، ووجد صانعوه استقبالا من الكبار : اما خوفاً منهم واما تقديرًا لفنهم ، وقد نال « ابن عنين » الشاعر الهجاء وزارة للأيوبيين بعد صلاح الدين بجملة من قصائد المدح بعد عمر طويل قضاه فى هجائهم وهجاء كل كبير فى دولتهم بلا استثناء ، وكان هجاؤه كله افكاً وبهتاناً .

ولكن كان فى البلاد صلحاء ، وكان مجموع الأمة يتلهف على قائد صالح يتبعه ، لأن الصلاح كامن فيها ، وهى لا تحتاج الا الى من يثير فيها صفات الشرف التى تعرفها وتنطوى عليها : قد كمن فيها الخير كما

تكن الحياة فى حبات البذور ، تريد الماء والأرض والضوء لتستيقظ من سباتها وتنهض من سكوتها .

وكثر فى الأمة الأئمة والقراء ومسندو الحديث والعباد والعلماء والمفكرون ، والصناع المهرة والمخترعون والأطباء والمعلمون والفرسان والبحارة ، ولكن أسماء الأشرار طغت على أسماء الأخيار ، والدنيا تلف لأولئك وتقضى على هؤلاء ، فأمسك الأئمة الأذكىاء عن الكلام والتزموا الكتمان ، لتقلل الدولة وتحولها ، فمن فاطمية وعباسية الى سلجوقية وزنكية وأيوبيه ، وهم لا يعرفون لمن تتم الغلبة ، فأمسكوا عن الكلام لئلا تطحنهم الأحداث (١) .

وجاء صلاح الدين فرأى الأرض تنفلت من تحت الأقدام ، والأجنى المغير يتقدم لاحتلالها ويوشك أن يلتهمها جميعا ، وقوى الشر تتطاحن وتعاونه ، اللهم الا بعض قادة صلحاء جاء بهم الزمن متفرقين ثم ذهبوا ، فخاف صلاح الدين .

وكان من حقه أن يخاف ، فقد حاربه فى الاسكندرية وهو يحميها من الفرنجة جند وزير مصرى انتهز غياب عنه « شيركوه » عنه فى أرض الصعيد وحاصره بمشاركة الفرنجة ، فلقى فى الحصار شقاء عظيماً . وكان ألمه النفسانى من تضافر المسلمين عليه مع أعدائهم أبلغ وأعظم من جوع الحصار وجبسه ، ولم يكن يعمل غير انقاذ ثغرهم وحمايتهم ، وكان أهل الاسكندرية معه — كشأنهم عند كل فزع — يحمون ثغرهم ، بينما كان أقرباؤهم واخوانهم من خارجها يرمونهم بالنبال ويقذفونهم بالنار .

وعزم صلاح الدين ألا يعود ! فكره أن يعود الى مصر ، وكره أن يحارب ، ولولا عنه شيركوه ومولاه نور الدين الذى أمره أن يمضى مع عمه لانتقاذ مصر ما مضى . وقد قال صلاح الدين نفسه فى ذلك :

(١) انظر اخبار ابن القلانسى فى كنوز الاجداد ص ٢٩٦ .

أمرنى نور الدين بالمسير مع عمى شيركوه ، وكان قد قال لى شيركوه بحضرته : يا يوسف ، تجهز للمسير ، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساه أبدا . فقال عمى لنور الدين : لا بد من سيره معى . فأمرنى نور الدين وأنا أستقيل . فقال نور الدين : لا بد من مسيرك مع عمك ! فشكوت الضائقة ، فأعطاني ما تجهزت به ، فكأنما أساق الى الموت (١) .

كان صلاح الدين متأثراً بالحصار ولكنه تعلم منه درساً . وحتى لو كان الفرنجة وحدهم هم الذين حاصروه بالاسكندرية فقد كان درساً له تعلم منه آلام الحصار ومكايدته ، وعرف منه كيف يقضى على أسبابه . وكأنه درس حصار الفالوجة فى زماننا حيث خلق حصارها أبطالا حذرين وواعين ، ولم يتعلموا منه فنون الخلاص من المحاصرة الضيقة وحسب ، وانما انطلقوا يفكون عنهم وعن وطنهم كل حصار ، وكان أن كتب لهم الانتصار .

وسرعان ما رجع صلاح الدين الى العظة والعبرة أكثر مما مضى نحو التردد والخوف ، فجاء مع عمه الى مصر وقد نوى أن يقضى فيها على كل شر ، وأول شر راح يقضى عليه كان فى نفسه : فقد كان قليلا ما يشرب ويلهو ويقضى بعض وقته فارغاً يتسلى ، فجذب نفسه هذا العبث ونفى عن وقته الفراغ ، ثم ألقى بنفسه الى الجد ومضى فيه ولم يلتفت وراءه أبدا . ومن الموثوق به أنه انقلب الى حياة الجد واراادته والتصميم عليه وهو بدمشق ، وإن كان بعض المؤرخين يرون أن هذا الانقلاب قد حدث حين استوزره العاضد بعد موت عمه شيركوه ، فإن هناك أدلة راسخة فى الأدب قد غفل عنها المؤرخون تدل دلالة لا شبهة فيها على أن صلاح الدين قد نوى ذلك وعمله وهو فى دمشق بعد انشكاكه من حصار الاسكندرية ، فقد تمنى أن يحكم مصر ، وملك جوانبه الطموح ، ولعله كان يسوق

(١) ذيل النوادر ص ٢٦٠ .

العلل لنور الدين حتى لا يذهب مع عمه ليصمم نور الدين أن يذهب
ويلزم نور الدين الحجة أن كره بقاءه في مصر في الغد القادم .

وقد كشف صلاح الدين لبعض أصدقائه الدمشقيين عن أمنيته
ونيته ، وكان ممن كشف لهم عن نفسه من الأصدقاء « حسان بن نمير »
المعروف بعرقلة : كان صاحباً وجليساً لصلاح الدين منذ صباه ، ووعدته
صلاح الدين حين كان في دمشق على شحنتها أو أميراً من أمرائها أنه إن
ملك مصر أعطاه ألف دينار عاضدية ، وقد عينها عاضدية لا صورية لأنها
أوفى من تلك ذهباً وأعلى ، فلما ملكها لم يرسل الى عرقلة ما وعده به
فأرسل اليه عرقلة يقول :

قل للصلاح مغيثي بعد اعسارى يا ألف مولاي ، أين الألف دينار ؟
أخشى من الأسران وافيت أرضكم وما تفي جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات موفرة من بعض ماخلف الطاغى أحوالار
حمرا كأسيافكم غرا كخيلكم عتقا ثقالا كأعدائي وأطماري (١)

فهذه الأبيات تقطع بما أثبتناه من تحول صلاح الدين الى الجد قبل
أن يغادر دمشق ، وهي كنفوش الأحجار الثابتة التي هي من دعائم
التاريخ ، وليس يغض منها ألا يلتفت اليها مؤرخ جاف يسرد الحقائق
ويتجاف عن مختلف الأدلة المخطوطة في الطريق .

على أن عرقلة أضاف اليها لوحة تاريخ أخرى حين ماطله صلاح
الدين فلم يرسل اليه ما وعده به فأرسل اليه مرة أخرى يقول :

إليك صلاح الدين مولاي اشتكى زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدى بها في يدى قبل المات تصير

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٢٢ .

وهيهات والأفرنج يبنى وبينكم سياج ، قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى بمصر واني فى دمشق فقير (١)
فسير له صلاح الدين ألفا ، وأخذ من اخوته مثلها .

الخلاص من الضرغام :

وسار صلاح الدين مع عمه الى مصر مقدما على عسكره ليعبدا
« شاور السعدى » لوزارة العاضد ضد خصمه المدعو « بالضرغام »
فأبدى صلاح الدين فى حركاته العسكرية ما عقد لرايته النصر ، فالتفت
عمه اليه أكثر من ذى قبل ، وصار لا يقضى فى أمر دون رأيه ومشورته .
كان شاور السعدى قد سطا على وزارة العاضد اثر مقتل طلائع بن
رزيك فى سنة ٥٥٨ هـ - ١١٦٢ م) فجمع له الضرغام جموعا كثيرة
وسار اليه وغلبه وطرده من القاهرة وقتل بعض ولده واستولى على
الوزارة ، فأقره الخليفة العاضد حين غلب . أما شاور فلجأ بالشام الى
نور الدين .

وعن للضرغام وهو وزير أن يخلى مصر من كل رجل يخافه فأعمل
القتل فى الرجال ، ثم لم يجد عمن قتل عوضا فضعفت مصر ضعفا بينا (٢)
أطمع فيها نور الدين والفرنجة معا . وبينما كان الضرغام مشغولا بقتل
الرجال كان شاور قد عاد فى جند من نور الدين عليه شيركوه وصلاح
الدين ، وقد أمده نور الدين بهذا الجند ليقتل حقه حين لجأ اليه
وليستتجز أمر مصر التى ضعف جندها وقل رجالها واختل حالها (٣) .

(١) خريدة القصر ص ٢٠٨ .

(٢) ذيل النوادر ص ٢٥٤ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٤ .

ولم يثبت الضرغام أمام جيش نور الدين فى لقاء واحد فقد قضى عليه هذا الجيش فى وقعة قريبة من قلعة صلاح الدين اليوم ، وأعاد شاوراً الى وزارة العاضد ، فأقره العاضد ثم قتل الضرغام .

الخلاص من شاور :

وكان شاور أدهى على بلاده من الضرغام ، بل كان أدهى رجل فى البلاد : كان طلائع بن رزيك — وزير العاضد قبله وقبل الضرغام — قد ولاه أميراً على الصعيد ، وولاية الصعيد كان يراها الخلفاء والملوك أكبر المناصب بعد منصب الوزارة ، فلما حرضت عمة العاضد على طلائع وزبر الخليفة وصهره من طعنوه بالسكاكين أوصى طلائع ابنه العادل — وهو فى النزاع — ألا يغير شيئاً على شاور ، وحذره منه لقوته ومكره .

ولكن العادل — وقد تولى الوزارة وأبوه فى النزاع الأخير — لم يعمل بوصية أبيه فكتب الى شاور أمير الصعيد بالعزل ، فجمع شاور جموعه ودخل بها القاهرة فهرب العادل فتبعه شاور ولحق به فقبض عليه وقتله . وبقتل العادل بن طلائع انتهت دولة بنى رزيك ، واستقر شاور فى الوزارة واستصفى أموال بنى رزيك وودائعهم ، ثم ظل مستقراً حتى ثار عليه الضرغام ، ثم عاد للوزارة بعد أن عاونه عليه جند الشام وقتلوه (١) .

ومع أن مصر استراحت قليلاً من ابن رزيك ، فقد كان احتسار الأرزاق وأضعف حال الدولة بقتل أمرائها ومقاتلتها وذوى الرأى والحزم فيها كحجاج بنى أمية (٢) فان الأمن قد عاد بعده للاضطراب وعادت مصر لقلق أشد وبطش أوجع على يد شاور وعلى يد الضرغام .

(١) ذيل النوادر ص ٢٠٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٩٤ .

ولم يأت جند الشام لمعاونة شاور الا على وعد منه بأن يبذل لنور الدين ثلث أموال مصر بعد أرزاق جندها ان أعاده للوزارة (١) ، فلما عاد ورجع شيركوه وصلاح الدين الى الشام بعسكرهما نقض شاور عهده وكاتب الفرنجة سراً على تمكينهم من مصر ان هم أعانوه على شيركوه اذا رجع اليه مستنجزاً وعده في المال .

وخلف الوعد عند نور الدين وعند كل من له خلق ودين أهون من مكاتبة العدو والاتفاق معه والوصول اليه في السر ، فهي جرائم ثلاث لا تغتفر ، فما لبث نور الدين أن رد شيركوه لمحاربة شاور ، حتى يفى بعهده .

وعلم الفرنجة بنية نور الدين فتجهزوا ، ثم تسابقا ، فكأنما كانا على موعد اذ التقيا على مداخل مصر في سنة (٥٦٢ هـ - ١١٦٦ م) والتحمنا عدة مرات . وأسرع شيركوه الى الجيزة فعبر النيل عندها ليحتمي به وليطيل خط القتال على الفرنجة ، ولكنهم لحقوا به لأجلهم المحتسوم فسحقهم شيركوه في معركة البابين ، وسنأتى على ذكرها عند الكلام على حروب صلاح الدين ووقائعه ، لأن الانتصار فيها كان بفضل مهارة بادئة في المارك الكبرى من صلاح الدين .

ولم يجن شيركوه نتائج نصره في البابين ، اذ اضطر الى أن يقسم جيشه قسمين ، فبقى هو بالصعيد يجيبه ، وسير ابن أخيه الى الاسكندرية ، ولم يكن في خطته هذه خطأ فقد بقي في الناحية التي لا يعوقه فيها عن ابن أخيه عبور .

وسار صلاح الدين الى الاسكندرية وجند شاور والفرنجة يتبعونه ، حتى اذا استقر فيها بفرقة كان الحصار قد ضرب حوله ، فظل ثلاثة أشهر لا يستطيع انفكاكا ، ولقى من مرارة الحصار ما أشرنا اليه من قبل حين رأى بعده ألا يعود .

(١) ذيل النوادر ص ٢٥٤ .

وقد ضاق به الأمر حين رأى جنبد شاور من المصريين يعاونون الفرنجة ، وقد أصابت نفسه منه عقدة ظلت طول حياته ، فقد قصده مرة من مصر وفد يهنئ باندحار ثأثرين عليه في القاهرة فرأى أن يردهم دون لقاءهم ، لولا أن وزيره القاضى الفاضل نصح له بطرح الغضب ، وطلب إليه أن يشكر الله ويلقى المهنيين .

وزاد بصلاح الدين الضيق حين احتاج المدافعون معه عن الاسكندرية من جنده ومن أهل الثغر الى الطعام ، ولكنه استطاع أن يلغ استغاثته الى عمه شيركوه فأسرع اليه وطوى أرض البحيرة وفك عنه الحصار ، ثم تصالح الطرفان .

وقسم الصلح الغنائم : فكان فيه أن يتسلم المصريون من جنبد شاور مدينة الاسكندرية ، وأن يخرج جنبد الشام من مصر على مال يحمل لشيركوه ، وأن يخرج الفرنجة أيضاً ، ولكن تبقى لهم قدم : تقيم لهم شرطة داخل القاهرة ، ويقف فرسانهم على أبوابها ، وتدفع لهم جزية ، قدرها في العام مائة ألف دينار (١) .

ومع أنهم فازوا بنصيب الأسد في الصلح الذي كان أحد أضرافه شيركوه ، فلأمر ما وسر غامض لحق الفرنجة بشيركوه وهو خارج من مصر وحاصروه بمدينة « بلبيس » بالشرقية . وطار الخبر الى نور الدين بدمشق فطار عسكره الى « مدينة حارم » في أقصى الشمال الغربى عند حلب وكانت بيد الفرنجة فاحتلها وأسر طائفة كبيرة من أمراء الفرنجة ليخفف الحصار عن جنده في بلبيس .

وكان نقض الفرنجة للعهد كان فرصة لشيركوه ونور الدين : أما شيركوه فلم يهتم كثيراً بأمر الحصار وأقسم ألا يقتل من عسكره رجل الا فداءه بجملة من الرجال ، وكان شيركوه ينتقل بين جنده المحصورين

(١) روضة المناظر ص ٧٣ - ذيل النوادر ص ٢٥٦ .

وهو لا يحمل سلاحه ، فهابه الفرنجة وسقط في أيديهم . وأما نور الدين فقد جاءت له الفرصة ليثأر من الفرنجة على هزيمتهم له عند حصن الأكراد فضربهم في « حارم » ضربة ساحقة ، وفك عن شيركوه الحصار وكذلك فك عن نور الدين :

أما حصار نور الدين فكان حصاراً على نفسه إذ كان قد أقسم عندما هزمه الفرنجة عند حصن الأكراد ألا يظله سقف حتى يثأر منهم ، ومضى ليمينه وبر بقسمه ، وفيه حرمان كثير ، وظل كذلك لا يأوى الى دار عاماً أو ما يقرب من عام ، فلما أمكنه الله من عدوه وثأر لنفسه فك عنها الحصار .

وبينما كان شيركوه في طريقه الى دمشق كانت بليس ومصر القديمة تحترقان : أما بليس فقد أحرقها الفرنجة ، وأما القاهرة فقد أحرقها شاور خوفاً من الفرنجة : فمن أجل الفرنجة احترقت المدينتان ، ولم يكن هناك ما يمنع أن تحترق مصر كلها ، وأكثر منها :

وحريق بليس كان عقوبة من الفرنجة لأهلها ، إذ كانوا انضموا الى شيركوه ضد أعدائه : شاور والفرنجة معاً ، وساعدوه في الدفاع وفك الحصار ، فلما خلت منه أشعل الفرنجة فيها النار وأعملوا فيها القتل والأسر ، فعل الجبناء ، ولو بقى بها شيركوه ما استطاعوا أن يفعلوا ما اجترموه ، وكانت بليس بلداً عظيماً فلم يعد لها حظها بعد ذلك الحريق حتى اليوم .

وحريق القاهرة كان دفعة للفرنجة أن يعودوا اليها ، فقد بلغ شاور أنهم في طريق عودتهم اليها ، وهم يعملون السلب والنهب في كل بلد يملكون عليه ، فاشعل النار في القسطنطينية ، فظلت تأكلها النيران أربعة وخمسين يوماً (١) ، ثم صارت كبليس لم يعد لها حظها أبداً .

(١) ذيل النوادر ص ٢٥٧ - روضة المناظر ص ٦٩ .

ويبدو أن العدوى قد أصابت دمشق أيضاً قريباً من تلك الأيام ،
فاحترقت بها سوق اللبادين وهلك فيها مال كثير .

ولعلنا — نحن المعاصرين — ندرك أن التاريخ يعيد نفسه ، من غير
تدليل ولا تفصيل ، فقد شهدنا حريق القاهرة قبل الثورة الأخيرة ، وتاهت
فى الاضطرابات أسبابه ودواعيه ، وكان حدوثه — كما يحكم التاريخ —
دليل زوال دولة وقيام أخرى ، وما من ذلك محيص .

وعلا مع لهيب النيران فى بلبس والقاهرة استصراخ العاضد وشاور
نور الدين مرة أخرى ، وكان نساء القاهرة قد جززن شعورهن لتباع فى
الدفاع عنهن ، فاستشفع بها العاضد فى كتاب استصراخه لنور الدين ،
فاستجاب له نور الدين وغفر لوزيره الغدرة الأولى بقائه شيركوه (١) .

ومن الغريب والحظ الحسن أيضاً أن شيركوه وصل الى القاهرة
وتخلف الفرنجة فلم يدخلوا ، ومضى شيركوه من فوره الى قصر العاضد
فلقيه الخليفة وخلع عليه الخلعة العاضدية ، فخرج يرتديها الى جنده
وخيامه ، ثم أجرى العاضد عليه وعلى عسكره نفقة موفورة (٢) .

وسواء أكان هذا اللقاء وهذه الخلعة والنفقة بعلم شاور وحضوره
أم بغير علمه ، فقد كانت حدثاً ذا خطر ، فقد جاوز شيركوه تقاليد
السياسة فلقى الخليفة دون تمهيد ، وتجاوز الخليفة عن مقام الوزارة
فخلع وأعطى دون أمرها ، ولكن ما حدث كان خضوعاً للقوة ، ومن حقها
وحدها أن تغير التقاليد .

وتحرك الشر فى نفس شاور — وكان لم يهدأ — فكاتب الفرنجة
سراً ليعينوه على طرد شيركوه ، وعلم العاضد فسكت ، وعلم الناس
فكرهوا الوزير والخليفة معاً ، وعلم شيركوه فصمم على أن يزيل شاوراً

(١) وفيات الأيمان ج ٦ ص ١٤٦ .

(٢) ذيل النوادر ص ٢٥٧ .

عن الوزارة ويقضى عليه ، وأما صلاح الدين فقد نوى — لو صار له الأمر — أن يزيل الجميع .

وراح شيركوه يطلب من شاور أن يبذل له ما خسره جند الشام فى العودة لمصر — وكان شاور قد وعد به — فماتل شاور ، ثم عزم على أمر مهول : ذلك أنه يولم وليمة — كتلك التى أولمها محمد على فيما بعد للمماليك — فاذا انحصر شيركوه وأمراء جند الشام فى مكان الوليمة أخذتهم المدى والسيوف (١) . ولم يستطع شاور أن يجلس نيته فى صدور من استأمنهم على سره ، فأبلغها بعضهم الى شيركوه وسربوا أخبارها الى الأسماع .

وحتى تتم المذبحة أخذ شاور يقتل ظلما كل من يميل الى شيركوه ، مهما علا مكانه أو اتسع علمه أو صلح دينه وعمله ، وجعل يفتك بهم على الظنة والريية ، وقتل فيمن قتل : أحمد بن على الغسانى أوحده عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعية والآداب والشعر (٢) ، وجلس فيمن جلس : القاضى المذهب لأن أخاه الرشيد اتصل بصلاح الدين وهو محاصر بالاسكندرية ، كما اتصل هو بشيركوه وهو محاصر فى بلبس ، فعاقبه شاور بذنبه وذنب أخيه (٣) لأن أخاه توارى عن شاور وفر .

وكذلك بلغت الحدة غايتها ، وبات النصر لمن غلب ، والغلبة لمن سبق . وكان أن أجل شاور وليمته لأنها افتضحت وشاع خبرها ، وأجل شيركوه كذلك أمر شاور حين فشل أمر الوليمة وتأجل ، الا أن صلاح الدين وجند الشام معه كرهوا التأجيل .

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧٤ ، ج ٦ ص ١٤٩ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٥ .

(٣) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦٠ .

ومالت قلوب الناس الى شيركوه فتمنوا زوال شاور ، حتى أولاده ،
لأنه صيرهم حديثاً فى الأفواه ، فخرج عليه ولداه « طى والكامل » : أما
طى فقد حارب الفرنجة بظاهر بلبيس وكان نائباً عليها عن أبيه ، وأما
الكامل فظالماً نصح لأبيه أن يكون مع المسلمين على الفرنجة فأبى .

ولم يمض غير أيام حتى تقدم صلاح الدين من عمه نائباً عن جند
الشام يطلب أمره فى شاور ، وقد قالوا : انه نهاه ، ولكن صلاح الدين
خرج من عند عمه وقد نوى أن يقدم على ما أراده (١) ، ولم تكن هذه
غريبة عليه فقد تعود من قبل أن يمضى فى الأمور التى يصمم عليها ، دون
كل الرضا ، كما كان فى شحنة دمشق مع رئيسه القاضى الشهرزورى .

وفى ذات يوم خرج شاور فى موكبه وزينته ، فلقد كان وزيراً لمصر ،
وكان وزراء مصر — ويظهر أنه داء قديم — قد اخذوا من الأبهة لأنفسهم
مأخذاً عظيماً ، وكان شاور أكثرهم أخذاً بهذه المظاهر ، فكان اذا ركب
هتفت الأبواق بركوبه ودقت الطبول وخفقت الأعلام .

ومضى شاور فى موكبه يريد زيارة شيركوه ، وكان شيركوه قد أحس
بما يريده ابن أخيه فتمارض واحتجب ، فلما مضى شاور فى طريقه
اعترضه فارسان من فرسان الشام وقالوا له : ان شيركوه قد سار الى قبر
الشافعى الامام ليزوره اليوم ، فمضى شاور ليلحق به ، بينما كان الفارسان
يخترقان موكبه ويقتربان منه ويسلمان عليه ، ثم سارا على جانبيه يحرسانه
مع الفرسان : واحد من اليمن والآخر من الشمال .

وعلى حين غرة ، وفى حركة أسرع من البرق ، أخذ الفارسان
بتلايب شاور وألقياه عن فرسه ، حين كان جند الشام يأخذون على
أصحاب شاور ويفرقونهم ، وسرعان ما تفرقوا وسحب شاور الى خيمة
منفردة قتل واستراح منه الناس .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٩ .

وكان هذان الضابطان بلباس الجند ، ولباس الجند متشابهة ، فلم يعرف الضابطان على التحديد ، فقبل انهما « برغش » و « عز الدين جرديك » وقبل انهما « عز الدين وصلاح الدين » ، ومهما كان الاثنان فقد جرى ما حدث برأى صلاح الدين وأمره (١) ، بل ربما كان بأمر عمه شيركوه أيضا . ثم حمل رأس شاور الى شيركوه فأرسله الى العاضد الذى ما كاد يراه حتى أرسل لشيركوه فولاه الوزارة وخلع عليه الخلع وأفاض عليه المال ولقبه : « الملك المنصور أمير الجيوش » .

وحينئذ تم أمر شيركوه وبلغ جاهه الأوج ، فقد صارت له وزارة مصر من العاضد ، وكانت قد صارت له حمص والرحبة اقطاعا من نور الدين ، وظل هذا الاقطاع لأولاده من بعده ، حتى أخذه منهم نور الدين عقوبة لصلاح الدين وبنى أيوب وسنشير اليه فيما بعد .

وكتب الخليفة العاضد بخطه تقليد الوزارة لشيركوه ، ثم تقدمت الشعراء لمدحه : شعراء مصر فى بلدهم ، وشعراء الشام من بلادهم ، وكذلك فعل الكتاب والأصحاب . ولو لم يفعل صلاح الدين ما فعل لتأخرت الوزارة عن عمه ولم تجيء فى الوقت الذى جاءت فيه . ومن يدري ؟ لعل الوليمة كانت — لو أقيمت — تقضى عليه ! فكانت يداً لصلاح الدين على عمه حين حدثت ، ثم كانت فيما بعد يداً له على البلاد .

وزارة مصر :

وجرى نصف الحظ لصلاح الدين بقتل شاور ، فقد تولى الأمور من وراء عمه وقرر لها بكفاية وجسارة ، ثم جرى له النصف الآخر بيد القدر فتم حظه ، فقد مات عمه من قريب ولم يعيش طويلا : لم يقض فى

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٥٨ .

منصبه غير شهرين وبضعة أيام . ومع أن الآجال تجرى مستترة وتنفد على العباد بلا نظام ، ومع أن آل أيوب كانت تنتهى أعمارهم سريعاً فإن موت شيركوه فى الوقت الذى مات فيه أثار الشكوك والأقوال : فمن قائل ان الخليفة العاضد سقى خلعة الوزارة التى ألبسه اياها سما فمات منه (١) ، ومن قائل انه مات بالخانوق ، ومن قائل انه قد أكله النهم الى اللحم فقضت عليه التخمّة . ومهما قيل وثار من الاتهامات فإن الفرصة قد لاحت لصالح الدين ، وكان القدر من ورائها يريد ، ولا بد مما أراد !

وبموت شيركوه لم يبق فى مصر من منازع لصالح الدين سوى الأمراء النورية الذين كانوا معه ، وكان هو واحداً منهم ، بل كان أصغرهم سناً ، لم يفت الثلاثين بعد ، فطلب كل منهم الوزارة العاضدية والتقدم على العسكر فى مكان شيركوه : عين الدولة الياروقى وقطب الدين بن ينال وسيف الدين المشطوب : وكانوا ثلاثتهم من كبار القادة والمقدمين ، فطلبوا الوزارة وقيادة العسكر ، حتى شهاب الدين محمود الحارمى طلبها . وهو خال صالح الدين .

وجرت الاستشارات والمفاوضات وكثرت الآراء :

وسعى لصالح الدين صديقان كانا من أخلص أصحابه : أحدهما سعى من خارج قصر الخليفة ، وثانيهما سعى من داخله : وكان الذى من الخارج « عيسى الهكارى » الفقيه ، فسعى الى الحارمى خال صالح الدين فأخمد نفسه لقربائه من صالح الدين ، ثم سعى الى المشطوب والى ابن ينال حتى ميلهم كذلك اليه ، وكلهم مال ورضى غير عين الدولة الياروقى . فانه ترك مصر وخرج الى نور الدين بالشام ليتولى مكاييد الحساد .

وسعى بهاء الدين قراقوش من داخل القصر ، اذ كان فى آخر أيام شيركوه قد رتب أستاذاً على القصر ، يقوم بحفظه ورعايته ورؤية عورائه وسيرته ، فسعى الى العاضد قائلًا له :

(١) وفیات الاعيان ج ٦ ص ١٥١ .

ان صلاح الدين أصغر القواد سناً ، وكانت بين نور الدين وعمه مغاضبة حتى تولى الوزارة لك فانتقلت المغاضبة الى ما بينه وبين صلاح الدين ، وتوشك ناراها أن تضطرم ، وليس لصلاح الدين عسكر يرأسه ، فاذا تولى الوزارة كان مستضعفا ، فلا يجسر على المخالفة .

ثم تقدم من العاضد آخرون يخيّلون له أن يجعل على العسكر الشامى من يستميلهم اليه فاذا تفرقوا وصار بعضهم معه أخرجوا الباقين فتعود اليه البلاد وتخلص من أتباع نور الدين .

وخمدت بذلك السعى الحريص الخفيف أنفاس الطامعين ، ثم راقى الفكرة للعاضد فعرض الوزارة على صلاح الدين ، فتمنع صلاح الدين مبدئياً أنه لا يريدّها ، فألزمه العاضد ، فتولاها كالكاره لها ، ثم خلع عليه الخليفة ولقبه « الملك الناصر » ، فخرج بخلة الوزارة الى دار عمه شيركوه أسد الدين (١) .

وقد صدق بعض المؤرخين التعبير حين قال انه تمنع ولم يقل انه امتنع ، لأن وثائق نيته وميله الى الوزارة وامتلاك مصر قد سجلها فيما بعد صديقه الشاعر عرقله الدمشقى وأرسلها اليه فى شعر صارخ الشهادة بأن صلاح الدين كان يريد ، واذن لم يكن التمتع الا أمراً ظاهراً ، وقد يكون الغرض منه أن يزيد العاضد ثقة واطمئناناً ، حتى اذا استوى على الأمر نفذ خطته واصلاحه الذى صمم عليه .

وكان على صلاح الدين أن يقرب ثلاثة من أصحابه خدموه حتى نال الوزارة باخلاص وتضحية : أحدهم « عز الدين جرديك » الذى عاونه فى قتل شاور ، وثانيهم عيسى الهكارى الفقيه وثالثهم بهاء الدين قراقوش وهما اللذان أحمدا الطامعين وزينا للعاضد الطريق ، فقربهم منه واعتمد عليهم وتبادلوا الاخلاص مدى حياتهم ، وسيأتى ذكر كل منهم فى مكانه من هذا الكتاب .

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٤ .

ولكن صلاح الدين أحس بفراغ واسع حين مات عمه ، فأراد أن يملأ هذا الفراغ حتى يأنس ويهدأ فكتب الى نور الدين ليأذن لأبيه نجم الدين ولبقية أهله أن يدخلوا مصر — تشبهاً بيوسف الصديق وأبيه يعقوب — فأذن لهم نور الدين ، وقد خيل لصلاح الدين — وكان متأثراً بقصة يوسف وما بين الأسماء والحوادث من مشابه — أن يفعل مع أبيه كما فعل يوسف النبي من قبل فيرفعه على العرش ويوليه وزارة مصر ، فأبى نجم الدين قائلاً له :

يا بنى ، ما اختارك الله تعالى لهذا الأمر الا وأنت أهل له ، فلا ينبغي أن تغير موضع السعادة ! فامتثل صلاح الدين وأقطع أهله حتى يعيشوا ، ثم جعل أباه على خزانة المال .

خلع الخليفة :

كان عبد الله بن الفائز الملقب بالعاقد خليفة من بنى عبيد وملكا على مصر اسماً ، أما الأمر فلوزرائه ، وهو يقر كل وزير غالب ، دون أن يسبق برأى ، الا الخوف ! .

وقد زل العاقد فزال عن الجادة ، واتصل بالبدعة فغالى فى سب الصحابة ، ثم استحل دم كل من خالفه ، وقد ظننها العاقد عقيدة كما يظنها الجهلة والطغام ، ولكنها سياسة صنعها الوزراء وأصحاب المنافع ليأكلوا منها ويجنوا ثمارها .

ولبقاء هذا الغطاء والغشاوة المعمية خاض الخليفة فى بحر من العبيد والاماء ، واحتشدت بقصره تحف وجواهر ما لم يكن مثلها عند أحد من الملوك ، جمعت فى عهده وعهود آبائه على طول قرنين مع ماورثت الدولة العبيدية من موارث ومغانم ، فمنها قضيب من الزمرد نحو قصبة ونصف قصبة ، وحة من الياقوت ليس فى حجمها حبة مثلها فسميت جبل

الياقوت وصارت لها شهرة فى تحف التاريخ : كانت تزن سبعة عشر مثقالا .
رآها الناس ووقفوا على وزنها ، وقال ابن الأثير : أنا رأيتها ، ووقفت على
وزنها .

وكان كل ذلك أهون ما لقي صلاح الدين فى قصر الخليفة وما نبأه
به صديقه قراقوش ، ولعل منها أمورا كان يمكن اصلاحها وتوجيهها
وجهة الخير ، ولكن النفوس التى كانت بالقصر : من الخليفة الى أدنى
الخدم كانت فاسدة لا تصلح ، وكانت أقرب ودأ الى الفرنجة الغزاة منها
الى الوزراء الذين عليهم أن يحملوا أمام الشعب تبعات الأمور .

بل كان الخليفة ووزرائه يدفعون ثمن متارفهم ، لتضمن لهم ، جزية
الفرنجة ، وقد وصلت بينهما حبال من السر عريقة لا يمكن حصر
أساليبها . ففضى صلاح الدين أن يخلع الخليفة ويوصد القصر ، ثم يفرق
الأمراء ويقطعهم حتى يبيدوا ، ثم يزيل العبيد والاماء بالهبة والعنق : وان
يكن المؤرخون قد رأوه تلكأ أحيانا ، فهذه طريقة التنفيذ ، ولا أهمية
للمطريقة بذاتها الا فى نهايتها .

أما الذخائر والتحف والخزائن فانه اصطفى منها نفائسها للدولة ،
واستمر البيع على ما بقى بالقصر نحو عشر سنين ، ثم أهدى منها لخليفة
بغداد جزءا ولمولاه نور الدين جزءا آخر . وأما العبيد والاماء والخدم
والحراس فقد فرقهم أو أعتقهم ، ولم يبق منهم أحدا .

وكان من رأى نور الدين أن يعجل صلاح الدين بخلع العاضد قبل
مواعده الذى حدث فيه لولا أن أجل صلاح الدين مخافة أن يخرج من
الناس ، وكذلك استأنى حتى يستفتى الفقهاء ، فأفتوا بخلعه وعللوا لذلك
بانحلال العقيدة وشيوع الفساد ، فنفذ صلاح الدين وصية نور الدين
ووفتوى الفقهاء .

وخلع الأمراء حين تهون دولتهم على الناس من أهون الأمور ،
وانما يحتاج الأمر الى رجل شجاع ، وقد رأينا فى زماننا خلع الأسرة

العلوية وتفرق أمرائها ، وقد أتاح لى القدر أن لقيت أحد جبابرتها بعد خروجه من مصر — لقيته فى بيروت مع قنصل مصر فيها حينذاك وتحديث اليه ، وكان هو مقراً لما حدث مؤمناً بوجوبه ، لما كان قد صارت اليه دولتهم من التمزق والهوان والغرق فى متارف الدنيا ومطامعها .

ثم جرى القدر سريعاً بما أراد ، فدخل العاضد فى مرض الموت ، ثم مات بعد يومى جمعة متتاليين خطب فيهما للمستضى العباسى : أولاهما بجامع مصر والثانية بالقاهرة ، ومات العاضد بعد الجمعة الثانية بيومين . وقد قيل انه مات ولم يدر بأنه خلع ، وقد كثرت الأقاويل فى موته ، فقيل : انه انتحر لغيظ شديد أصابه من توران شاه أخى صلاح الدين فسم نفسه فمات ، وقيل انه مات حتف أنفه : وسواء أكان قد مات حتفاً أو سما فقد انقرضت بموته دولة بنى عبيد ، وتم أمر مصر لبنى أيوب .

وإذا كان الدعاء فى الخطبة قد تحول عن العاضد للمستضى العباسى بعد انقطاع الدعاء عن العباسية من مصر مائتى سنة وعشر سنين فانما هو أمر قدره فى مظهره ، ليس غير ، لأن الخليفة العباسى لا يملك لنفسه فى بغداد أمراً كالعاضد ، فكيف بأمر مصر وأمر الشام ! ولكنه كان عملاً أراضى نور الدين وأرضى الشعور العام المتعلق بمظهر الخلافة . وقد فرح المستضى فرحاً لا حد له حين وفد عليه القاضى « ابن عسرون » يهنئه بالخطبة له فى مصر ، فغلقت أسواق بغداد وتبودلت التهاني ونصبت القباب والأقواس . ثم جاءت الخلع منه لنور الدين فى الشام وصلاح الدين فى مصر ، وسيرت الأعلام السود : أعلام العباسية ، لتتصب على المنابر (١).

ولم يحدث ما يكدر خاطر صلاح الدين سوى مواقفته لمؤمن الخلافة هو وأعوانه من العسكر السود بين القصرين على باب زويلة ، وذلك قبل أن يخلع العاضد ، وكانوا فى محلة هناك تدعى المنصورية (٢) ،

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٧ .

(٢) الناصر صلاح الدين ص ٥٩ .

فواقعهم صلاح الدين بها ، ولم يلبثوا غير ساعة ثم انهزموا فقتل منهم عدد كبير وقتل مؤتمن الخلافة أيضا .

وقيل ان العاضد كان ينظر للمعركة من شرفات قصره فلما رأى كفة صلاح الدين راجحة أسرع فى تلبية مطالبه من الأموال والخيل ليتقوى بها ، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من العاضد فرساً ، ولم يكن قد بقى له سوى فرس واحد فنزل عنه وبعث به اليه . وقد علق الحافظ شمس الدين صاحب دول الاسلام على ذلك قائلاً : فلما استخلاه من الأموال خلعه من الخلافة .

وهؤلاء العسكر السود كانوا من السودان الذين غربثوا وسلكوا نحو المغرب فصارت لهم عدة ممالك (١) وكان العاضد قد حمى نفسه بشرادهم مثل آباءه فقتل شوكتهم ، ففطن صلاح الدين لهم منذ أول عهده بمصر ، وأحاطهم بشبكة من العيون والأرصاد حتى قضى عليهم . وقد ثارت فلولهم مرة أخرى بأسوان فكانت القاضية حيث أبيدوا .

الحذر والحيلة :

وكان من طبيعة الأمور أن يدخل فى نفس نور الدين شىء من الريبة والحسد وأن يكبر الشك باستمرار الصعود فى نجم صلاح الدين ، فجرت بينهما وحشة ، وبلغت كل واحد منهما عن الآخر أحاديث ، فقالوا : ان صلاح الدين أراد أن يؤمن لنفسه ملكاً بعيد الأطراف خوفاً من نور الدين ، حتى اذا زحف اليه بمصر وأخذها منه تركها الى منأى بعيد ، فسير صلاح الدين أخاه « توران شاه » الى بلاد النوبة فامتلكها ، ولكن بلادها لم تعجبه فعاد اليه .

وحدث ابان ذلك أن بلغت صلاح الدين تخرصات رجل قد ظهر فى اليمن مدعياً أنه المهدي وأنه يملك الأرض ، ثم لم يقف عند غروره

(١) تاريخ يعقوبى ج ١ ص ١٩٣ .

وتخربصاته فأخذ يستولى على ما يجاوره من البلاد التي تليه ويمتلك حصونها وأسقط الدولة الحمدانية في صنعاء والنجاحية في زبيد ، فرآها صلاح الدين فرصة لغزو اليمن وتأمين مصر من أقصى بحر القلزم ، فجهز أخاه الراجع اليه من النوبة وسيره إليها .

واستطاع « توران شاه » شمس الدولة في سرعة خاطفة أن يمحى جيش اليمنى المتخربص « عبد النبي ابن مهدى » وأن يقتله ، فخضعت اليمن له سنة (٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م) ، ثم قصد توران شاه عدن فهزم صاحبها وامتلكها ، واستقرت عدن واليمن في فلك صلاح الدين .

ومع أن اليمن انتقضت المرة بعد الأخرى على صلاح الدين فسير إليها أخا آخر له فأخضعها فانها ظلت في فلكه وملكه ، وجبت اليه أموالها وأموال عدن وزبيد وغيرها (١) بعد أن كانت سirt إليه أموال عظيمة في فتحها الأول على يد « توران شاه » ، ولم يلق صلاح الدين في فتح اليمن واستقرار أمرها له كبير عناء .

حظ جديد:

ووقع نور الدين من أمر تابعه في حيرة بين أمرين : عقابه ، والرضا عنه . وقد استفحل أمر هذه الحيرة حين كدر أعوان نور الدين قلبه ، وكان في أول من كدره « عين الدولة الياروقى » الذى خرج من مصر غير راض بأن يكون صلاح الدين وزيراً بعد موت عمه ، فما بال قلبه الآن وقد صار صلاح الدين سلطاناً !

وحين أفزع نور الدين استقرار حال صلاح الدين بمصر مالت حيرته في أمره مرة نحو العقاب ، فعاقبه بأن عزل عن حمص والرحبة نواب عمه شيركوه (٢) ، ومرة أخرى نحو الترضية ، فأرضاه جزاء جراته

(١) ذيل النوادر ص ٢٦٧ ، ٢٨٠ - وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢ .

وعقله ، فكاتبه بألقاب التشريف : كاتبه بالأمرير « الاسفهلار » أى مقدم الأمراء ، ولكنه كان غير راض كل الرضا ، فجعل لا يفرد به كتاب ، وإنما يكتب لقبه ذلك على رأس الكتاب تعظيماً له ، ثم يقرنه بكسافة الأمراء بديار مصر (١) .

وبرغم هذا التردد فى أمر صلاح الدين فقد اكفهر الجو بين الرجلين ، ولكن القدر كان رحيماً بالبلاد ، فجرى لصلاح الدين وللوطن الاسلامى يحظ جديد ، فقد مات نور الدين ، ولو بقى لاشتد ما بينهما ، وهما رجلان قويان ، وقد لا يغلب أحدهما الآخر ، فكان حظ البلاد يضيع بينهما لو بقيا معاً ، وكانت بوادر الخلاف تدل على أنه سوف يشتد ويتفاقم ويستمر ويدوم .

وآية ذلك أن نور الدين بعث الى صلاح الدين يطالبه بحساب ارتفاع مصر من الأموال ، فصعب عليه وهم أن يشق العصا ، ثم اعتدل بعد نصيحة أبيه وأمر بعمل الحساب ، وبعث ببعض نقائس قصر العاضد : بعث بقطعة ياقوت زتها سبعة مثاقيل ومائة عقد من الجواهر ومائة ثوب أطلس وما قيمته خمسة آلاف ألف درهم .

ويروى الحافظ فى تاريخه « دول الاسلام » أن هذه النقائس لم تصل حيث مات نور الدين قبل أن تبلغ دمشق فنهبت فى الطريق ، أو ردت الى صلاح الدين .

وكان على صلاح الدين اذ سمع بموت مولاه أن يشب الى الشام على الفور ، فان اسماعيل بن نور الدين — وقد ورث أباه — لم يزل طفلاً لم يعد أحد عشر عاماً ، فلا هو قادر على كبح جراح العدو الطامع من الداخل ، ولا هو بقادر على دفع العدو المغير من الخارج ، وهو طفل لين رخص فى يد أمراء أبيه ، وأول تجربة فيه أنهم سيجعلونه ترساً يرمون صلاح الدين من ورائه .

(١) ذيل النوادر ص ٢٦١ .

ومملكة نور الدين حديثة التكوين والتوحيد ، واسماعيل أصغر من أن يجمع الكلمة ويلم الشمل ويبني الدولة ، وهذا هو الخطب الكبير . وقد وقع كل ذلك فى ظن صلاح الدين وقدر له ، فصدق فى كل ما ظن وقدر .

وكانت دعوى صلاح الدين — وهو يثب الى الشام — أنه أحق بالوصاية على اسماعيل من كل أمير ، لأنه كان ثقة عند أبيه ، والمقاتل فى مصر بأمره ، والمقر له منه بوزرائه للعاقد ، والنائب عنه فى مصر والنوبة واليمن ، فهو أحق بتربية الطفل الوريث ورعايته ، حتى يتم نضجه ويصير أهلاً لحماية ملك أبيه .

وما كاد صلاح الدين يبدأ فى قطع الطريق الى دمشق ويبدى حجته تلك حتى كان أصحاب العداوة والحسد قد هربوا به الى الشمال ، ليتخذوه ترساً وردءاً ، وتركوا دمشق ، فكانت فرصة لصلاح الدين أعمامهم حقدتهم عنها فدخلها صاحب الحظ الموهوب بلا قتال فى ربيع الآخر سنة (٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م) ، ولما لم يكن قد لقي أحداً من خصومه فقد سار اليهم فلحق بهم وضم اليه منطقة الشمال كلها : حمص والمعة وحلب وكل ما حول هذه البلاد من قرى وحصون ، وقضى فى جولاته تلك نحواً من سنتين .

وأهم ما حدث فى رحلة صلاح الدين هذه انفتاح عينه على الموصل ، وكان سبب ذلك أن صاحبها « سيف الدين غازى » ابن عم الملك الطفل اسماعيل برز لصلاح الدين وهو عائد بجنده من حلب ، وجعل ينقض عليهم ويتخطفهم من الأطراف ، فأرسل اليه صلاح الدين مستكبراً عن حربه ينهائهم ويثنيهم ، فاستكبر صاحب الموصل وبالغ فى عدوانه ، فارتد عليه صلاح الدين فكسره كسرة موجعة ، وأسر جمعا غفيرا من رجاله ، ثم عاد فأطلقهم منا ، ولكن بعد أن انفتحت عينه على الموصل وأعد لها يوماً .

ولم يكن صلاح الدين يحارب مثل هذا الأمير الا اذا طغى ، فقد كان بطلاً يستكبر أن ينزل الضعفاء ، فاذا اضطروه لئلازلتهم عفا عن مغائهم بعد دخولهم فى طاعته . ومن طريف ما حدث فى ذلك أنه حين نازل « سيف الدين » صاحب اربل وغلبه ، نزل الى سرادقه وتسلم خزائنه واصطبلاته ومطابخه ففرقها جميعاً ، ثم رأى فى السرادق طيوراً من القمارى والبلابل والهزارات والبيغاوات فى الأقفاص ، فاستدعى أحد ندماء سيف الدين وقال له :

خذ هذه الأقفاص واذهب بها الى سيف الدين وسلم عليه عنا وقل له : عدّ الى اللعب بهذه الطيور فهذا أسلم لك عاقبة من الحرب !

دمشق وحلب :

وكانوا يرون — ولم يزل الأمر الى زماننا — أنه ليس لدولة قوة فى هذه المنطقة دون حلب ودمشق ، ولهذا طلبهما صلاح الدين ولو كان فيه رغم أنف اسماعيل . ودمشق وبلاد الشام كانت دائماً قلب الدولة الاسلامية ولجة مجتمعها ، بل كانوا يرونها أصلاً والبلاد كلها فروعا . وحلب احدى قواعد هذا الملك وأصل منه ، وهى خط الدفاع الأول لصد الغزاة من الشمال ، وقد بنيت قلعتها لهذا الحساب من قديم ، وصارت حلب كلها قلعة .

واقليم حلب اقليم واسع ضارب السعة غزير الخيرات ، وقد طفت أنا معظم قرى هذا الاقليم وبريته فى عصرنا ، ولاحظت نمو النبات فيه ، فكأننى — لسرعة نموه وصعوده اذا انهزم المطر — أكاد أراه ينمو أمام عيني وأقيس نموه ، وليس فى قولى مبالغة ، فالأرض بكر عاتية الخصوبة ، وقد شاهدت القمح فى نواحي « ادلب » يغطى هامة الرجل الطويل . وأشجار الزيتون فى مداخل « حارم » ترسم خطوطاً خضراء على رقعة أرض حمراء فتبدو كصورة على ورق . وشجيرات الفستق تغطى بعض

الأنحاء كأنها صحارى خضراء ، والخضر تنمو وتكبر فى أوانها نمواً عجيباً ،
والأزهار الوحشية تكسو أرضها فى الربيع كأنها أبسطة عجبية الصنع
والألوان . واللبن المروب يسقى فى قراها فى الصيف مكان الماء . وقد
كان هذا ولم يتركها استعمار بعد استعمار حتى قتلها وأجذب أرضها
وأغاض ماءها وخفض من سكانها ، فكيف كانت أيام صلاح الدين ؟ !

وإذا كانت هذه حلب فكيف بدمشق وهى بلد الغوطة ، والغوطة
أحدى العجائب ! وإن الأمل لكبير وقد تولى الأمر رئيس عربى أمين
ورائد مخلص حكيم أن يعود لحلب وإقليمها فى أيامه الخير الذى كانت
ترفل فيه قبل الحروب المقدسة ، والله ولى توفيقه .

أما أهل حلب فكانوا يرونهم قديماً شديداً الغيرة قساة فى القتال ،
وقد رأيتهم حين عاشرتهم لم يزلوا قساةً على مستعمرهم ، وهم على
خلق كبير ، ومن أجل ذلك كله طلبها صلاح الدين وسار إليها مسرعاً
ودأب فى طلبها ، ثم صارت حين أخذها إحدى قواعد ملكه وحصونة
المنيفة .

موت اسماعيل :

ولم يكد صلاح الدين يرجع من الشام الى مصر حتى وافاه الخبر
بموت الملك الطفل اسماعيل ، ووقع الاضطراب بموته فى حلب والشام ،
وعبث الأرمن بالنواحي التى ينزلون بها ، وتقاتل الأمراء فيما بينهم ،
وآثروا أن يستعين كل منهم الفرنجة على صاحبه ، فأذنهم صلاح الدين
بهجوم عاجل ، فانطلق فى سبعمائة فارس فبلغ دمشق فى صفر سنة
(٥٧٨ هـ - ١١٨٣ م) فخرج كل من كان بها من العسكر وانضموا اليه ،
وترددت القلعة قليلاً ثم سلمت ، فانطلق صلاح الدين بجنده المصرى
والشامى يخضع لمنطقة بأسرها : من آمد فى أقصى الشمال الى دمشق
التي من ورائها حوران ومصر ، ومن الموصل فى أقصى الشرق الى حارم
وطرابلس وبيروت على ساحل البحر فى أقصى الغرب .

وسرعان ما استطاع أن يقهر الخارجين عليه في حلب ، وأن يغلب آمد ، وأن يخضع خط البلاد الشمالية من الموصل في شمال العراق الى حارم وهي أدنى البلاد من اقليم الاسكندرون . وقد اجتاز هذا الفارس البطل كل تلك المناطق المترامية الأطراف الصعبة الهضاب ومرتقى الجبال والغائرة الوديان في مدة يسيرة ، وكأنه عَيْن " تعبر أرجاء الكف في لمحات ، وقد سبقته هيئته وسمعته فجعلت البلاد تسلم والحصون تخضع ، بل يطلب الناس غزوه وحكمه .

ولم يلبث اسم صلاح الدين أن غطى على اسم نور الدين ، أما اسماعيل فقد قطعت بموته الخطبة عنه ، وأزيل اسمه عن النقود ، ثم لم ير صلاح الدين بدأ من أن يرسل الى الخليفة المستضىء برسالة ، كتبها وزيره القاضي الفاضل ، يذكر بها ماله على الخلافة في بغداد من مآثر بجهد العدو وفتح مصر واليمن وافريقية واقامة الخطبة العباسية ، وطلب تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما كانت تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد بعده ، فأجابه المستضىء بما أراد ، وأرسل اليه وفداً بالتقليد بما شاء من الولايات ، وأفاض الخلع على الوفد وعلى أقرباء السلطان .

ولم يتعجل صلاح الدين حين طلب من بغداد ما طلب ، فقد سنحت له الفرصة ، بالقوة التي صارت له ، والبلاد التي أحبته ودخلت في طاعته ، ولعله لو تأخر في طلبه لدخلت بغداد معه في دور مغاضبة طويل كما كان دخل معه نور الدين ، ومع كل ذلك فإن ما طلبه صلاح الدين لم يكن الا ما جرت به التقاليد في تلك الأزمنة من احترام الخلافة والتظاهر بطاعتها ورضاها .

الباطنية :

ولو تم الأمر لصالح الدين فخضعت له المنطقة بعد هذا كله لأنه
أن يقذف بكل قواه في وجه الفرنجة وينصرف اليهم فارغاً من كل هم ،
ولكن أعوان الشر وقفوا له في كل مرصد ، فعطلوا قواه عن الانطلاق .

ولم تطل الحروب الصليبية في أرض بلادنا الا من هذه المكاييد
والجبال ، وما طمع العدو فينا من قبل ومن بعد الا وهو يتكئ على
أعوان الشر ، وقد كان أولئك أيام صلاح الدين من أنصار قصر العاضد ،
وبعض رجال القبائل المتمردة ، والجند الذين تحولت الدنيا عنهم ،
والملاحدة والمتعصبة الذين أعماهم التعصب وأضلهم فاتتهزوا غفلة العامة
عن حقائق الدين فابتدعوا الخطة العوجاء وزينوا الضلال للنفوس .

ولقد كان القدر مظاهراً لصالح الدين فمكن له من رقابهم جميعاً ،
ولكنه لم يمكن له منهم الا على فترات ونوبات . وأشد ما كانت تستفحل
شورهم وهو يلقي الفرنجة أو الأمراء ليجدوا فيه الفرصة ، ولو أمكنه
القضاء عليهم جملة واحدة لجاءت نتائج أيامه أبهر مما جاءت ، غير أن
ذلك لم يكن بالامكان ، فقد كانوا متفرقين على الأرملة والبلاد ، وكان
صلاح الدين منهوب الفكر موزع القوى متفرقاً متبدداً : كان يستخلص
الملك ، ويوحد البلاد ، ويصد العدو ، ولم يكن له بد من الاصطلاء
بكل تلك الشرور ، وهي آفة المثلث ، ولا بد منها ، حتى لو كان صلاح
الدين يبنى ملكاً صغيراً ، ولكنه كان يبنيه كبيراً ، ويخط فيه مجداً
أثيلاً .

وكان قد انبثق من الباطنية فريق متطرف قد خرج وألحد ، وأبطن
غير ما أظهر : أبطن الإباحية فتخدر بالحشيش وارتكب الآثام ، وأظهر
أمام الناس أنه قادر على المعجزات ، وهو يهب الجنة ويُدخل النار ،
وقد تلقوا عقيدتهم تلك عن استاذهم القديم حسن الصباح شيخ الجبل

المشؤوم (١) ، وحسبك أن تعرف أنه كان زميل عمر الخيام في عاصمة خراسان فتلقنا معاً عقيدة كلها شك وارتياب .

وقد هال هذا الأمر عقلاء ذلك الزمان ومتدينيه ، ولم تمنع شروهم رجلاً كالامام الغزالي أن يكتب في فضائلهم كتاباً يرفعه الى الخليفة المستنصر العباسي ، ولو نالوا الغزالي لقتلوه ، وتبع الغزالي علماء كثيرون كتبوا وفندوا كما كتب وفند .

وقد تبعهم سواد من المعوزين ، كالبقر لا يطلب غير العلف . وفي غفلة الدويلات عن ضبط البلاد والأمر ، وجد هؤلاء منفذاً الى السياسة والقوة ، فأخذوا يستولون على قلاع البلاد الاسلامية ويخرجون منها جند الأمراء ، ويننون لهم قلاعاً جديدة ، ثم جندوا فريقاً من الفدائيين فرضوا عليهم الطاعة العمياء ، فسفكوا الدماء وأخافوا الدويلات وملأوا قلوب الناس رعباً .

ولقد صارت لهم مئات القلاع ، وجبيت اليهم الضرائب ، وفرضت الاتاوات ، وامتد سلطانهم من مصر الى ما وراء العراق العجمي ، وبلغوا غاية القوة أيام الحروب المقدسة ، وكان كل من يتعرض لهم بسوء من المشاركة أو الفرنجة يلقي حتفه على أيدي فدائييهم ، فكان من البديهي أن من أراد الغلب سعى لضمهم الى جانبه .

واستحالت هذه الطائفة الى عصابات للقرصنة تقطع الطرق وتهاجم التجار والحجاج ، وتنهب الأموال والأرواح ، وقد حاول السلاجقة ردعهم ودحرهم فلم يستطيعوا ، ثم تفاقم أمرهم أيام عماد الدين زنكي والد نور الدين وأيام نور الدين نفسه ، فلما جاء صلاح الدين ورأوه حذراً قوياً أضمر السوء له ، وتربصوا به الدوائر .

(١) مجالى الاسلام ص ٣٣٠ .

فحين حاصر حلب وقد عسكر خارجها بتل « جوشن » مكان مدينة سيف الدولة فى غربى حلب الحالية ، جاء جماعة منهم واختلطوا بالعسكر وحاولوا أن يصلوا الى خيمته فلم يتمكنوا وردهم العسكر بعد قتال سقط فيه قتلى من الجانبين (١) .

ثم حدث اعتداء آخر : فبينما كان صلاح الدين يدخل « عزاز » باقليم حلب سنة (٥٧١ هـ - ١١٧٥ م) دخل فدائيوهم - كعادتهم - الى خيمته ، وقد أحكموا هذه المرة أمرهم ، وكانوا ثلاثة : دخل أحدهم وراء الآخر - كما كانوا يفعلون ويرتبون دائماً - ودخلوا فى زى حراس صلاح الدين وجنده ، وما كاد الأول يدخل حتى وثب على صلاح الدين ، غير هائب من جند ولا سلاح ، فضرب رأسه بسكين ، فأمكن السلطان أن يمسكه بيده غير متمكن ، ولكنه خفف عن نفسه بما فعل ضربات أخرى أصابت عنقه ، وكان السلطان ، يومذاك ، يلبس درعه ، فكان الدرع وقاية من الله له .

ونشبت معركة بين فدائيى الباطنية وحراس السلطان ، وجرح بعضهم بعضا بالمدى والخناجر ، ثم ثار العسكر وهموا للنجدة ففروا والعسكر يتبعهم ويقتل من يلحق به منهم ، وقد بيت لهم السلطان نية الثأر . فحين عاد من حلب فى العام التالى مال الى قلعتهم فى « مصياد » (٢) بين حماة وطرابلس ، ونصب عليها المنجنيق وأوسعهم قتلا وأسرا ، وساق أمامه ما نهبوه من دواب الناس وأموالهم .

وبينما كانت هذه الأمور تقع بينهم وبين صلاح الدين على أرض الشام كانت جماعة أخرى قد ثارت فى مصر أيضاً ، وكأنما كانوا على اتفاق :

(١) صلاح الأيوبى ص ٥٩ .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٢٨ - أبطال الوحدة ص ١٠٤ - وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٦٨ .

ثار رجل يدعى « أبا شجاع الزجاجي » من بلدة تدعى « الزجاجية » بين قوص وققط بصعيد مصر ، واستتر وراء رجل يدعى عبد الجبار ابن اسماعيل بن عبد القوى (١) داعى الدعاة — الذى قتل اثر معركة السود وخلع العاضد — ومنصب داعى الدعاة كان المنصب الأول للباطنية — مدعياً أن هذا الرجل انما هو « داود بن العاضد » فله ميراث مصر ، واشترك معهم فقيه من فقهاءهم يدعى « يوسف بن اسماعيل الشيباني » وجماعة من أتباعه . وكان الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين نائباً عن أخيه على مصر فسار اليهم من فوره وأخذهم أخذاً وبيلاً ، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف .

وظفر صلاح الدين بعشرة من الفقهاء والأمراء كاتبوا الفرنجة لعودة الدولة العبيدية فصلبهم بمعائمهم وطيلاستهم ، وكان منهم عمارة اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب وقاضى القضاة وداعى الدعاة وبعض جند صلاح الدين نفسه .

وقد خدمت أنفاس هذه الطائفة التى تحن للدولة العبيدية بمصر الا ماكان فى سنة (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) فقد خرج اثنا عشر رجلاً يسلكون دروب القاهرة بالليل ويدعون للشورة ، وكان صلاح الدين قد تأزر نصره وكمل أمره ، فصم الناس عنهم آذانهم ورشقوهم بالشتائم والأحجار ، فتفرقوا فى ظلام الليل خائفين .

وكما تأثر صلاح الدين مما حدث من جنود شاور المصريين فى حصاره بالاسكندرية تأثر من عمل هؤلاء ، وأسف له ، لأنه رأى الشر لا ينال ، وبغى بنى آدم لا ينتهى ، وماذا يعمل صلاح الدين بعدما عمل للبلاد والدين ، ولكن وزيره القاضى الفاضل سكن خاطره وأذهب ما بنفسه .

ومنذ ثارت الاحن بين هذه الطوائف وبين صلاح الدين اشتد عداؤه لمذهبهم ، وتعقبهم فى البلدان وأقفل مدرستهم بالقاهرة ، وظل

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٠ .

يحذّرهم الى آخر أيامه ، حتى كان من شروطه فى صلح الرملة — الذى سنعرض له فيما بعد — وهو الصلح الأخير الأكبر — ان تدخل بلاد الاسماعيلية فيه .

القبائل المتطرفة :

ورأى صلاح الدين فى أثناء حروبه وتجاربه تطرفاً فى بعض القبائل واستحلالاً منها للبغى والعدوان ، ومن هذه القبائل بطون من « ثعلبة » كانوا قد أعانوا عليه الفرنجة فى أرض الأردن ، فسيرهم وأوسع لهم فى بلاد « جذام » ، وكانت قبائل « جذام » قد اختلطت بمصر وسكنت بطون منها بلاد « الحوف » فى الشرقية ثم فى الاسكندرية والبر الشرقى من صعيد مصر ، وكان كثير من رجال هذه البطون مشايخ للبلاد وخفراء لها ، ولهم مزارع ومأكّل ، فأكثروا الفساد فى الأرض ، فنقل صلاح الدين اليهم بطون « ثعلبة » وأوسع لهم فى بلادهم حتى تحشد القبيلتان كل منهما شر الأخرى (١) .

توحيد البلاد :

فى عصرنا ، وبعد ما يقرب من ثمانمائة عام من أيام صلاح الدين ضاعت أرض فلسطين ، ووقعت فى أيدي اليهود بأساليب من خداع المكر أكثر مما هى من خداع الحرب ، وظهرت اثر ضياعها فلسفة تدعو الى توحيد البلاد فى المنطقة ، لأن سبب الضياع كان من فرقة الملوك واختلاف الرؤساء ، أكثر مما كان من ضعفهم وغفلتهم ، فلا سبيل الى النصر قبل توحيد البلاد ، ولا منقذ الا هذا التوحيد .

(١) نهاية الارب فى معرفة انساب العرب ص ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩ .

واضطربت الآراء بين فكرتين : فكرة ترى الاتحاد يكون بتنازل الملوك والرؤساء للملك أو رئيس واحد ، من تلقاء أنفسهم ، أو بضغط من شعوبهم . وفكرة ترى أن الملوك والرؤساء لن يتنازلوا عن عروشهم ورياساتهم بغير القوة . وتحمس كثير من ذوى الفكر لهذا الرأى الثانى ، ولم يروا حلاً لمعضلة الخلاف والتوحيد غير أن يقوى أحد الرؤساء فيغلب الآخرين ، ولا ينتظر منهم شيئاً لن يفعلوه ، فيتم على يده التوحيد . وهذا الذى جرى من حوادث وآراء قد دل على حقيقة وضع بلادنا فى أيام صلاح الدين ، اذ الحال فى أيامه كالحال فى أيامنا ، لا فرق بين الحالىين ، والفلسفة التى ثارت حول التوحيد حينذاك هى نفسها التى ثارت فى أيامنا ، ولكن ذلك العصر تبنى فكرة التوحيد بالقوة ، كما رأته بعض الآراء فى أيامنا ، وحاول توحيد البلاد أمراء كثيرون قبل صلاح الدين ، ولكنهم عجزوا حتى جاء هو فوحدها بالقوة ، : لأنه كان الطريق الذى آمن به ووثق من ثقله ، ولأن الظروف كانت تواتيه ، وان كان قد رجع عنه بشفاعة الشفعاء فى آخر أيامه ، ولكن بعد أن كان قد وحد معظم البلاد .

غير أن الزعيم الذى حل فى مكان صلاح الدين اليوم لم ير أن توحد البلاد بالقوة ، لأن توحيدها بالقوة يريق الدماء ويجعل للعدو منفذاً ، وهو عدو كثير العدد بالغ العدة ، لا تنتهى حيله ولا تنقضى مؤامراته ، فوكل الأمر للزمن ووعى الناس . وهو على حق فيما رأى : فالزمن كفيل أن يرد الباطل ويقهر العناد ، والوعى جدير بأن يغلب قوى الشعوب على حكامها ، بل جدير بأن يجعل الحكام يدركون الحق ويلهمون السداد ولو فى النهاية ، من حيث لا تترك للعدو مداخل ولا ثغور ، وربما لا تنتظر الأحداث طويلاً حتى تولد ، فقد تولد فجأة ، من حيث لا يكون ميلادها فى الحسابان .

وقد جد رأى جديد آخر فى زماننا ، هو أن الأمة الكثيرة العدد الواسعة الأرض أقدر على الحياة من الأمة الصغيرة الضيقة فى عددها

وأرضها ، وقد حاولت دول" فى عصرنا أن تضم الى أرضها وأهلها كل بقعة تدعى أنها منها ، ولئن لم تكن هذه نظرية علمية فى أيام صلاح الدين فقد عمل لها وحققها ، اذ كان فى حاجة الى الدفاع عن أرض الشرق الأوسط كله ، فلم يجد بداً من أن يوحد بلاده ويوسع آفاقها ويكثر من عددها ، حتى يرد أوروبا الطامعة ثم يعيش هو وقومه فى عزة وامتناع ، ولم ير صلاح الدين من أجل ذلك بأساً فى أن يحارب حتى مولاه السابق وابن مولاه لو دعت الحال ، لأن الأمر لا ينتظر الامهال .

وفاجأ صلاح الدين الأمراء والحكام قبل أن يفاجئوه ، وبدد قواهم قبل أن تجتمع ، وصرف اهتمامه لجماهير الناس دون ولايتهم وأمرائهم ، فهتف اليه النفوس ، وخفقت بحبه القلوب ، وتعاون الناس على ولايتهم وخرجت عن طاعتهم .

ولم يأل صلاح الدين عملاً فى تحبيب الناس وجذبهم اليه ، وكان جوده على أهل القاهرة وأهل دمشق فى مقدمة ما بذل من جود وانفق من أموال ، ولم يلبث أن تعصب الناس له وقهروا أمراءهم من أجله :

ومن طريف ما حدث : أن « مسعود بن بيسان » المتغلب على آمد طلب الى أهل بلده أن يقاتلوا صلاح الدين معه وعن نفوسهم ، وكان يحاصرهم ، فقالوا له : ليس العدو بكافر حتى تقاتل عن أنفسنا ! ثم تهاونوا فى القتال وجنحوا الى السلامة وتهافتوا ليملكهم صلاح الدين .

فلما غلبه السلطان سمح له أن ينقل من آمد ما شاء ، فى ثلاثة أيام ، وأعانه السلطان بالدواب والرجال ، ولكن أهل آمد وأصحاب أميرها على الأخص لم يعاونوه وطرحوا أمره ونهيه ، وحملوا على الدواب التى أعانه السلطان بها وسرقوا البعض ، وانقضت الأيام الثلاثة ولم ينقل ابن بيسان الا القليل مما أفلت من أيدي الناس ، وترك ابن بيسان آمد وأبراجها مملوءة بأنواع الذخائر .

وحدث كذلك أن ولى اسماعيل بن نور الدين رجلاً يقال له « سرحك » على قلعة « حارم » وكان مملوكاً نورياً ، فامتنع من تسليمها للسلطان واشتط فى الطلب والشروط ، وراسل الفرنج ليحتمى بهم ، فتسرب خبر ذلك الى من بها من الأجناد ، فوثبوا على « سرحك » وقيدوه وحبسوه ، ثم أرسلوا الى السلطان يطلبون أمانه وانعامه ، فأجابهم الى ما طلبوا ووفى بما وعدهم به وزاد .

وهكذا أحبه الناس جميعاً ، حتى لم يبق قلب فى الأمة العربية والأمة الإسلامية الا وقد أحبه وتمنى فداءه لو مسه السوء ، وكانت صرخته الدائمة للجهاد أول أسباب هذا الحب . ولم ينس صلاح الدين حاجات الناس لسعة العيش والحياة ، بل لم ينس أن يسد المطامع لو ثارت ، فلم يمسك يده عن اقطاع الأمراء واعطاء العلماء والشعراء ، ولم ين عن بذل المال ، حتى العامة كان ينثر عليها فى رحلاته وانتصاراته بدر المال . ولم يجهل صلاح الدين أن قلوب الناس معلقة دائماً بالأجواد المسرفين .

وقد انتقل حب الناس له الى ايمان به ، حين انتصر وتوالى نصره ، فكان اذا نادى للجهاد خف الناس لنجدته ، وأسرعوا لنصرته ، وأقبلوا على الموت بين يديه فرحين بالاستشهاد ، ولم يَغْضُ واحد فى الأمة كلها من ندائه أو يتخلف عن دعائه .

ولقد تم توحيد الشام ومصر عام (٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م) على يديه ، والحق ان نور الدين كان قد سبق الى العمل لتوحيدها بكل الوسائل ، حتى انه وهو أمير على حلب تزوج ابنة « معين الدين أنر » صاحب دمشق فصارت له بهذا الزواج جرأة على دمشق .

ولا يستطيع أحد أن يتهم صلاح الدين بأنه كان طامعاً ، وحتى لو اتهم فى أول أمره حين كان يجمع أطراف البلاد فى يديه ، فانه لا يتهم بعد أن جمعها ثم لم يجلس على أريكة ملكها الواسع منتفعاً بشهواته ، بل حارب بها وبقواها ، واصطلى هو نار حرب عوان مع الناس وقبل الناس ،

ولم ينزل عند قصر من القصور أو يمتلك أرضاً أو عقاراً ، ولم يجبس مالا .

وكما يقول العرب : قطعت جبهة قول كل خطيب ، فإن صلاح الدين بانفاقه ماله وعمره في الجهاد أبطل كل اتهام ، وقد ثبت أنه لم يفتح بلداً ليملكها بل ليوحدها ، وكان الدليل أنه كان يترك أمراءها عليها متى نزلوا على الطاعة وانقطعوا عن التودد للفرنجة واستجابوا لنصرة الدين .

وقد اهتم صلاح الدين بجمع كلمة البلاد واستمدادها حين رأى الفرنجة قد اجتمعت كلمتهم ، وتضافرت قواهم ، ولو كان بلداً واحداً ضده ما استمد كل بلاد المسلمين ، ولكنه كان كل ما وراء البحر من بلاد . وصلاح الدين كان أول زعيم — بعد ضعف الدولة الإسلامية — استطاع أن يقبض على قوات مصر والشام ، ويوحد بين البلدين ، فغلب الصليبيين ، ويقول سيديو :

وفي هذا سر ما أصاب الصليبيين من قوارع !
وجمع صلاح الدين في يده قطعة كبيرة من الدولة القديمة : فجمع مصر والشام وشمالي العراق واليمن والنوبة وساحل افريقية .

مواصلة المغرب :

وقد ود صلاح الدين لو تم له أن يصل شرق البلاد الإسلامية بغربها ، كما كان الأمر عند الفتوح الأولى ، حتى يكون المسلمون كلهم قوة واحدة كما هم أمة واحدة ، ولكن ذلك لم يجاوز وده وأمله ، فلم يتصل بالمغرب الا مستنجداً ، فكتب الى يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب يستمده ويستنصر أسطوله فلم يغثه ، لأنه كان مشغولاً بحروب صليبية في بلاده ، وأكثر من ذلك أنه لم تكن له نية الاتفاق مع صلاح الدين ، أو لم ير من وراء ذلك تفعلاً كبيراً .

وكتب صلاح الدين أيضا للملك المنصور بفضل الله « يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » يستنجد به ، فلم ينجده كأبيه ، لأن صلاح الدين لم يخاطبه بأمير المؤمنين التي اشتهر بها هناك هو وأبوه ، فأضاع حب الألقاب الجوفاء صالح المسلمين (١) .

ومع أن الأب والابن كانا في شغل شاغل عن صلاح الدين بتأسيس ملكهما ومحاربة أعدائهما ومناجزة فرنج الأندلس ، فلم يكن لهما قدرة على مد صلاح الدين الا أنه كان من الممكن الاستغناء عن قطع من أسطول المغرب ، وقد كان أقوى أسطول في البحر الأبيض حين ذاك ، ولم يقصر صلاح الدين في دعوة الاخوة للنجدة والمعونة ، فعليهم اثم ما قصرُوا ولصلاح الدين ثواب ما فعل .

(١) الحروب الصليبية في الشرق والمغرب : انظر باب الحروب الصليبية في المغرب الاسلامي .

التدبير والمال

- مركز الدولة
- قلعة صلاح الدين
- سور القاهرة
- جسر الجيزة
- ميناء المقس
- طراز جديد للمعاهد
- الاقطاع
- رعاية الانتاج
- موارد المال
- بيت المال
- الاسراف في العطاء
- تبذير بني أيوب
- ضرورات العطاء والانفاق
- تقسيم المملكة

مركز الدولة :

أقام صلاح الدين بمصر ثماني سنوات كاملة قبل أن يضم إليها الشام ، فكانت القاهرة مركز حكومته ، وحتى حين ضم إليها الشام ووحدها معها كانت مصر لم تزل مركز هذه الحكومة وكانت اليمن والنوبة وليبيا تابعة لها ، وفي القاهرة يقيم نوابه ووزرائه ، ومنها يصدر أمره الى مختلف ما يتبعها من أقاليم .

حتى اذا أصبحت دمشق مركز حروبه تنقلت الحكومة معه مع بقاء أهمية مصر واقامة الملك العادل نائباً عنه فيها ، وقيام وزيره القاضي الفاضل بها معظم الأيام .

ولما لم يكن صلاح الدين — وهو سلطان على مصر — يدري من أمور الغيب التي حدثت فيما بعد شيئاً فقد فكر وصرف كل همه في أن تكون بمصر مشروعاته الكبرى ، ولم ينزل عن اهتمامه هذا حتى وهو يحارب في أرجاء الشام والعراق ، ويبدو أنه كان يريد العودة إليها متى انتهت حروبه ، وقد فكر في ذلك وأراده حقيقة حين نوى أن يمر بها وهو ذاهب الى الحج الذي نواه ولكنه لم يستطعه في آخر أيامه .

وانصرف فكره الى تقوية مصر — مركز حكومته القديم أو المنوى — دينياً وعلمياً وعسكرياً : أما دينياً فقد فعل وهو سلطان ما سنعرض له في الباب الآتي من احلال المذهب الشافعي مكان المذهب الباطني ، وعمل على نشره وشيوعه أكثر مما كان له .

وأما علمياً فكان بتشجيعه حركة العلم والأدب ، وانشاء مدارس نظامية له تكثر وتعم وتكبر ويكبر أثرها مع الأيام ، وان كان الغالب عليها الطابع الديني ، وكان هذا التشجيع يسير باطراد غير متأثر باشتغاله بالحروب ، فقد كان هو يشير ثم يقوم نوابه وأمرأؤه بتنفيذ ما يشير به .

وأما التدبير العسكرى فقد شغل معظم باله كما استنفد معظم ماله ، اذ انصرف همه للقاهرة يحصنها : وكان لا بد لهذا التحصين من سور يرد عنها المعتدى ويوقفه عند أبوابها دون أن يقتحمها فى سهولة ، ولا بد له أيضا من حصن مارد جبار يقذف بنيرانه الجموع التى تقصدها ، أو يحبط المؤامرات التى تقع بها ، أو يلجأ اليه حكامها وعساكرها حتى يستطيعوا الدفاع عنها أطول مدة .

وهذان الأمران اذا بلغ العدو أبواب القاهرة . أما قبلها فلا بد من أخذ الحيطة أيضاً حتى لا تؤخذ القاهرة على غرة ، وجانبها الغربى مخوف أكثر من جانبها الشرقى حينذاك ، فحتى يصل العدو من الشام يصطدم بمدن وصعوبات يعرفها صلاح الدين أكثر مما يعرفها غيره . أما اذا غزيت من الغرب فانه يسهل أخذها متى أخذت الاسكندرية وأخذ اقليم البحيرة .

وقد أخبر ابن جبير فى رحلته : أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدىن الذين غزوا الجزائر وتونس وطرابلس فى سنة (٥٥٣ هـ — ١٥٥٨ م) بعد أن أخضعوا مراكش وبلاد الأندلس ، حتى أصبحت طلائع جيش عبد المؤمن القائد المنتصر على مقربة من حدود مصر الغربية ، فاتخذ صلاح الدين لنفسه الحيطة على الرغم من أن الغزو الذى كان منتظراً لم يقع .

لذلك أخذ صلاح الدين يبنى جسر الجيزة حتى يرد العدو القادم من الغرب .

قلعة صلاح الدين :

وكانت القلعة بالنسبة للقاهرة فكرة جديدة (١) حين ذاك ، ولكنها خطرت خطوراً سهلاً على ذهن صلاح الدين ، لأنه رأى أمثالها على الرى

(١) سيرة القاهرة ص ١٥٣ .

العالية فى الشام وغيرها تتحكم فى المدن والأقاليم . والقلاع بهذه الصورة كانت فى مأمن من العدوان .

وقد أدرك صلاح الدين سهولة الايقاع بالعاضد وأمرائه فى قصورهم القائمة على جناحى سوق القاهرة مختلطة بالناس ، فأراد أن يتخذ له مسكناً منفرداً — كما قيل — ولعله كان فى الفترة الأولى يفكر فى اتخاذ مسكن دائم ، ولكنه كرهه فيما بعد أو تركه اضطراراً كما قلنا من قبل .

وبالقياس الى أماكن القلاع بالشام اختار صلاح الدين أو اختار مهندسوه مكاناً بارزاً من جبل المقطم متوسط الارتفاع مشرفاً على القاهرة القديمة ، بحيث يستطيع أن يحمى جناحيها من صحراء السويس وسهول حلوان والنيل ، أو ليخضعها هى اذا نفرت وثار .

وما كادت الفكرة تستقر لديه حتى أخذ أسرى الفرنجة والروم فى عدد لا يحصى ، يحملون الأحجار من محاجر الأهرام بالجيزة لتستخدم فى أعمال البناء ، وقد رآهم الرحالة ابن جبير وهم يعملون فى القطع والنحت والبناء .

ويقولون : ان هندسة بنائها — ولو أنه لم يتم دفعة واحدة وانما استمر الى ما بعد صلاح الدين بسنين كثيرة — أقرب الى الطراز السورى الفرنجى منه الى الطراز البيزنطى ، وهو طراز تأثر به صلاح الدين فأبرزه فى أكثر من مشروع .

سور القاهرة :

وتحت تأثير الهدفين اللذين يهدف اليهما صلاح الدين : التوحيد وحماية البلاد ، أمر أن ينشأ سور حول المدن الأربع التى كونت القاهرة فى عهده ، هى : الفسطاط التى انشأها عمرو بن العاص والعسكر التى

أنشأها صالح بن على العباسى ، والقطائع التى أنشأها أحمد بن طولون والقاهرة التى أنشأها جوهر الصقلى . ووكل بالسور ليشرف على بنائه صاحبه بهاء الدين قراقوش ، وكان قد سبقه سور آخر بناء بدر الجمالى .

غير أن هذا السور لم يتم فى عهده ، لأنه أمر به وهو مشغول بحروبه فى سورية ، وكان حسب نوابه بمصر أن يجمعوا له الأموال والرجال لمدة فى حروبه ، فلما تم السور بعد موته كان دوره سبعة أميال ونصف الميل .

ولم يكن السور — كما يتبادر الى الظن — حائطاً يقام حول القاهرة غليظ البنيان ذا ارتفاع ، وانما أنشئت به أبراج مستديرة ليرمى منها بالقذائف وتتخذ منافذ للمراقبة ، وقد بقيت منه أجزاء الى اليوم تدل على عظمة بنائه وكثرة نفقاته ، وان لم تنتفع منه القاهرة بشيء فيما بعد الا أنه أثر من الآثار .

جسر الجيزة :

وهذا الأثر لم يبق منه الآن شيء معروف ، وقد كان من المنشآت الدفاعية التى أنشأها صلاح الدين ، وكان — كما وصفه ابن جبير — قنطرة شرع فى بنائها على الضفة الغربية للنيل ، وعلى مقدار سبعة أميال منها . ثم أنشئ رصيف ابتدئ به من حيز النيل بازاء القاهرة كأنه جبل ممدود على الأرض حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهى نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسى القناطر ، متصلة بالصحراء التى تفضى منها للاسكندرية .

ويقول ابن جبير : وله فى ذلك تدير عجيب من تدابير الملوك الحزمة اعداداً لحادثة تطراً من عدو يدهم جهة ثغر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلماً فى كل وقت ان احتيج الى ذلك .

ميناء المقس :

وقد اتصل بأغراض الدفاع كذلك اهتمامه بأحواض أساطيله ، ولم يكن له أماكن مأمونة غير مصر ، فأفضل ما تكون بالاسكندرية أو دمياط ، وأفضل منهما جميعاً أن تعد في مكان بعيد ثم تدفع الى النيل فالبحر .

وهذه الفكرة قد فطن لها سابقوه فكان حوض الأسطول الفاطمي على ميناء نيلى بالقاهرة يسمى « المقس » تعد فيه السفن الحربية والتجارية وتدفع الى النيل ثم تسير الى البحر ، وكان حوض « المقس » في مكان طمره النيل في الأزمنة المتعاقبة فابتعد عنه الآن كثيراً : كان في المكان المسمى « باب البحر » اليوم وهو مساكن مزدحمة وأسواق للتجارة قريبة من باب الحديد عند محطة القاهرة للسكك الحديدية . وقد اهتم به صلاح الدين فكان مصنع سفنه الأول لبعده ومأمنه كما فعلت الدولة الفاطمية .

هذه مشروعات صلاح الدين الكبيرة الضخمة وأين هي من مشروعات رائد العروبة اليوم ولا سيما سد اسوان .

طراز جديد للمعاهد :

وكانت المساجد — قبل صلاح الدين — في هذه المنطقة هي نفسها المدارس التي يتلقى فيها الطلاب علومهم المختلفة من دينية ودنيوية ، فأدخل صلاح الدين طراز أبنية المدارس النظامية وأنظمتها عن بغداد ، تلك المدارس التي أنشأها نظام الملك للدولة السلجوقية وصار لها شهرة في تاريخ التربية ، وأقامها في مختلف المدن الكبرى ، وليس يحصى عددا ما انشأ صلاح الدين من دورها الا يبحث وعناية خالصتين ، فكتب التاريخ والسير ذكرتها متفرقة ، ولكنها انشئت في حلب والقدس والاسكندرية

وبعلبك وأصاب القاهرة ودمشق منها حظ كبير ، ولعل صلاح الدين قد ابتعد بها عن المساجد ليستطيع أن يجعل للدروس جواً خاصاً بها ، ثم ينشر ما أرادته من نشر مذهب الشافعى فى دقة وحرص وأتم نظام .

وكذلك انشأ صلاح الدين البيمارستانات ودور الأوقاف واهتم بها ، وشاركه أهله من الرجال والنساء وغير أهله من النواب والولاة فى الاهتمام بها وانشائها والاتفاق عليها ، ولم تنقض الدولة الأيوبية حتى تركت فى أرجاء المنطقة ومدنها آثاراً علمية لا تحصى .

الاقطاع :

كانت مصر نيابة — كما قلنا — يقيم فيها نائبه ، وقد أقام الملك العادل أبو بكر نائباً على مصر عن أخيه وقتاً طويلاً ثم أخذه معه فنبأ عنه بالشام وصار وكأنه وكيل له ، وظهرت شخصيته مع أخيه ظهوراً واضحاً ، ولم يكن يحدث شئ بين الفرنجة وبين صلاح الدين من حرب أو صلح الا وشخصية الملك العادل ظاهرة فيه .

وقام مقام العادل بمصر بعض أولاد صلاح الدين . أما الولايات الأخرى فكان عليها أمراء من أولاده وأهله أو من حكامها القدماء ، وكانت هذه الولايات كأنها اقطاعات من صلاح الدين لأمرائها متى خضعوا له وأطاعوه فى نظام شبه مستقل فى الداخل ، مضمون الارتباط بحكومة صلاح الدين ، مسئول عن أن يمدّه بكل ما يطلب من أمور السلم وشئون الحرب .

ويتولى الأمير أمر الولاية فى حياته أو مدة توليته التى يشاؤها صلاح الدين دون أن تورث ، الا ما حدث بعد صلاح الدين من تقسيم ملكه بين أولاده ، وينفق واليها على كل شئونها من ضرائبها وجباياتها ، ويكون للأمير أرض من الصوافى التى لم تملك من قبل ولم تزرع — شأن نظام الصوافى والاقطاع فى الاسلام — فيستغلها للاتفاق منها على نفسه

وأهله وعلى ديوانه ، وينفق من مالها على منشآتها وتجهيز العسكر الذى يطلبه صلاح الدين .

أما ما كان من الأرض مملوكا فيظل مالكة يعمل به ويؤدى عنه الخراج لأن الأرض عامة صارت ملكا للدولة بحكم الفتح والعنوة ، وليس للأمير عليه سلطان فيما عدا ما تحكم به الشريعة ويفتى الفقهاء .

وقد استطاعت الأرض بالتنافس بين الأمراء والولايات واستقلال أمرها أو شبه استقلالها أن تنفق جهوداً طيبة كى تلبى مطالب الاقليم الضيق ، وتلبى فى الوقت ذاته مطالب الدولة الواسعة ولا سيما فيما تطلبه أثناء الحروب .

وقد جاز بهذا الاستقلال لكل ولاية فى الداخل أن تختلف الضرائب والمكوس فى الأقاليم طبقاً لقدرتها وامكانها ، ويبدو أن مصر — لجودة أرضها وكثرة جبايتها بسبب المياه الدائمة وتعدد المواسم — كانت أكثر البلاد ضرائب . أما العراق فلم يكن لصلاح الدين منه الا الجزء الأعلى عند الموصل وسنجار وما حولهما .

رعاية الانتاج :

وأرض المعركة — التى هى أرضنا — قليلة الأنهار الدائمة ، ما عدا مصر والعراق ، حيث يجرى فيهما النيل وتجرى الدجلة والفرات . أما أرض الشام فى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين — كما هى مقسمة اليوم — فهى بلاد أمطار ، عدا جداول قليلة تتفاوت فى الصغر ومدد الفيضان تمددا عيون . فالبلاد عرضة للخصب والجذب كمشينة أثجاء المطر وسحائب السماء . والبرد يقرس فيها وتسقط الثلوج فتغطى أعاليها ، ولا سيما فى لبنان ومرتفعات الشام . كما يشهد الحر فى الصيف ويستمر لهيبه .

هذه الأرض كانت ميدان المعركة الصليبية الدائمة ، لذا خضعت
المعركة لخصوبتها وجديها وبردها وحرها ، وخضعت أيضاً لما تستطيع
الأقطار المجاورة أن تمدّها به من مؤونة وطعام . وهذا للمسلمين والعرب
من سكانها . أما الفرنجة فكان المتبلدون المقيمون منهم شأنهم شأن
سكانها ، وأما الوافدون فكانت مؤوتتهم مما يستولون عليه من مغانمها ثم
ما يجيئهم من بلادهم .

وكان ضرورياً أن يخضع صلاح الدين لطبيعة المنطقة ، فكان يميل
الى الصلح قهراً اذا أجذبت أو قرس شتاؤها ، ويخوض الحرب ويتابع
القتال ان أخضبت أو أهل الربيع .

وبرغم حاجة المنطقة الى ما هو أكثر من انتاجها بالنسبة للطوارئ ،
فقد استطاع صلاح الدين أن يقتصر على انتاجها وحده ويكتفى به حين
ضرب عليها الفرنجة الحصار ، بل استطاع أن يدخر منه لشهور السنة
وأيام الحصار والضيق والطوارئ ، وذلك عدا ما كان يأخذه الفرنجة من
انتاجها في أراضيهم التي احتلوها ، ومن غنائمهم من المسلمين في المواقع
التي يتصرفون فيها .

وكانت المنطقة حافلة بمنتجات الزراعة من الحبوب والخضر والفاكهة
وتتاج الحيوان الأليف والطيور والأسماك ، وبمنتجات الصناعة بما لم
يكن له مثيل عند الفرنجة . ونحن هنا نشير الى صناعات النحاس والحديد
والأصباغ والأنسجة في كثير من مدن الشام ، والزجاج البلورى الملون
فى صور ، وأنواع البخور والزيت والطيب ، والأسلحة فى الموصل
ودمشق والقاهرة ، ونخص بالاشارة معاصر السكر وطواحينه ، فقد كانت
صناعته متقدمة فى المنطقة ، لأن مزارعه كانت واسعة وعند طرابلس
خاصة من أرض الشام . وقد كان الفرنجة قبل اتصالهم بالشرق فى
الحروب المقدسة لا يعرفون السكر ، وكانوا يحلون أطعمتهم بالعسل ،
فتعلموا تحليتها بالسكر واستعذبوا مذاقها .

وقد انشئت في أيام صلاح الدين ذاتها معاصر للسكّر ، انشأها الأمير « يزكوج » الناصري في بليدة على ساحل النيل الشرقي اسمها « بيج » وكان يرتفع منها لصلاح الدين ارتفاع وافر — والعرب هم الذين ركبوا بالسكّر الأشربة والجلاب ومربيات الأعشاب والفواكه (١) .

ومنذ الحروب الصليبية تأخر الانتاج الزراعي في بلاد الشام حيث أهملت الأرض لقلة الأيدي وندرة الناس في بعض المناطق ، وكذلك تأخرت الصناعات وباد منها الكثير . ومن ير بلداً مثل « صور » اليوم ويقرأ تاريخها بالأمس — وقد كان بها ألوف العمال وعشرات المصانع — تملكه الحسرة والأسى .

وقد أتم الاستعمار المتوالى للبلاد القضاء على كل بقية للصناعة ، اللهم الا المناسج البدائية وبعض الصناعات الدنيئة ، واستطاع أن يحو من النفوس حب الصناعة والعمل ، لأنه استبد بخاماتها وانفرد بأرباحها . ومن حيث انتصرنا في العصور الصليبية حريباً ولم نمكنهم من بلادنا انهزمنا في نواحي كثيرة من الحياة .

ولكن الله هياً في زماننا للبلاد من أخذوا في اعلاء شأن الزراعة وانشاء المشروعات الكبرى التي يقل مثيلها في البلدان الأخرى ، بل ان السد العالي الذي بنى على النيل يكاد يكون أول سدود العالم عظمة ونفعا ، كما أخذوا في تنمية الصناعات وحمايتها وتربية جيل يشعر بضرورتها وحيويتها ، وكان للأسلحة من بين الصناعات حظ كبير .

أما مصانع السكّر فقد ازداد شأنها وارتفع انتاجها ، وان كانت طرابلس قد نضب معينها منه ، وعادت صناعة الأنسجة الى أحسن مما كانت ، وارتفعت صناعة الزجاج وان لم تبلغ الغاية المرجوة ، وتنوعت منتجات العطور والزيوت ، وجففت الخضّر ، ونسج الصوف بعد أن كان

(١) مجالى الاسلام ص ١٤٤ — معجم البلدان ج ١ ص ٢٥٣ — العلاقات بين العرب والافرنج ص ١٨٢ .

سجّه معجزة أوروبا وحدها ، وأصبح من الميسور أن تصل المنطقة الى درجة الاكتفاء الذاتى بعد قليل ، فيما عدا الحبوب والأطعمة لتكاثف السكان .

وحتى تزدهر الزراعة فقد عنى صلاح الدين والأيوبيون من بعده بنظام الرى عناية فائقة لا تقل عن عنايتهم بالتجارة ، وكان من حظ صلاح الدين أن القحط لم يصب البلاد فى أيامه بأى كارثة ، فقد خلت تدوينات المقرئى بكتابه « كشف الغمة » من الإشارة الى أى جذب أو قحط فى عهده ، فظلت الأمطار تسكب فى شتاء الشام ، وظل النيل معتدل القياس فى مصر .

موارد المال :

وكانت الأموال ترد الى خزائن مصر ودمشق والولايات من الضرائب والخراج والجزية ، ومن زكاة الأموال وغنائم الحروب والفتوح وفداء الأسرى ، ومن التبرعات والتطوع والديون التى تفرض .

وقد جلبت من اليمن وعدن وزبيد والاسكندرية أموال ضخمة ، حملها « توران شاه » منها ومن ثمانين حصنا ومدينة استولى على أموالها وذخائرها ، وذلك فضلا عما كانت الدولة العبيدية تدخره من مال وتحف وجواهر فأخذ منها .

وقد كانت لصلاح الدين فى بعض حروبه خطة هى أحد موارد المال ، اذ كان يسرع الى فتح بلاد عدوه وحصونها ويغتنيها فجأة فيستعين بأموالها ورجالها وذخائرها على متابعة الجهاد ، فاذا قضى لباته لم يصعب عليه أن يترك البلد بعد فتحه : يهبه أو يدعه لأعدائه أو طالبيه ، بل قد يتركه لأعدائه متى أحب أن يرضيهم ، ولكن بعد أن يكون قد استصفى منه من الأموال ما قد أصبح من حقه بحكم الفتح .

وزكاة الأموال وعروض التجارة كانت تجمع فى أيامه ولا يتخلف عنها متخلف ، ولكن صلاح الدين نفسه لم تجب عليه زكاة مال فى أى عام من أعوام حياته ، فلم يجتمع لديه نصابها فسقطت عنه (١) ، وقد ذكر ذلك أكثر من مؤرخ من مؤرخيه وعدوها فى حسناته ، ولكن الحاحهم على نسبة هذه الحسنة له جاء دليلا على اهتمام الحكومات حين ذلك بجمع الزكاة واحصائها فى مواسمها .

والجزية كانت مالا يؤديه أهل الذمة فى مقابل ما يؤديه المسلمون من زكاة ، عن كل فرد من أفرادهم تجب عليه الجزية ، كما فرض الاسلام وحدد الشروط ، أما الخراج فهو ما كان يؤديه أهل الفلاحة من أهل الذمة عن أرضهم التى يزرعونها بسبب تملك الدولة لها بحق الفتح .

ونظام الخراج أبقى الأرض فى يد أهل الذمة ، ومنع العرب والمقاتلة من امتلاكها لأنه أبقاها على الخيل والسلاح وأهبة الحرب ، فضعف اتصال المسلمين والعرب بالأرض المفتوحة ، فلما هدأت الحروب وأحل شراء الأرض وبيعها كان أهل الذمة فى كثير من المواطن التى بقوا على أديانهم بها أقدر على العمل فيها فصارت لهم واتسعت أملاكهم ، ويشاهد هذا فى بعض بلاد لبنان ، وفى بعض بلاد الدروز خاصة حين كان الدروز على السلاح والخيل وكان أهل الذمة من الفلاحين .

وكانت هناك ضرائب ومكوس باهظة موضوعة على الناس قبل صلاح الدين وقبل نور الدين ، وقد أثقلت فيها الدولة الفاطمية ووزارؤها أيما أثقال لتجنى حاجاتها ومتارف وزرائها ، فخففها نور الدين وبعده صلاح الدين ، وكذلك فعلا بالمكوس .

وقد أبطل صلاح الدين وحده ضرائب كثيرة مع بقاياها ومتخلفاتها اكتفاء بالخراج أو الجزية ، ولم يخرج — مثل نور الدين — عن حد

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩ .

الشريعة ، ولم يخالف ما كان يشير به الفقهاء فى الجباية ، ولما كانت مصر ترضخ وحدها تحت عبء كبير منها فقد أصدر بالتخفيف عنها أمراً قرئ على المنابر ، وفى نص هذا الأمر ما يدل دلالة واضحة على الشدة التى كان يستعملها الولاة من قبله فى جباية المكوس .

وكان صاحب مكة قد أمر بأن يؤدى الحجاج مكوس مكة مقدماً فى جدة ، فوقع على الحجاج الظلم فيها ، فأبطل صلاح الدين كل هذا النظام ، وعوض صاحب مكة عنها جملة ، فحمل اليه فى كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحا ، واشترط أن تفرق فى أهل الحرمين ، فرفع صلاح الدين بذلك متفرقاتها عن الناس ، وأفاد بجملتها التى أداها من بيت المال أهل الحرمين (١) .

أما التجارة فكانت ما تزال صلاتها قائمة بين الامارات الاسلامية والجمهوريات الايطالية وبعض دول الساحل الشمالى للبحر الأبيض وبلاد الروم ، ولم يؤد اشتعال الحروب بين المسلمين والفرنجة الى وقف هذه التجارة وقفاً تاماً الا حينما كانت تشتد المواقع وتشتعل الاذن والخصومات وكانت أثمان السكر والأسلحة والأزياء والمصنوعات تدر على الشرق أرباحاً طائلة موفورة .

بيت المال :

وقد توزعت بيتوت الأموال فى أيام صلاح الدين بين الأقطار والمقاطعات ، وكان أهمها خزانة المال فى القاهرة وتليها خزانة المال فى دمشق ، وقد تولى أمرها بالقاهرة أبوه نجم الدين ، فكان مقيداً أول الأمر بعض التقيد بأوامر نور الدين ، ثم أطلق منها ما اختار من غير مراجعة أحد حتى صلاح الدين نفسه ، وتولى أمرها فى دمشق « الصنفى بن القابض »

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٨ .

وقد مات أولهما حين جمحت به فرسه ، وطردها عن خزائنه حين بنى لنفسه قصرًا مشيدًا .

وضربت الدنانير صورية ومصرية عاضدية (١) ، ثم ضربت السكة باسم اسماعيل بن نور الدين ثم أزيلت وضربت باسم صلاح الدين ذهبية وفضية ، وكان الدينار الصوري أقل قيمة من الدينار المصري ، وقد ظل خافيا سر ضرب الدولة العبيدية في مصر نقودًا من الزجاج ، وقد ألغاه صلاح الدين وسحبها من الأسواق (٢) .

وقد تأثر بيت مال صلاح الدين بنظرته الى المال ، فقد كان لا ينظر اليه نظرة رجل الدولة المحارب الى مالها ، ولو اقتضت نظرته الشخصية اليه حين يكون في حيازته خاصة لا في حيازة الدولة لهان الخطب ، ولكن النظرة لم تتغير ، فامتنع صلاح الدين المال كله وانفق وأسرف في انفاقه الى حد يكاد يشبه التبديد . ولم يثبت في يده مال وصل اليها ، ولم يمكث غير قليل حتى انتقل الى يد من جعلهم أولى به منه بل كان ينفقه قبل أن يقع في يده ، وسواء لديه ماله ومال الدولة ، فحيث لم يعن بجمعه في خزائنه الخاصة به فانه كذلك لم يعن بجمعه في خزائن الدولة ، ولم يعن بحفظ ما جمع ، وكأنه أيضاً لم يهتم بتدبير انفاقه ، فأصاب صلاح الدين من ذلك بعض الهزائم ، ما في ذلك ريب .

ويقولون : انه اقتدى بعمر بن عبد العزيز حين اجترأ عليه أحد عماله فقال له : انك أخربت بيت المال ! فقال عمر : أعط ما فيه لمستحقه ، فاذا لم تجد ما تضعه فيه فاملأه وحلا ! والحق أن عمر أعطى ما في بيت المال لمستحقه دون غيرهم ، بعد وصفهم وحصرهم ، ولكن صلاح الدين لم يفعل مثل عمر في الوصف والحصر والاحصاء .

على أن عمر لم يكن في المنطقة من يعاديه ، لا من أهله ولا من أعدائه ، غير الخوارج الذين هددوا في مدته وسالموه ، فكانت أيامه كلها

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٣ .
(٢) مظاهر الحضارة المغربية ص ٧٣ .

سليماً ، أما صلاح الدين فكانت دولته في غير الوضع الذي كانت عليه في مدة عمر بن عبد العزيز ، فكانت أيامه كلها حرباً .

وقد عاقب صلاح الدين « الصفي بن القابض » خازن بيت المال بدمشق على تشييده داراً فخمة وكان من جملة أسباب عقابه ، ولكنه أهمل معاينة بعض حراس خزائنه ، وكانوا قد أبدلوا كيسين من الذهب المصري الى كيسين من فلوس أخرى ، فلم يفعل شيئاً سوى أن صرفهم عن أعمالهم (١) .

وأكثر من ذلك تسامحاً أنهم قالوا : حوسب صاحب ديوانه فكانت سياقة الحساب أن سبعين ألف دينار باقية عليه ، فما طلبها صلاح الدين ولا ذكرها ، ولم يرض لصاحب ديوانه بالمطلة فولاه ديوان جيشه (٢) .

الاسراف في العطاء :

وكأحد الجنود الطيبين الذين يدعون الى معركة وفي جيوبهم قليل المال أو كثيره كان صلاح الدين ، فمثل هذا الجندي — وقد دعى للمعركة — ينفق ما في جيبه كله دفعة واحدة اتفاق تبديد ، لأنه لا يدري ! هل يعود ؟ .

تماماً تماماً مثل هذا الجندي كان صلاح الدين ، وكان — لنظره الى المال مثل نظرة هذا الجندي — يراه كالتراب أو أبخس قيمة ، وقد قال صلاح الدين : يمكن أن يكون في الناس من ينظر الى المال كما ينظر الى التراب ! .

هذه فلسفته في تقدير المال ، ومن كانت هذه فلسفته فلن يدخر منه شيئاً : ولكن ما الدافع لاعتناق هذا الرأي والدينونة له ؟

(١) النوادر السلطانية ص ٢٦ — مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٨ .
(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٢٨ .

ليس هناك من دوافع الا أنه جندي مدعو الى معركة ، فهو لا يدري : هل يعود ؟ وصلاح الدين لم يكن سلطانا قد رفل في نعمته ونصب لها راياته وأقام في داره فاذا هوجمت بلاده أرسل لها جيشه ونام في قصره وغرق في أبعثه ، ولا يرى المعركة الا من ثقب منظار يرى من بعيد ، بل كان فارساً ، وفارساً كل سلطانه وعمره على متن جواده ، ماضيا في المعركة أبداً ، فهل يلام على أنه بدد ما كان معه من مال ؟

ان مثل هذا الرجل لا يلام لو أنه كان جندياً غير مسئول الا عن روحه ، ولكن التاريخ دخل في حسابه لأنه رجل دولة ، ومهما أقام أو هاجر ، وحارب أو لم يحارب ، فانه مسئول عن بعض أسباب الهزائم التي كان أولى بالتجربة أن تدفعه عنها .

وقد وجد صلاح الدين من يعتذر عن سرفه ، بل عده من فضائله ومكارمه ، وذلك لأن العاطفة غلبت عليهم كما غلبت على صلاح الدين ، فقالوا : انه بذله في تحبيب الناس ، بل كان بذله أحياناً سبباً في اسلام بعض الفرنجة ، وقد أعطى عطاء سياسياً أموالاً وبلاداً برمتها ، كمثل الذي أعطاه لصاحب أنطاكية بعد فتحها بلا مقابل .

ولكن نواب خزائنه واخوته عذلوا فعله — وان كانوا لم يجسروا على مواجهته بعذلهم — فكان بعض نواب خزائنه يخفون عنه بعض الأموال لئلا يبددها ، وذلك حين رأوه — اذا لم يجد في بيت المال مالا عيناً يعطيه — يبيع منه أشياء ويفرق أثمنها على الوفود .

قال صاحب ديوانه : انهم أحصوا ما وهبه في مرج عكا من الخيل ، فبلغ عشرة آلاف فرس ، وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة ، فلم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به (١) .

وحكى عماد الدين الأصفهاني قال :

(١) النوادر السلطانية ص ١٤ — ذيل النوادر ص ٣١٠ .

سمعت الملك العادل يقول — وقد جرى ذكر افراط السلطان فى العطاء — : أنا توليت استيفاء قطيعة القدس ، فأنفذت اليه ليلة سبعين ألف دينار ، فجاءنى رسوله بكرة وقال : يريد اليوم ما يخرجني فى الاتفاق ، فان الذى سيرت اليه بالأمس قد نفد ، فأنفذت اليه ثلاثين ألف دينار أخرى فى الحال فأثقفها (١) .

ويقولون : لقد تعدى الاسراف العطاء الى الشيد والعمارة ما لا نفع فيه ، فقد عدوا عليه أنه أمر بهاء الدين قراقوش بعمارة سور القاهرة ومصر ، فضيع قراقوش فيه أموالا كثيرة ، ومات السلطان قبل اتمامه ، ولم ينتفع به أحد ، وكانت حال الفسطاط والقاهرة وسقوط مبانيها من حريق شاور السعدى لا تستحق أن يقام حولها سور تنفق فيه الأزمنة والأموال .

ولم يترك صلاح الدين فى خزائنه سوى سبعة وأربعين درهماً وجمعا واحداً صورياً . أما أملاكه الخاصة فلم يخلف وراءه داراً ولا عقاراً (٢) .

تبذير بنى أيوب :

ولم يكن صلاح الدين وحده المسرف وانما كان بنو أيوب جميعاً مسرفين : كان بعضهم مولعاً بشهوته المشروعة كالطعام والشراب الحلال ، ولكنه كان يسرف فيه ، وقد مات شيركوه من تخمة ، كما ارتد « توران شاه » أخو صلاح الدين عن بلاد النوبة دون أن يتم فتحها ، لأنه لم يجدها — فى نظره — تساوى مشقة فتحها ، فارتد عنها ورجع ، وقد رآها لا تفي بحاجاته وما يشتهى .

وترك « توران شاه » اليمن بعد أن فتحها ، وكانت اليمن مملكة كبيرة كثيرة الأموال : تركها لأنه لم يجد بها ثلجاً ولا ممشاً لوزياً ولا

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) ذيل النوادر ص ٣١٠ .

فواكه دمشق ، وقال لرسول صلاح الدين : ليت شعري ! ما الذى أصنع بهذه الأموال ! اذا لم أتنفع بها فى ملاذى وشهواتى ؟ فان المال لا يؤكل بعينه ، بل الفائدة فيه أن يتوصل به الانسان الى بلوغ أغراضه . وعاد الرسول لصلاح الدين بقول أخيه فأذن له فى الرجوع .

وقد مات « توران شاه » هذا وعليه من الديون مائتا ألف دينار قضاها عنه أخوه (١) .

ضرورات العطاء والانفاق :

ويغفر لصلاح الدين بعض سرفه ما كان ينفقه فى العطاء السياسى وتأليف القلوب ، وما كان يعطيه للمتطوعين فى القتال معه — وهما مصرفان لا بد منهما — وقد وضح أن نظام التطوع قد دعا الى أن يكافأ المتطوع فور انتصاره ويعوض عليه فور انهزامه ، فلا ينتظر أجراً منتظماً ، اذ لا يحتمل التأجيل ، ولذلك كثرت عطايا صلاح الدين فى حروبه وشاعت وأذهلت بكثرتها ، حتى طمع فيه العدو وصارت له مطالب من عطاياه أسوة ببقية الناس ، ولم يبخل ، ولكن أفضل ما أعطى وما وهب ما كان من حق المتطوعين .

على أن المال الذى بذله هذا الكريم المعطاء ظل بالمنطقة نفسها ، ولم يتسرب الى خارج البلاد وظل متداولاً فيها ، فلم يكن هناك خوف من اعطائه والاسراف فيه .

أما الشعراء والعلماء فقد جرت الأمور فى العصور الاسلامية بمنحهم كما جرت بمنحهم : أعطتهم عصور وحرمتهم عصور ، فنحن لذلك ترك الكلام عنهم دون أن نحكم بأمر قاطع فى اعطائهم أو منعهم ، والأمر متروك بين يدى ولى الأمر ، حسبما يرى من الحال ، فان رأى اعطاءهم من السياسة أعطى ، وان رأى حرمانهم منع ، فلا لوم ولا تشريب .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٥ .

وزماننا نحن يعطى المطوعة — على قلتهم — حقوقهم ، ولا يسرف
فى اعطاء الشعراء ، كما لم يحرمهم ، فلن تجرى عليه المآخذ التى جرت
على أيام صلاح الدين .

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين قد وجد المال الذى أعانه على
حروبه ضد المشاركة والفرنجة منذ بدأ الحرب : مال السلاح وأجور الجند
وحاجات الرحلة والنقل والحصار والتموين والمكافآت ، وكان معظم هذا
المال من داخل المنطقة نفسها ، ما عدا ما كان من حركة التجارة ، وما عدا ما
كان من غنائمه من المشاركة والفرنجة .

تقسيم المملكة :

ونحن أدرك صلاح الدين أن حياته باتت موشكة على الزوال قسم
مملكته بين وراثيه : فعهد الى ابنه الملك الأفضل على — وهو أكبر
أولاده — بالسلطنة وأضاف اليه دمشق وجنوبى سورية ، وعهد الى ابنه
الملك العزيز عثمان بالديار المصرية ، وعهد الى ابنه الملك الظاهر غياث الدين
ب حلب وشمالى سورية .

وأما الملك العادل : أبو بكر أخو صلاح الدين ، والذى أصبحت
شخصيته أقوى شخصية بعد صلاح الدين ، كما كان ظاهراً فى أيامه ، فقد
عهد اليه صلاح الدين بالموصل والجزيرة وسنجار (١) .

ولكن لم تكد تنقضى سنة واحدة على وفاة صلاح الدين حتى كان
الخلاف قد دب بين أولاده من وراء هذا التقسيم وطمع كل واحد منهم
فى نصيب الآخر ، واستطاع عنهم الملك العادل أن ينتهز فرصة هذا
الخلاف فدخل بين الاخوة يحرض بعضهم على بعض ، ثم استطاع أن
يقضى عليهم واحداً بعد الآخر .

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٥ .

ولكنه استطاع بهذا أن يوحد معظم البلاد مرة ثانية ، وأن يجبر كل أفراد أسرته على الاعتراف بسلطانه وسيادته . كما استطاع أن ينقل عن أولاد صلاح الدين إلى أولاده إمارة ممتلكاته ويوزعها عليهم في حياته — كما فعل صلاح الدين مع أولاده — :

فعهد بمصر إلى الكامل ، وعهد بدمشق إلى المعظم ، وعهد بالجزيرة الفراتية والموصل وسنجار إلى الأوحـد والفائز والأشرف على التعاقب ، فكانوا ينوبون عنه في حكمها .

والغريب أن يعود صلاح الدين عن خطته الأولى فقد كان لا يرضى بتمليك اخوته — كما عرفنا من قبل — وكان همه توحيد البلاد ، فعاد عن ذلك كله وقسم البلاد بين أولاده وأخيه . وكأنه أقصى أخاه حينما أعطاه الموصل والجزيرة لنمو شخصيته وكونه أظهر رجل أيوبى بعده . ولو كان يدرس الغيب أو سار على خطته الأولى لجعل أخاه نائباً عنه وأولاده أمراء له ، وأبقى على البلاد وحدتها دون أن يعود إليها جهد التوحيد من جديد .

وكان أروع ما أوصى به صلاح الدين ابنه الملك الظاهر قوله له :
« أوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك . واحذر من الدماء والدخول فيها والتقليد بها فان الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم فأنت أمين وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد . واحذر ما بينك وبين الناس فانه لا يغفر إلا برضاهم . أما ما بينك وبين الله فانه تعالى يغفره بتوبتك إليه فانه كريم . (١)

هذه وصية يدرك منها طوية صلاح الدين ونية قلبه ، ولكن هذه الوصية شيء وتقسيم البلاد بين أولاده شيء .

(١) النوادر السلطانية ص ٢٤١ .

العلوم والآداب

- التقليد الدينى
- القرآن والحديث
- طريق السنة
- الاصلاح الدينى
- مذهب الشافعى
- الشعر والشعراء
- نظم الموشحات
- اغراض الشعر
- الشعر الهزلى
- النثر المقيد
- العلوم الكلامية
- صناعة الوعظ
- علم الطب
- الحيل والهندسة
- الفنون
- المناظرات والرحلات
- دور الكتب
- حركة التأليف
- الاختراع والاقتنان

التقليد الدينى :

كان للتقليد المتبع فى العصور السابقة والمنسوب الى الدين اعظم السلطان فى النفوس : فكان مقام الخليفة مرموقاً فى نظر العامة ، فيرجع اليه فى الأمور الجسام تقليداً وجرياً على العادة وترضية لشعور الناس ، ولم يكن تباطؤ صلاح الدين أول الأمر فى الاستجابة لنور الدين بخلع العاضد ونقل الخطبة للمستضىء الا حساباً لذلك الشعور، بل ان منصب كل أمير فى الدويلات والمقاطعات كان يجب أن يستند الى مؤازرة الخليفة واستصدار تقليد منه واستمرار الاتصال ببلاطه .

وفشت — تقليداً كذلك — فى الأسر الكبيرة الألقاب المذيلة بكلمة « الدين » فأضيف إليها كل اسم ذى دلالة معنوية أو حسية لتصير لقباً : كصفى الدين ونور الدين وجلال الدين ، أو حسام الدين وسيف الدين وشمس الدين ، وكذلك الاضافة الى كلمة « الدولة » ، ولكن الأول شاع شيوعاً كبيراً فى البلاد الاسلامية بحيث لم تترك كلمة فى اللغة تضاف الى كلمة الدين وتؤدى معنى شريفاً الا أضيفت وصنع منها لقب .

ومن لطيف الاشارة بالهجاء الى هذا التقليد وهذه الألقاب قول الشاعر ابن عنين :

صعد الدين يستغيث الى الله — وقال : الأناام قد ظللتونى (١)
يتسمون بى وحققك لأعرف شخصاً — صا منهم ولا يعرفونى

القرآن والحديث :

ولكن التدين الحق كان حقيقة ماثلة فى كثير من الدارسين والعلماء والزهاد والطلاب ، ولم تخف عناية المسلمين بقرآنهم وتفسيره وتأويله ،

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٠٩ .

بل ان هذا العصر كان عصر الزمخشري المفسر وان لم يكن من بلادنا ، وكذلك كثر الحفاظ في كل بلد .

ومع هذه العناية التي كانت طرداً للأزمة السابقة فقد أضاف صلاح الدين للعناية بالقرآن يدا مشكورة : فقرب الحفاظ منه ولو كانوا صغاراً ، وأحب السماع لكبارهم ، واستقرأ المجيدين منهم في مجلسه ، فكثر القراء .

وقد أعطى مجلس القراء حقه ، فتبعه الناس : فكان اذا سمعه خضع قلبه ودمعت عيناه فخشعت قلوب الناس وبكت عيونهم .

واهتم عصر صلاح الدين كذلك بالحديث واسناده ، فكان في كل بلد مسند للحديث يروى عنه الناس ، وقد سمع صلاح الدين لرجاله وسعى اليهم وقربهم منه ، وأجلس أولاده ومماليكه في مجالسهم ، وقرأ بنفسه كتب الحديث ، واستفسر المحدثين واستنسب أهل الاسناد (١) .

وقد عرف أن مسند مصر والاسكندرية في زمانه كان هبة الله على ابن مسعود البوصيري سيد الأهل ، وقد تولى تربية الملك الأفضل على بن صلاح الدين ، وأجاز له هبة الله سيد الأهل ولغيره من المصريين (٢) .

طريق السنة :

ومنذ كان صلاح الدين ناشئاً اتصل بمشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء الذين لم يخلطوا آراءهم بآراء الفلاسفة ولم يلوثوها بآراء الملاحدة وأعداء الشريعة ، وقد تلقى اذن عقيدته حسنة صافية ، فكره أشد الكره أولئك الذين خرجوا بآرائهم عن الصواب والتقليد .

هذا ما قاله وصاف عقيدة صلاح الدين ، ولكن تنحية آراء الفلاسفة في عصره كان أمراً صعباً لا سبيل اليه اذ كانت الفلسفة اليونانية

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٦ ، ١٠٣ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٩٥ .

وتأجها من الفلسفة الاسلامية قد خالط النفوس فصدرت عنه الحجج والأدلة ودخل كأنه الملح فى كل كلام ، والأصلح اذن أن يقال ان صلاح الدين قد كره المصارحين بأرائهم فى معاندة الفقهاء وطريقهم المعتدل السليم .

ومع أنه استوزر للعاقد الفاطمى وتبعه مدة فانه لم يتعد عن استمساكه بما نشأ عليه ، فلم يمارس أحداً من أهل التصوف والفقهاء والدين غير رجال السنة (٣) ، وكان غضبان أسفاً لما صار عليه الباطنية من خروج حتى اصبحوا أحاديث الناس ومثار الفتاوى وموضوع المؤلفات ، فكان من البديهى أن يحارب مذهبهم وأن يقضى عليهم ، وقد تم على يده ما أراد اذ لم يمض شهر واحد أو شهران على وزارته لمصر حتى انقلب البلد كله فصار سنياً .

وتلقى صلاح الدين عقيدته على طائفة من أجل علماء زمانه : تلقاها على قطب الدين النيسابورى الشافعى عالم دمشق ، فجمع له كل ما احتاج اليه فى بابها ، فحفظه وعلمه لأولاده ، وكان يجلس منهم مجلس المعلم والأب قليل التصنع مطرحاً للتكلف .

وتلقى أركان الفقه على سليم الرازى ، فصنف له مختصراً يشتمل على أركان الفقه الأربعة ، كما تلقى عليه فريضة الجهاد ، فصنف له فيها كتاباً تعلمه وعلمه لأولاده .

وجمع له بهاء الدين بن شداد كتاباً فى الجهاد يجمع أحكامه وآدابه ، فقدمه بين يديه ، فأعجبه ولازم مطالعته .

وصنف له ضياء الدين القناوى كتاباً فى السياسة يدعى « تهذيب الواعى فى اصلاح الرعية والراعى » .

(٣) وفيات الاميان ج ٦ ص ١٥٢ .

وجمع له آخرون من العلماء آيات الجهاد والحرب وكل حديث روى فيها ، وكما كان يقرأها ويتأدب بها أقرأها أولاده وأدبهم بها ، وبدأ بابنه الأكبر الملك الأفضل على فقرأها وتعلمها (١) .

وقد صارت لصلاح الدين جرأة على التكلم فى الفقه ، بل انه كان يكتب للقاضى الفاضل ، والفاضل بمصر ، يذكر له فى كتبه مسائل من الفقه وأخباراً عن بعض الفقهاء .

ولم يقتصر تدنيه على العلم بما درس واطلع ، ولكنه عمل بما علم فالتزم آداب الفرائض : أما الصلاة فقد أثر الجماعة وأكثر من السنن والتهجيد . وأما الصيام فما فاته من أيامه قضاءه أو أدى عنه الفدية اذا عجز عن القضاء . وأما الزكاة فلم يجتمع لديه طول حياته نصابها . وأما الحج فقد نوى ثم لم يوفق . وأما آراؤه فلما كان متشبعا بالمبادئ الدينية الخالصة فقد كان خليقا أن يقود المسلمين زعيما فى حروب مقدسة ، وأن ينحاز اليه المسلمون . وقد تأثر به أهل زمانه فأقبلوا على الفرائض ، وكثر الزهد حتى بين النساء ، واشتهرت به زاهدات فى مختلف البلدان ، وكان منهن من بلغ مرتبة رابعة العدوية (٢) .

ولم يكن صلاح الدين بالرجل المتعصب ، بل كان يقبل الأوامر الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، فلما رأى الفساد الدينى قد بلغ غايته أبطل مذهب المتطرفة المشقوق من الاسماعيلية ، ولم يكن هؤلاء بالامامية ولا الزيدية اللذين هما على الملة ، ولكنهم كانوا ملاحدة يبطنون غير ما يظهرون كما وصفوا من قبل فى هذا الكتاب .

واستقامة صلاح الدين فيما هو أدنى من ذلك كانت واضحة ، فلم يكن يحب السفه ولا التزيد ، ولم يكن يقبل المباحكة ولا التبرج (٣) ،

(١) وفيات الاعيان ج ٢ ص ٢٥٧ ، ج ٤ ص ٢٨٣ - فوات الوفيات ج ١ ص ٤٠٨ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٦ - النوارى السلطانية ص ١٧ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٥ .
(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٨٨ ، ٤٢٩ .

ويعاقب عليه بأشد العقوبات . كما خلت حياته من الخضوع لأباطيل المتخرصين بالتنجيم ، ولكنه كان يتفاعل ، وقالوا : انه اصطحب في فتح بعض حصون الشام رجلا كان على مدينة الرسول تيمناً بصحبته ، وكان يستشيريه ويرجع الى قوله (١) .

ومن كرمه صلاح الدين للتزيد والتبرج طرد خازن ماله الدمشقي عن عمله حين بنى داراً مشيدة وزخرفها على شرف في دمشق ، مع أن الصفي نصر الله بن القابض خدم السلطان لما كان على شحنة دمشق أيام نور الدين (٢) وأمدّه بلال فحفظ له السلطان يده ، ولكنه عزله حين انحرف وتزيد .

وأنكر صلاح الدين على العماد الأصفهاني كاتبه دواةً اتخذها محلاة بالقضة ، فجعل العماد يسوق من أقوال الفقهاء ما يحلها ، فلم يقبل صلاح الدين له دليلاً ، فأمسك العماد عن الكتابة بها (٣) .

وكان العماد الكاتب شديد التهافت على الذهب ، ينزع الختم المذهبة التي تأتي على كتب الفرنجة ويأخذها ، فوصل ذات مرة كتاب وكان العماد غائباً ففضه السلطان ، فأخذ بعض الحاشية الختم ، فلما طلب الى العماد أن يكتب جواب الكتاب امتنع قائلاً : يكتب جوابه من أخذ ختمه ، فعز قوله على صلاح الدين وقال له : قم اخرج ، فليس الوقت محتاجاً إليك ! فخرج الى أن أصلح بينهما القاضي الفاضل (٤) .

وشهد « نجم الدين الخبوشاني » ضد العاضد وضد دولته وخطب ضدهما ، وصرح بتعداد مساويهم حتى سلب الايمان عنهم ، وكان هذا الشيخ صوفياً يصوم ويفطر على خبز الشعير ، قد أظهر التصوف واشتهر

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٥ .

(٢) ديوان ابن عنين ص ٢٠٦ هامش .

(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٣٨ .

(٤) كنوز الأجداد ص ٣١٦ .

به ، فلما مات موجدت له ألوف الدنانير قد جمعها ولم ينفقها في انصباة
ذوى الحقوق كما كان على الصوفى أن يفعل ، فلما بلغ ذلك صلاح
الدين أسف له وقال : يا خيبة المسعى (١) !

ولقد أثر سلوك صلاح الدين هذا المسلك المعتدل الممدوح في كثير
من رجال الدين في أيامه ، فصاروا يتلاومون بالاقبال على الطعام
واللباس (٢) .

أما كراهيته للالحاد والغرور فقد استشار الفقهاء في أمر رجل شاع
أنه معاند في حلب ، فأفتى الفقهاء بقتله ، فأمر صلاح الدين ابنه الملك
الظاهر وكان على حلب — بتنفيذ فتوى الفقهاء ، لأن الرجل قد اغتر بما
قرأ وعرف من كتب الحكماء والفلاسفة فغلب على عقله فتخرق ولم
يتزن . ويروى الآمدى قصته فيقول :

اجتمعت بالسهروردي في حلب فقال : لا بد أن أملك الأرض ،
فقلت : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت في المنام كأنى أشرب ماء البحر .
قلت : لعل ذلك يكون اشتهار علمك ، أو ما يشبه هذا . قال الآمدى :
فرايته لا يرجع عما وقع في نفسه ، ووجدته كثير العلم قليل العقل (٣) .

ويبدو من هذه القصة أن قتل السهروردي الفارسي المهاجر الى حلب
كان سياسياً ودينياً : اذ قصته أشبه بقصة ابن مهدى اليمنى ، ومهما كان
سبب قتله بأنه قال بالفلسفة الاشراقية بعد أن اطلع على فلسفة أرسطو
وأفلاطون ، والأفلاطونية والفيثاغورية الجديدين فأثارت أقواله شكوك
علماء السنة فزعموا أنه يمثل عقيدة القرامطة (٤) فانها الحادثة الوحيدة
من هذا النوع لصلاح الدين ، واثمها على الفقهاء ، ولم يتعرض بعدها
لحرية الرأي الدينى ما دام في نطاق السنة من غير تزيد ولا غرور .

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٧ .

(٣) ذيل النوادر ص ٣٠٣ .

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٤ .

الاصلاح الدينى :

وحين قام صلاح الدين بإبطال مذهب واحلال مذهب آخر مكانه بانقلاب سريع ، كان كمن قاموا بحركة اصلاح دينى ، ولكنه لم يكن عنيفاً ، ولم يخرج عن أحد مذاهبه ، لأن الاسلام لا يقبل اصلاحاً يتناول جذوره ، لأنه واسع حر ، وفيه لكل من أراد أن يجد غنى ووفرة وحياة . وذلك يتمثل فى طريقة الأشعرى حين شعر بالخلاف الذى اتسع مداه بين مبادئ المعتزلة وروح الاسلام فكافح الاعتزال والفلسفة والفرق الضالة بالاستدلال الجدلى والبرهان المنطقى مع الاعتماد كله على القرآن والحديث . فكانت طريقة الأشعرى توافق مزاج صلاح الدين .

مذهب الشافعى (١)

لقد نشأ صلاح الدين فى حكومة نور الدين وكانت تتبع مذهب أبى حنيفة ، بل ان موطنه الأصلي بالعراق وهو مهد ذلك المذهب ومجتمع أصحابه ، وكان أولى به أن يتخذه ، ولكنهم قالوا : انه مال الى مذهب الشافعى واتخذه ليمتاز بمذهب غير مذهب السلاجقة والأتابكة .

هذه علة بعض من أراد من المؤرخين أن يذكر سبباً لما فعل صلاح الدين من انقلاب ، ولكن الأمر أخطر مما قالوا : فان صلاح الدين — ولم يكن اماماً ولا فقيهاً فى الدين — وقد كان أعلى هدفين له أن ينصر مبدأ السنة وأن يحارب الفرنجة — قد نظر نظراً أصيلاً فرأى مذهب الشافعى قد صمد فى مصر والشام لمذاهب الباطنية دهراً طويلاً ، فاتخذه لئلا يعنف الانقلاب ويبرم الناس .

والشافعى نفسه قرشى يفضل فقه أهل المدينة وهو ما يقول به امامية الشيعة . وكان على صلة بكثير من أهل البيت رجالهم ونسائهم وكان يفرق

(١) انظر كتاب آداب الشافعى ومناقبه لابن أبى حاتم .

بينهم وبين المتطرفين من اتباعهم ، فحلول مذهب لا يقوم على صاحبه
اعتراض كبير لأنه متطرف في حبه لآل البيت ، ينفي عنه كثيرا من اللوم .

ومع أن معظم أساتذة صلاح الدين كانوا من أتباع الشافعي فإن
المذهب ذاته كان أقرب لخلق صلاح الدين وطريقته ، اذ يستند المذهب على
الكتاب والسنة والقياس ويكره الرأي والكلام ومعاشرة أصحابهما ، وكان
الشافعي يقول في المتكلم : لو رأيته يمشى على الماء لا تثق به ، وإن رأيته
يمشى في الهواء فلا تركزن اليه . وهو رأى الأشعرى وطريقته .

أما مذهب مالك فالشافعي تلميذه ، وأما ابن حنبل فالشافعي أستاذ
فهو وسط بين الرجلين والمذهبيين ، كما هو وسط بين حنبل والحديث
على طريق واحد كما يجلس الشيعة ، وبين أهل الرأي الذين أطلقوه .
وكان الشافعي أقدر الفقهاء على الرد على هؤلاء حتى شهد أهل العراق
من أتباع أبي حنيفة بأن احتجاج الشافعي بالقرآن والحديث غلب أهل
الرأي ، لذلك كله أخذ صلاح الدين طريقه الى مذهب الشافعي .

وسمح صلاح الدين لمذاهب السنة أن تسير بجانب المذهب الشافعي ،
حتى قالوا : انه لم يتعصب لمذهبه ، والحق انه لم يتعصب له بحيث يلغى
ما عداه ، ولكنه تعصب له كي يسود : فقد فتح له المدارس وجعل معلميه
من أتباعه ولم يسمح لغير الشافعية بالتدريس بها ، ولما عزل قضاة الباطنية
ولى مكانهم قضاة الشافعية ، ولاهم في كل انحاء مملكته ، وبنى مدرسة
عليها لمذهبهم ، وفوض الافتاء الى شرف الدين بن عسرون وكان رئيس
أصحاب الشافعي في زمانه (١) .

ولم يلبث أتباع هذا المذهب والجيل الذي نشأ بعدهم أن تشبعوا
بالمبادئ التي أراد صلاح الدين أن ينشرها حوله فسادت وانتشرت (٢) .

(١) روضة المناظر ص ٧٧ .

(٢) تاريخ العرب لسيدىو ص ٢٦١ .

وكان الشافعي قد قال : « خلفتُ بالعراق شيئاً يسمى « التغير »
وضعته الزنادقة ، يشغلون الناس عن القرآن » — والتغير : التهليل
وترديد الصوت بالألحان في حلقة الذكر مع الضرب والتوقيع بالقضيب
ونحوه — فأبطلها صلاح الدين ، ولا سيما تلك التي كان يعملها الحاج في
عرفات .

الشعر والشعراء :

والشعر — كان ولم يزل — ديوان العرب ، وقد تسابق الناس في
أيام صلاح الدين الى حفظ قديمه ليوقدوا منه نار جديده ، فنهضت
الطبائع بما أرادت من القول ، وأضاءت الخواطر للمعاني ، وهدت القرائح
الى الطريق .

ونحن في عصرنا — ولا سيما في مصر — عن هذا الشأو مقصرون ،
ما عدا شعر الأغاني ، والدارج منه على الخصوص ، أما في الشام فقام
به شعراء لم يبلغوا أمثالهم أيام صلاح الدين .

وقالوا : ان صلاح الدين كان يتمثل بشيء من الشعر ، ثم قالوا :
انه كتب في واحدة من رسائله بيتين اثنين ، وذكر ابن الأثير أنه كتب
في صدر كتاب لأخيه « توران شاه » يصف فيه وقعة هزم فيها من
الفرنجة بيتاً يقول :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقة السمر (١)

وهذا أمر لا يفيد أن له ملكة شعرية ، ولكن المفروغ منه أنه كان
يفهم الأدب والشعر ويكتب بيده الرسائل ويمليها ، ويرعى الشعراء
والكتاب ويجعل منهم خاصته ووزراءه ، وحسب الناس أمثلة على ذلك أن

(١) روضة المناظر ص ٨٣ .

يذكروا بعض من حواليه من أدباء الكتاب كالقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن شداد وأسامة بن منقذ .

وقد كثر الشعراء المجيدون في أيامه لتشجيعه لهم وسماعه منهم واجزاله في أعطيائهم ، ولا سيما في دمشق اذا رجع اليها بعد غياب أو جلس فيها غب انتصار ، وهو طبع أهل الشمال الذي لم يزالوا عليه ، وكما كانوا مع صلاح الدين رائد الأمس صاروا مع عبد الناصر رائد اليوم .

ومن لم يكن شاعراً في عهد صلاح الدين قال بعض المقطعات وعد نفسه شاعراً ، أو نخله لنفسه ، ولم يقتصر قرض الشعر على الرجال فقرضته النساء (١) .

وجرى الشعر وراء أغراضه القديمة ، ولكنه اشتعل في الحماسة اشتعالاً يضيف الى هذا الباب في العربية ذخيرة حافلة وديواناً ضخماً ، كما أنه شق باباً جديداً فوصف مدن الفرنجة في الشام أيام كانت معهم وكانوا يبنون قصورها ويرتبون خططها كأنطاكية ، وقد فتح وجود نساء الفرنجة حاسرات بين العرب باب الغزل بهن فجرت فيه صفات لم يكن قال فيها شعراء العرب من قبل (٢) ، كما أنه سلك طريقا افتناناً في الإقافية يدل على خاطر متوقد وصنع عجيب ، ونظرة الى رسالة أسامة بن منقذ لصلاح الدين بالشعر تدل على مقدار ما يستحقه الشاعر من اعجاب (٣)

نظم الموشحات :

وأدخل ابن سناء الملك الى المشرق فن التوشيح متأثراً بالأندلس والمغرب ، لشدة امتزاج الناس وآدابهم في ذلك الزمان ، ولا سيما في

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٦ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦ .

(٢) انظر خريدة القصر للعماد الأصفهاني .

(٣) انظر خريدة القصر للعماد الأصفهاني ص ٥٤٥ .

دمشق ، فقد كانت الرحلة اليها والى المشرق مقصد علماء المغرب وشعرائه ورحالته .

وقد حدد ابن سناء الملك فى كتابه « دار الطراز » قواعد الموشح وبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه حتى مُحسب فن التوشيح علماً دقيقاً ، وقد أوضح ابن سناء الملك أن الموشح مع كثرة قيوده انما هو انطلاقة لذلك العصر من قيود القصيدة ، وخروج عن موسيقاه وأزانه المكسوبة الى موسيقى اللحن ونغمات الوتر (١) .

ويبدو أن الشرق كان قد مُتن بموشحات المغرب التى كان يدل بها عليه ويتيه ، فبدأ ابن سناء الملك يضع لها الأصول ويميل اليها النفوس .

وبعد ، أفليست هذه لغة عصرنا نحن فى الشعر ولغة المجدين ورأيهم فيه ؟ وشعر المقطعات الغنائية على الأخص ؟ فاذا كان ابن سناء الملك قد فرغ الى التجديد ورتبه فناً وضع مقاييسه وموازينه ، فكأنما كان يرتب لزماننا ويضع العروض لشيء من شعرنا وموسيقانا .

الشعر الهزلى وشعر الهجاء :

ولم يخل عصر صلاح الدين من شعر هزلى كان يُنشد للتخفيف من حدة الحروب وشدة الأهوال والأمراض ، وقد أوردنا مثلاً له من شعر عرقلة فى زلزال حماة ، ويقولون : ان بعض اخوة صلاح الدين كان له شعر منه (١) .

ونقند الحكام باللفظ الجارح فى الشعر لم يبطل حين ذلك ، ولكن لما كان منافياً لاستقامة صلاح الدين وطبعه فقد طرد الشاعر « ابن عثنين » من البلاد حين تعرض للوزراء والكبراء بالهجاء المقذع فى قصيدته

(١) دار الطراز ص ١١ ، ١٣ ، ٢٤ .

(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤٤ - النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٦ .

« مقراض الأعراض » ، وقصائد أخرى ولم يعد الى دمشق الا بعد موت صلاح الدين (١) .

النثر المقيد:

وصناعة النثر فى ذلك الزمان أشهر من أن تعرف ، فطريقة القاضى الفاضل وابن العماد لم تزل معروفة ، والرسائل والمقامات لم تزل ذات شهرة قيمة ، وهى وثائق تاريخية هامة للحوادث وحياة المجتمع وعقله وعلمه ، الا أن تقييد الكلام كان سابقة خطيرة من بديع الزمان والحريرى وأبى العلاء ومدارسهم التى انبثقت عن طرائقهم ، وقد انصرفت هذه السابقة الى ادراك اللذة من قوة الحفظ ومهارة التطبيق فأطفاأت لمعة المعانى وحرارة التعبير . وقد نبغ على هذه المدارس القاضى الأحذب والعماد الأصلع فأثقلوا على كبد اللغة بأعباء لا تطاق ، وانصرفا عن ملاهى الحرب الى القيد اللفظى الثقيل ، ومن الغريب أن قدرتهما أبعدت كل تقدير عن الديوان لأنه ليس من حلبتهما ولا يستطيع أن يشق غبارهما . والناس فى الحروب والكروب تنأى طباعهم عن الصنعة والصعوبة ، ولكن يبدو أن بطء ذلك العصر وفراغه الا من الساعات الحاسمة فى القتال هو الذى أطلق خواطر الأدباء الى هذا التقييد الذى هو فى عصرنا شئ لا يطاق .

ومن حيث سلك الفاضل والعماد طريق الجد كان للنثر الهزلى المقيد بالسجع واللزم كتاب آخرون ، وقد احتسرف الأدب الهزلى أدباء منهم « جمال الدين بن محرز » قيل انه قدم من وهران الى مصر ، فلقى القاضى والعماد وتلك الحلبة ، فرأى أنه ليس من طبقتهم ، فعدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل ، وعمل رسائل فيه سماها « المنامات » (٢) .

(١) ديوان ابن عنين ص ١٧٩ ، ٢١٠ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٩ .

العلوم الكلامية :

وشاعت العلوم الكلامية وسبقت ، وهو ما جرى عليه المشرق من قديم ، فدرس التفسير والحديث والنحو وأصول الدين والخلاف (١) ، وقد كتب السلطان ببعض مسائل الفقه وأخبار الفقهاء للقاضي الفاضل كما أوردنا من قبل ، ولكن السلطان لم يكن يعرف غير العربية ، وكذلك كان جل أصحابه ، فيما عدا العماد ولا سيما في الفارسية ، وقد احتاجوا دائماً الى الترجمة واستعانوهم واستخدموهم ، وكانوا في غالبهم من غير المسلمين ، ولذا كان من شروطهم عند كل صلح أن يجدوا المترجم الأمين .

صناعة الوعظ :

وكان من ترتيب كتابنا أن يتقدم الكلام عن هذه الصناعة فيكون عند الكلام على التقليد الديني والمذاهب ، ولكنه تأخر الى هنا لمناسبة الصناعة اللفظية في النثر ، فجئت به وراءه لاتصاله بصفة الكلام .

وقد اتخذ ناس " من ذوى القدرة على الكلام فى ذلك العصر صناعة الوعظ ، وكان الواعظ البليغ يتكلم عفو خاطر من غير اعداد ، ثم يجتمع كلامه ويحفظ (٢) . ومن الذين اشتهروا بالوعظ والبديهة والحفظ « نجم الدين الخبوشانى » الذى تقدم ذكره فى فتوى خلع العاضد : كان يملئ الكتاب من خاطره اذا فقد : قد أتقنه حفظاً (٣) .

-
- (١) الخلاف : هو احتجاج كل اصحاب مذهب لمذهبهم بأصول وارادة لا آراء عقلية يستنبط منها ما يلزم عنها .
(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣١ .
(٣) وفيات الاعيان ج ٣ ص ٢٧٤ .

علم الطب :

علم الطب يسمونه علم الدنيا أما علم الدين فهو الفقه وما شاكله ، وكانت حلب أيام صلاح الدين بلد الأطباء يجيئون منها ، وقد لحق به منها بعضهم فى جران وأماكن أخرى كان قد مرض بها (١) .

ولم يكن يتناول الأشياء الصغيرة المعروفة فى زماننا كالفصد والحجامة وصناعة الكحل غير قوم لهم علم" بالطب والصيدلة ، فكان الفصد من الطب (٢) وصناعة الكحل منه ، فلا يكتحل بشيء لم يتول أمره أهل العلم بالدواء ، وقد تخصص فى صناعته الشريف الكحال المصرى سليمان بن موسى (٣) ، وأبو الفضل ابن الكحال .

وقد اتصلت صناعة الطب بالبيمارستانات التى أنشئت ، وفيها جرت تجاربه ، وبالصيادلة الذين ألقيت عليهم مسئولية صلاح الأدوية للعلاج . واتصل بصلاح الدين من الأطباء الموفق بن المطران الطبيب ، كان نصرانياً فأسلم (٤) ، وقد أنشأ تلاميذ ابن المطران فيما بعد مدرسة للطب فى دمشق ، وعبد المنعم الجياني وكانت له عيادة (حانوت) بالبلاطين لصناعة الطب ، وقد رعى صلاح الدين له حقه ، وكان الجياني يعانى أيضاً صناعة الكيمياء (٥) ، وبعض هذه الصناعة يخدم تحضير الدواء ، ورضى الدين ابن حيدرة الرحبى (٦) ، وهبة الله جميع الاسرائيلى (٧) وابن ميمون (٨) .

-
- (١) النوادر السلطانية ص ٥٦ .
 - (٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧١ .
 - (٣) معجم الادباء ج ١١ ص ٢٥٩ .
 - (٤) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ .
 - (٥) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٣ .
 - (٦) رضى الدين يوسف بن حيدرة الرحبى كان من كبار الاطباء وقد هجاه ابن عنين - ديوان ابن عنين ص ١٧٩ .
 - (٧) المنجد حرف الهاء .
 - (٨) تاريخ العرب المطول ص ٧٨٣ .

وقد أخذ على المسلمين في ذلك الزمان وغيره انصرافهم عن علوم الدنيا الى علوم الدين وهو ما لم يأمر به دينهم ، فتخلفوا وتركوا أمور دنياهم وأبدانهم في يد غيرهم ، وكان استعلاء المسلمين في السياسة والسلطان يجعل أولئك في خدمتهم ، ولم ينفرد عصر صلاح الدين بذلك بل أشبهته عصور اسلامية كثيرة ، كانت فيها علوم الدنيا في الدرجة الثانية بعد العلوم الكلامية وعلوم الدين .

الحيل والهندسة :

وسمى علم الهندسة اذ ذاك بعلم الحيل ، وقد بلغ روعته أيام صلاح الدين ، ولا سيما ما اتصل منه بهندسة القلاع والأسوار ونقل أحجارها ونحتها وعمل آلاتها والاتفاق عليها ، وكان من أعظم مهندسي القلاع في عصره الملك المظفر تقي الدين أخوه (١) »

الفنون :

ولم ينفصل الفن الأيوبي عن الفن الفاطمي بل كان امتدادا له ، لما لم تنفصل مصر عن الشام فيه ، فكأنتا فيه ذات طابع واحد ، ومن غير الممكن افراد أيام صلاح الدين ذاتها في هذا الباب عن العصرين من قبله ومن بعده الا في أشياء قليلة ، فمن النحت على الحجر والجص ، والحفر على الخشب والعظم والعاج ، وصناعة التحف المعدنية والخزف والزجاج والمنسوجات والأبسطة كانت كلها في الدولة الأيوبية امتدادا لما كان في الفاطمية قبلها .

وبعض الأبنية كان ذا نمط عمراني متفرد بذاته ، كتربة أم الملك الأفضل على زوج صلاح الدين ، وقد قيل : لن جميع بناء هذه التربة له شأن (٢) .

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٣ .

(٢) الآثار الاسلامية في حلب ص ٧٨ .

وفى زمن صلاح الدين ذاته ظهر ابتداء مهم فى الفن الاسلامى بمنطقة ، وذلك أنه أدخل الى مصر رسم المسجد الكلى المصلى ، وهو من أصل أسوى ، فقام بالتدريج مقام رسم المسجد القديم ذى الأروقة (١) ولم يبق من الآثار راجعا الى عهد صلاح الدين سوى ما بنى فى عهده من قلعة القاهرة وجزء من أسوار مدينة الفسطاط . كما أنه يوجد بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة قطعة من تابوت قبر الامام الشافعى ترجع الى سنة (٥٧٤ هـ - ١١٧٨ م) وهو عصر صلاح الدين نفسه .

غير أن هناك ملاحظة جديرة بالالتفات فى الزخرفة الأيوبية ، فقد زاد الاهتمام فيها بوحدات النبات (٢) ، ومن الممكن أن يعزى هذا الاهتمام الى عناية الأيوبيين بالزراعة التى ما كان يمكن أن تزدهو بغير الاهتمام الموصل بنظام السقى والرى عناية فائقة (٣) ، وهذا سر اهتمام أهل الفن فى الدولة الأيوبية بوحدات النبات .

وكانت الدولة الفاطمية قبلها تهتم فى زخارفها بوحدات الحيوان من الطياء والأسود وغيرها ، وقد تأثر صلاح الدين بهذا فاتخذ النسر رمزا لرايته وقوته وسرعة انتفاضه .

المنظرات والرحلات :

وحفلت الأندية والمجالس والمساجد وخيام الحرب وميادينها بمحاورات العلم والأدب ، فتعلم منها صلاح الدين المناظرة السمحة عن فهم ووعى وحسن ادراك ، وإن لم تكن بألفاظ المناظرين وعباراتهم المرسومة واصطلاحاتهم الموضوعية .

(١) مجالى الاسلام ص ٤١٦ .

(٢) انظر كتاب الفنون الاسلامية فى اثناء كلامه فى الأبواب المختلفة من الفن فى العصر الأيوبي .

(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٤٠ .

وتراسل العلماء والأدباء بمناظراتهم كما تحدّثوا بها ، ومن أشهر تلك المراسلات ما كان بين القاضي الفاضل وابن سناء الملك (١) .

ولم تعق الحروب الحادثة رحلة الناس من مكان الى مكان ، فانساح الناس لطلب العلم والحديث والفقه والأدب والنحو والطب ، وأنت دمشق وفود الطلاب من كل فج (٢) . وكانت آفاق الأرض حين ذلك مفتحة الأبواب ، قد اتصلت مصر بالشام والعراق وخراسان والمغرب ، والمسافر في هذه البلاد لا يصده أحد ولا تحجزه حدود ، وكان التاجر والمسافر في مدة سفره يتلقى العلم حيث نزل ، وكأنه ضرورة كالطعام والشراب ، لأن المسافر يقصد المساجد الجوامع لا محالة ، فيجد فيها علوم الدين والأدب والشعر والحكمة فينهل منها ما يناسبه وما يشاء (٣) .

وكانت المجالس تعقد والندوات تجتمع ، وكأنها أيامنا أو أكثر ازدهارا ، فاذا نزل القاهرة شاعر دمشقى أو نزل دمشق شاعر قاهرى اجتمع الشعراء لديه وأبقوه عندهم زمانا قبل أن يتمكن من الرجوع الى بلده ، فيتمتع الناس بأدبه كما يستمتع هو بضيافتهم واکرامهم (٤) . ومثل هذا حادث فى زماننا فى المؤتمرات جامعة أو ضيافات فردية ، وضرب الأمثلة له شئ يطول ، فانه لا يكاد يمر موسم من مواسم العام دون أن تعقد هذه المؤتمرات ويسافر بين البلدين والاقليمين كثير من الكتاب والأدباء والعلماء والشعراء . وذلك قبل الأحداث السورية الشائنة التى حدثت بعد الانفصال المزعوم .

وحسبنا أن نضرب مثلا باكرام مجالس القاهرة فى أيامنا لكثير من أدباء الشام ، واکرامها لرشيد سليم الخورى الشاعر القروى اللبنانى المهجرى فان الجمهورية العربية المتحدة قد أقدمته اليها وكافأته على

(١) دار الطراز ص ١٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧ .

(٣) انظر معجم الأدباء ج ١١ ص ١٩٢ : ترجمة التاجر سعد الحرانى .

(٤) دار الطراز ص ١١ .

قصائده « الوطنيات (١) » بأن جعلت له مرتبا شهريا ، وكذلك كانت تفعل دمشق فتكرم أدياء القاهرة وشعراءها اذا وفدوا اليها .

وقد امتازت الحلبة التي أحاطت بالرائد العربى اليوم بالانكباب على العلم وحل أمور الدولة الحديثة على أضوائه ، ووراء هؤلاء طوفان من البعثات العلمية تقد الى معظم الدول المتقدمة فى العلوم لتضمن للدولة غدها كما ضمنت يومها وهو مايفوق — بلا جدل — عصر صلاح الدين .

وحسبك ما تقدمه اليوم وزارات الأوقاف والثقافة والتعليم من تشجيع للعلم والعلماء والمتعلمين فى شتى بلاد المسلمين .

وضرب المثل بما هو حادث اليوم معجز ، فانك ترى الوزراء الناصريين جميعا مشغوفين بالعلم منكبين عليه حتى أن بعضهم انكب على دراسته حتى حاز على شهادات عصرنا ، ولا ضرورة لذكر الأسماء فالأمر مائل معروف .

دور الكتب :

وكانت قد قامت بالعالم الاسلامى دور كتب لا مثيل لها ، ومكتبة القصر العاضدى بالقاهرة ومكتبة حلب كانتا تجمعان فرائد الكتب وغرائبها . وقد امتازت مكتبة مصر بأشكال التجليد وامتاز بعضها بالتصوير الذى كانت تخلو منه الكتب الاسلامية فى سالف عصورها .

وقد امتدت الى هذين الدارين أيام صلاح الدين يد السرف والتضييع بدل الحفظ والرعاية ، وقد قيل ان السبب أن معظمها كان فى مذاهب الباطنية والدعوة لها ، ولكنه كان من الممكن أن تنتقى هذه الكتب وتنقى ويبقى الصالح وهو لا شك كثير .

(١) انظر ديوان الأعاصير وديوان الشاعر القروى .

وقد حدث أن « أبا سعيد البندهى » الفاضل الأديب قد استصفى كتباً كثيرة من دار الكتب فى حلب وأخذها حين اتصل بالسلطان فأباح له أن يأخذ منها ما شاء ، وكان « البندهى » أستاذا لابنه الملك الأفضل على فنزل الى جامع حلب وقعد فى خزانة كتبها الموقوفة واختار منها جملة أخذها ، فلم يسنعه منها مانع . وقد حكى أبو البركات الهاشمى الحلبي قال : ولقد رأيته يحتموها فى عدل (١).

أما مكتبة القاهرة فقد اختلف المؤرخون فى عدد ما كانت تحوى من الكتب ، فأوصله بعضهم الى مائتى ألف كتاب ، وكان بها من الفرائد المصورة ما لا مثيل له ، فكانت من عجائب الدنيا ، ولم يكن فى جميع بلاد المسلمين دار كتب أجمع منها للعلوم والفنون والآداب .

وقد حكى العماد الكاتب مأساة هذه الدار ومصيرها السيئ ، فقد بيعت ضمن متاع القصر يباعا بخسا ، ولم يبق عليه رقيب ولا حسيب ، وقد سمعت فى زماننا فى بعض البلدان التى زرتها أن أنصار الفاطمية كانوا ممن اشتروا من هذه الكتب وهربوها الى البلاد القاصية كبلاد الهند ، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحا ، لأن كثيرا من مدونات ذلك العصر صارت اليوم تطبع فى الهند ثم تصدر الى بلادنا ، وسوق الكتب بها من ذلك شئ كثير .

وقد وصف العماد ما كانت المكتبة عليه من نظام وترتيب رفوف وتقسيم فهارس ، وذكر أن الذى حكم فى بيعها كان بهاء الدين قراقوش متولى قصر العاضد ، ولما كان تركيا لا خبرة له بالكتب ولا دراية بالأدب فقد جازت عليه حيل دلالى الكتب فى وكسها فبددها بأوكس الأثمان .

ووصف فرائدها بأن بعضها كان ربما حوى خمسين جزءا أو ستين اذا فقد منه جزء لا يخلف أبدا ، وذكر أن هناك مشترين كانوا وراء

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٢١٥ - وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٤ .

الدالين وشركاءهم ، فلما حملت اليهم الكتب باعوا ما قوموه بعشرة بمائة .

وقد استصفى العماد والقاضى الفاضل منها قدرا كبيرا من الكتب ، أما العماد فقد أعفاه السلطان من ثمنه ، وأما الفاضل فقد اشترى عددا ضخما منها بعد أن نزع عنها جلودها على أنها مخرومات ، ثم جمعها بعد ذلك ، ولما أنشأ المدرسة الفاضلية جعل فيها — كما يقال — مائة ألف مجلد من مكتبة القصر (١) .

حركة التأليف :

وليس يحصى عد ما ألف أيام صلاح الدين فى كل العلوم والآداب دنيوها ودينها ، فى البلاد التى يحكمها والتى لا يحكمها ، وقد حفلت كتب التاريخ والأدب والطبقات بذكرها .

ومع هذا فانه لا يقاس بعصرنا حيث قامت فيه وزارات ودور ومجالس بتشجيع التأليف والنشر بما لا مثيل له من قبل ، وذلك مع تطور العلوم والآداب واتساعها عرضا وطولا وعمقا ، ومن هذه الوزارات والمجالس وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وقد تولى أمرهما المهندس الكبير والأديب القدير السيد نائب رئيس الوزراء أحمد عبده الشرباصى وشاركه فى بعث همة المجلس الأعلى شاب من خيرة شباب الجيل وأكثرهم همة وأدبا هو محمد توفيق عويضة ، وفيما يصدر عن هذه الوزارة وهذا المجلس من كتب ومجلات ونشرات يبين الفضل ويذكر .

وليس ينسى فى هذا الباب الهمة العالية والنشاط المرموق الذى تقوم به وزارة الثقافة والارشاد برعاية السيد نائب رئيس الوزراء الدكتور عبد القادر حاتم وزيرها المفضل .

(١) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ٨٣ .

الاختراع والافتنان :

وقد نشطت حركة الاختراع والابتكار — والحروب من دواعيها — وكافاً عليها صلاح الدين ، وسنعرض لمكافأته أبطال الحروب الى شاب دمشقى لم يقبل أن يأخذ منه مكافأة على خلطه مواد أحرقت دبابات العدو عند عكا .

ونشط الافتنان أيضا بفعل الذكاء والتمرين ، فقد شوهده «أبو الحسن السروجى الأديب» يأخذ الماء بفيه ويكتب به على الحائط كتابة حسنة كأنها بقلم الطومار (١) ، وشوهدت امرأة هذا الأديب تكتب بقدميها (٢) .

وكان الغناء والرقص على المزمار لا يننى ولا يهدأ ، حتى فى خيام الحرب وميادينها ، وبينما كانت تعبر الليالى بخيام الفرنجة ساكنة حزينة كانت تمر بالمسلمين ساهرة فرحة ذات أصوات وزعيق ، حتى انهم يقولون ان ريشارد ملك الانجليز تمنى أن يرى حفلة من هذه الحفلات فدعاه الملك العادل الى واحدة منها فرجع مما رآه محبورا مسرورا .

(١) خط الطومار : حيث يكون الحرف كبيرا يملأ ما يسمى بفرنج الورق اليوم وهو الطومار .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٩ .

شؤون القتال

- حب السلام
- الإعداد للجهاد
- حرب الفرنجة
- أهداف الحرب
- خطط القتال
- وقت المعركة
- أرض المعركة
- أدوات القتال
- الأسلحة الثقيلة
- الأسلحة الخفيفة
- فرق المقاتلة
- الأبطال والمخترعون
- بطولة بيروت
- الأسس طول

حب السلام:

من التجوز — بعد ما قدمنا — أن تفرض لصالح الدين سياسة فى السلم ، من ناحية الرعاية التى بذلها لاعمار البلاد وترقية شئونها لتمده بالقوى المطلوبة له فى المعارك ، أما ما عدا ذلك فانه لم يعرفه منذ تولى شحنة دمشق ثم نزع منها وأرسل ليقاتل فى مصر ، بل انه لم يعرفه منذ ولد — كما أوضحنا فى مقدمة هذا الكتاب وفى الباب الأول منه — وانما كانت سياسته كلها سياسة جهاد وقتال .

وعلى ذلك فهو بطل من أبطال الحروب ، وشهرته كلها كسبها من الحرب ومن الوقائع التى ربحها ، وأخص هذه الوقائع وقعة « حطين » . فانه لم ينتصر فى غيرها مثل الانتصار فيها ، ولم تستطع الهزائم التى متى بها بعدها أن تعطل من آثارها أثرا أو تمحو من مجد صلاح الدين حرفا .

ولا يحسن كل من قرأ هذا عن صلاح الدين أنه كان مغرما بالدماء . منهوما بها معتادا عليها ، فانه وان كان قد اكتسب شهرته من حروبه وقضى عمره كله يدير رحاها فانه لم يكن من هواتها ، وكل حرب اضطر اليها خاضها مرغما ، وكان كلما أملت به أهوال الحروب ود أن لم تكن ، وطالما رحم المحاربين معه فتركهم يخرجون من المعركة دون أن تنحسم ، وحتى لو خذلوه ، متى صدق لهم عذر ، لأنه كان أعلم الناس بما تصنع الحروب ، وكان من أكثر المقاتلة احساسا بحرارات الدماء .

وطالما اجتهد صلاح الدين أن يحقق الدماء حتى دماء أعدائه ، وقد أحب — وهو الفارس العابر على الأسنة والنبال — ألا يعود أولاده الجراءة على الدماء ، فقالوا : ان أولادا له صغارا طلبوا فى مرج عكا أن يأذن لهم فى قتل أسير فلم يأذن لهم . فسأله كاتبه وصاحبه بهاء الدين بن شداد عن سبب المنع ، فقال له : لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ، وتهون عليهم بعد ، وهم الآن لا يفرقون بين الحلال والحرام (١) .

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٢ .

بل لم يكن مغرماً بقتل أعدائه أو اذلالهم ، فكان يسرع الى العفو عنهم اذا تم تأديبهم ، ولا سيما اذا كانوا من المشاركة : وقد صدر من « مظفر الدين » صاحب قلعة « حران » كلام يؤذى السلطان فسارع اليه وانتزع منه قلعته واعتقله ، فلما أيقن أنه تاب وتأدب عفا عنه وطيب خاطره وأعاد اليه القلعة والبلاد التي كانت معه ، وهذه أيضاً كانت إحدى فرائد السلطان .

الاعداد للجهاد :

ولم يسر صلاح الدين خطوة واحدة لتركيز قوته وتوحيد بلاده الا وهو على نية الجهاد واعداد البلاد له ، فقد رأى الحروب الصليبية قد طالّت ، فأراد أن يحسمها ، فكان — كما قالوا — من ضروراتها .

وقد أورثتنا تلك الحروب ، حقاً ، أمجد ميراث حيث جاءت برجل مشغوف بالجهاد ، قد استولى حبه على قلبه فلم يكن له حديث الا فيه ولا نظر الا في آله ، ولم يكن له اهتمام بأحد فوق اهتمامه برجاله ، ولا ميل فوق ميله الى فرسانه وأبطاله .

وصرفه حب الجهاد عن الاهتمام بأية بلية تنزل به ، حتى جسمه ، وهجر في محبته أهله وأولاده مع شدة حنوه عليهم وشفقته بهم ، وقنع من الدنيا وقصورها ومتارفها بالتنقل على فرس الى ظلال الخيام ، ولم تكن غير خيام معرضة للقصف والنسف في أى برهة من الزمان ! ، ورددت الآفاق صدى دعوته للجهاد ، ومجده الناس على اختلاف الأزمنة : أما العرب والمسلمون فقد مجدوه لأنه دافع عنهم وبهم ، وحمل ذمارهم ، وأما الفرنجة فلأنه أقلق بالهم ، فلما انتصر عليهم عفا عن شاء وأفضل عليهم بالمن ، ولم يغدر غدرهم ، وقد خاطبه ذات مرة أحد قادة البحر من الفرنجة عند اللاذقية وطلب اليه أن يقلع عن مناوأة الأساطيل وفتح البلاد فقال له : « قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين واقتضه علينا ، فنحن

قائمون في طاعته بأداء ما افترض علينا منه ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا عليه تعالى « فصلب قائد البحر الفرنجى على وجهه وعاد الى مركبه (١) .

وكثيرا ما كان صلاح الدين يقول وهو يجاهد ويجالد : اننى أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء . أما تقدير صلاح الدين لموقف عدوه فى المعركة فكان دقيقا عجيبا ، وقد حدث حين أزال أصحاب اسماعيل بن نورالدين عن موقعهم مع عسكر الموصل أن ثبت عز الدين بن مسعود فلما رأى السلطان ثباته قال : « اما ان هذا أشجع الناس واما أنه لا يعرف الحرب » وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقعه وتمت الهزيمة على عدوه (٢) .

حرب الفرنجة :

لقد تبين أن كل ما حدث من صلاح الدين فى جمع كلمة البلاد ولو بقتال أمرائها واخضاعهم انما كان بيد واحدة بينما كانت اليد الأخرى مشغولة بقتال الفرنجة ، ومنذ دخل صلاح الدين ميدان الشباب وهو يحاربهم حتى اننا لنحسب قتاله للأمراء المشاركة قتالا للفرنجة أيضا لأنهم كانوا محرضين أو محالفين .

وأول ما التقى صلاح الدين بهم منفردا التقى بهم فى الاسكندرية حين حاصروه بها هم وجند شاور ، حتى خلصه عنه شيركوه ، وكره أن يعود الى مصر بعدها لأنه سيعود للمكيدة والحرب ، فامتنع حتى أمره مولاه نور الدين وقضى حاجته التى تعلل بها .

ولو فرض أن صلاح الدين قد نازل الفرنجة مضطرا فقد كان عليه أن يرسم لنفسه طريق الحرب ويضع خططها ويعرف أهدافها ، وذلك اذا

(١) النوادر السلطانية ص ٧١ - مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢ .

كان يريد لنفسه النجاة من أهوالها وحسب ، فكيف به اذا ود أن يكون أحد الأبطال ؟!

وقد وقع مما ليس منه بد ، فرسم طريقه وخططه وعرف أهدافه . ثم مضى يقاتل . وأصعب الأمر أنه لم يعمل لمعركة واحدة أو عدد من المعارك ينتهى بعده العدوان الى المهادنة والصلح كما يقع لمعظم القواد ، ولكنه عمل ليستنفذ فيها مقدرته وأيام عمره ، ثم يترك البقية للأجيال . التى تأتى بعده ، وكفى أنه مضى قدوة وعبرة ومقياسا .

أهداف الحرب :

فاذا كان صلاح الدين — من قبل — لم ينو حربا ، ولم يظن أنه سيعود اليها فقد عرف من نفسه حين عاد وعرف الناس معه أنه رجل شجاع جرىء القلب الى غاية ما يظن فى امرئ مخلوق من شجاعة — وغريب على ابن آدم ألا يخشى الحرب والمقاتلة لأول مرة فاذا مرّن عليها أقبل غير خائف — وهكذا حدث كثير من رجال الحروب وأبطالها — فكان صلاح الدين كما خلق الانسان .

وكانت خطة نور الدين مع جنده ملزمة جنده أن يشجعوا ، فما كان يعطى مالا لمن يفر عن عدوه بل يأخذ ما جمعه وأخذوه ، وبذلك أنبأ أحد جنوده فى أثناء حملة من حملاته على مصر قال : والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ، ليأخذن مالنا .. وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا (١) .

ونبأ مثل هذا الجندى جنود آخرون : وقد حدث أن وقع الرعب ذات مرة فى صفوف من كلفوا القتال بمصر مع شيركوه ، فقام جندى فقال : من كان يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوكة ، بل يكون فى بيته

(١) جيش مصر أيام صلاح الدين ص ٥ .

مع امرأته ! فقال شيركوه مثله ، فقال صلاح الدين مثلها ، وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال (١) .

فإذا كان صلاح الدين لم يشأ أن يرد شريعة الحرب فى أول أمره فقد اضطره أصحابه من الجنود الشجعان أن يردھا ويشرب منها بملء فيه ، ولكن صلاح الدين لم يكن يرى مفرا من الحرب ، ولم يطرح التفكير فيها والترتيب لها منذ وقف على أبوابها .

وحين عرف أهدافه منها رسم لها وحدد مراميہ : وقد ثبت فى نفسه — حين نظر الى ساحل البحر فى منطقته كلها فرآه حاجزا — أن يفتح الساحل ويطرده الفرنجة ، ودون فتحه فلن يكون نصر ، ولن يكون لحروب التوحيد التى يخوضها قيمة ، والأهداف مترابطة ، فلا خلاص للساحل الا بتوحيد القوى ، ولا ذهاب للفرنجة الا بهذا التوحيد وتطهير الساحل وامتلاكه .

كذلك ثبت فى قلب صلاح الدين حين كره العودة لمصر ، فرأى من الصعب أو المحال أن يدخلها ويستقر فيها ما دام الساحل مملوكا للفرنجة ، ولكنه رأى أن دخولها والاستقرار بها يمكن له من امتلاك ساحل البحر (٢) فى أرض الشام ، فكللا الأمرين مرتبط بصاحبه لا ينفك عنه وكأنهما أمر واحد .

وقد صدقوا حين قالوا انه لم يقصد قط من حربه للأمرء المشاركة الا ردهم لطاعته ونصرة الاسلام وقطعهم عن التودد للفرنجة ومواصلتهم ، فقد كان من شروطه على كثير من ولاته الجدد أن يعاونوه اذا استمدهم لقتال الفرنجة (٣) .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٢ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٣٣ ، ١٩٦ .

(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٦٦ .

وأما طرد الفرنجة ، فانه كان يعرف ما يجب أن يكون عليه المدى البعيد لرجل يتولى الحرب فى هذه المنطقة : انه كان يرى من السياسة على مثل ذلك الرجل ألا يترك الجهاد حتى يخرج الفرنجة من الساحل ، وقد صرح صلاح الدين عن هذه السياسة فقال : لما يسر الله تعالى بملك الديار المصرية علمت أن الله أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى (١) .

وقال صلاح الدين أيضا : فى نفسى أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره وأتبعهم فيها حتى يهلكوا أو أموت (٢) .

وهكذا ملك صلاح الدين مصر ليقوى على الساحل وجمع القوى ليخرجهم منه ، وكان الساحل فى رأيه سورا لمصر ومصر سورا له ، وإذا كانت محاربته للأمراء غلطة فان رائد العرب فى زماننا لم يقع فيها مع ما حدث فى شتى الأقاليم ، لأنه لا يرى أن يحارب عربى عربيا ولا مسلم مسلما ، ووقاه الله شر الغلط ، وأما الجهاد فلم تول النية على مثل ما نوى صلاح الدين من تطهير الساحل وطرد اسرائيل .

خط القتال :

ولم يعرف التاريخ من القواد الحذرين كصلاح الدين الا قليلا ، وحسبك أنه قاتل ربع قرن كامل ، وكان كثيرا ما يدنو من مرمى سهام العدو ، ولكنه لم يقهر قط قهرا يسلم من ورائه حين كان يسلم أعداؤه وهم منتصرون ، فلم يقدم على معركة الا وقد حسب لها حسابها من النصر أو الهزيمة ، فاذا أيقن بأحدهما أقدم أو تجاوز .

وقد يدهش قارئ سيرته أن يراه يدخل معركة لم يكن يريد لها ، أو يترك موقعة ويتحول عنها فجأة كأنه مهزوم ، وما ذلك الا للحساب

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٤ .

(٢) مفرج الكروج ج ٢ ص ٤٣٣ .

الذى افترضه والادراك الذى شعر به والنتائج التى تبينها . وكان من حذره . أنه لم يعقد صلحا قط أو هدنة مع الفرنجة الا وهو خائف أن ينقضوها ، فكان يتخذ لنفسه الحيلة فى الشروط والبند ، وكان أثناء مفاوضات الصلح لا ينقطع عن مناوشة العدو مخافة أن يكون غادرا محتالا .

ومخافة أن يخطئ حذره كان يستشير ، ولم يعزم فى الغالب على أمر الا . جمع له أهل العلم والفهم به فى مجالسه الخاصة ثم التزم المشورة وتقيدها ولو كان فيها الدمار . وقد حرص على التزام المشورة أمر دينه فيها ورؤيته الفرنجة حين التشاور :

وكانوا يتشاورون وهم على ظهور الخيل ، وإشارة ذلك أن يجتمع عشرة من قوادهم ، فإذا اتخذوا أمرا فلا بد من المضى فيه ، وأى شيء أشاروا به لا يخالفونهم ! فكيف والاسلام يرى المشورة ركن الأعمال كلها ! فاتبع صلاح الدين تعاليم دينه وقدم الآراء على رأيه ، فإذا استوى عنده رأى بدأ القتال وحضر الواقعة بنفسه غير مخدوع بقوته وذكائه ، وإنما يجعل لله نصيبه من النصر والتوفيق .

فإذا أراد الالتحام فى معركة كبرى هجم بثقل جيشه ووزع فرقا منه على دائرة واسعة تحيط بأرض معركته ، كى يشتت أمر عدوه ويفزعه ويفرق باله ، ولئلا يجد العدو ثغرة ينفذ منها . وبهذا كان صلاح الدين قائدا عاما كأحد الأفاضل من القواد الكبار الذين أشرفوا على المعارك الكبرى الواسعة فى القديم والحديث ، وقد أخطأ من ظنه قائد معركة ضيقه وحسب ، وإنما وهم هؤلاء وانخدعوا حين رأوه لا يكاد يدع معركة الا اشترك فيها بنفسه . والأرض حينذاك كانت مبسوطة بعيدة الأطراف ولكنها كانت ضيقة متقاربة فى نظر صلاح الدين وأمام فرسانه وآلاته ، ويلاحظ ذلك من سرعة تنقله بين القلاع والبلاد والمواقع ، فبينما هو فى أقصى الشمال بالموصل اذا به أمام حلب أو فى جبال لبنان . فهذه المفاجآت من مميزات صلاح الدين ، وهى كذلك من أسباب انتصاره ورعب الفرنجة منه ، ولم يتخذ السر على رأيه الا دلالة على هذا الانقراض .

ولعله كان يستعين فى كل موقعة بجند للعصابات من الجهة التى ينتقل إليها ، بخلاف الفرنجة الذين كانوا يجهلون الأرض وهم أعداؤها ، فكان تنقلهم ضيقا وثيدا ، فيحسب الجهلاء أنهم أدق نظاما وانتقلا ، ولم يكن الصليبيون يستطيعون استعانة أهل البلاد ، فبدأ تنقلهم بطيئا ومواقعهم متقاربة .

وكان صلاح الدين يجعل جيشه كله ثقلا اذا ظن أنه ملاقى الفرنجة جملة — كما حدث فى حطين — ليأتى على عدوه جملة ، وقد أمن أن يكون منه على أطراف دائرة الموقعة أحد .

ولم يخش صلاح الدين يوما ما لاح له من كثرة العدو وحسن نظامه وعنف قتاله ، ولم ترعه الأساطيل الضخمة تصل الى الشاطئ فوجا بعد فوج ، ودول ما وراء البحر فى أوروبا كلها تجتمع على ظهورها : ولقد بلغ شاطئ عكا ذات ليلة نيف وسبعون مركبا ، فوقف صاحبه ومؤرخ أيامه بهاء الدين بن شداد يعدها ويحصيها من بعد صلاة العصر الى غروب الشمس ، وهو ينظر فى وجه صلاح الدين ليرى أثر الهول عليه ، فما رآه ازداد الا علو نفس وقوة جلد وفراغا الى التدبير من غير حدة ولا غضب .

وكانت لدى صلاح الدين بعد ذلك خطة الحرب كاملة من الحيل والرجال والسلاح فى البر والبحر ، أما الجو فلم يكن بعد كما صار فى زماننا ، فهول سلاح الجو لم يره ذلك الزمان ، وان كان صلاح الدين لم يبلغ فى بناء الأساطيل ما بلغ العدو فى بنائها ، وان لم يقصر .

فاذا ما كملت أجنحة الجيش وركز ثقله وأرسل فرقا أشتاتا حول المعركة ليعمى العدو عن غرضه بعث العيون والكشافة ، فيأتيه رجالها بأخبار العدو : يأتيه بوصف عدته وعدده واتجاهات سيره وأحوال اضطرابه أو انتظامه (١) ، ثم يرسل الفدائيين وأصحاب الغارة أمامه ،

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٥ .

فينهب هؤلاء البلاد والأسواق حتى يوقع الرعب والمخافة فى قلوب عدوه . وكان هؤلاء الفدائيون من أتباع صلاح الدين خاصة ، فاذا فرض الغارة على من يشاؤه منهم أطاع ، وكثيرا ما قتل هؤلاء أو أسروا فلم يعودوا من غير أن يكون لغيابهم أثر فى نفوس زملائهم ، وكثيرا ما جرد صلاح الدين العساكر من هؤلاء ومن قبائل البدو الى مزارع العدو فحصدوا غلاته ، ولم يبرح هو مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم وقد خف زرع الفرنجة مما فعلوا به .

ومن رجال الغارة صنف كانوا يسمونه « لصوص الخيام » قد رتب لنهب خيام العدو والانتفاض عليها ، وكان هؤلاء جماعة من البدو وصفهم ابن شداد بأنهم كانوا اذا دخلوا خيمة للعدو وضعوا الخنجر على نحر النائم وأيقظوه وأخذوه ، فلا يستطيع أن يتكلم ، وقد تكلم منهم جماعة فذبجوا ، فصار من أصابه ذلك لا يتكلم ويختار الأسر على القتل ، وقد داموا على ذلك مدة طويلة الى انتظام الصلح (١) .

ولم يلتزم صلاح الدين خطة واحدة فى كل قتال بل كثيرا ما غير خطته وطريقة قتاله ، وكان كما تطلب المعركة ، وذلك لأنه رأى الفرنجة لا يثبتون على خطة ولا يفردون آلة فى القتال ، بل هم كل يوم بآلة وكل حين على لون ، فقلدهم ثم باكرهم وسبقهم .

ووزع صلاح الدين المقاتلة على نوبات وبدل مواقفهم ، عملا بسيرة الحرب ونظامه فى الاسلام ، حتى ترتاح الفرقة المقاتلة ويأتى الذين لم يقاتلوا فتظل المعركة على قوتها وحرارتها ، ولم يهمل الاعداد الدائم لحرب العصابات ، وهو أمر لم يستطع العدو الثبات له ، لعلم رجال العصابات بأرضهم وسهولة الاختباء بوديانها وحرجاتها وصخورها (٢) .

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٥ .
(٢) أبطال الوحدة ص ٩٩ - مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥١ ، ٣٢٠ .

وفى غير المعارك الكبرى كانت حربه أكثر ما تكون تخطيطا من الأطراف لا التحاما فى معارك ، فكانت تفدح بذلك خسائر الفرنجة ، وكان جنده فى هذا التخطيط أقدر لمعرفتهم ببلادهم ، وأماكن الاختباء فيها .

وحرب الكمين كانت خطته المتكررة ، وقد نجحت نجاحا متكررا العلم جنده بمواطىء أقدامهم وبالأماكن التى تصلح لها ، وقد خشى العدو هذه الخطة حتى فى ساعات انتصاراته الحاسمة ، فلم يكن يتمادى فى تتبع المنهزمين من جند صلاح الدين مخافة أن يقع فيه .

وصار افساد مياه الآبار فى طريق العدو من حيله فى الحرب ، وقد أفسد جميع ما حول القدس من مياه عند فتحه وعند الخوف من مهاجمته وهو يمتلكه ، وجرده مما حوله من مزارع ، كما أحرق القرى والمدن وهدم أسوارها حين كان يرى فى احراقها وهدمها نكاية العدو :

أحرق عسقلان وخرّب الرملة والبيرة والداروم وهدم بيت الأحزان : أما عسقلان فأحرقها لئلا يتخذها الفرنجة طريقا لقطع الصلة بين مصر والشام ، وسنذكر أمر حريقها فيما بعد بالتفصيل . وأما الرملة فكانت رباطا للمسلمين فملكها الفرنجة ، فلما استنقذها منهم صلاح الدين سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) خربها خوفا من أن يستولوا عليها مرة أخرى ، وبقيت على ذلك الخراب عهدا طويلا ، وكانت الرملة من طول ما أصلحته الدولتان الأموية والعباسية بها أكثر البلاد صهاريج مع كثرة الفواكه وصحة الهواء (١) . وأما البيرة التى بين القدس ونابلس فقد خربها حين استنقذها من الفرنجة (٢) ، وكذلك فعل بقلعة الداروم وكانت قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، والواقف فيها يرى البحر ، إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ ، خربها صلاح الدين لما ملك الساحل سنة (٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م) (٣) : وأما بيت الأحزان فقد زعموا أنه كان بيت يعقوب النبى أيام فراقه يوسف ،

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٦٩ .

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٦ .

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٢٤ .

عمره الفرنجة وبنوا به حصنا ، ففتحه صلاح الدين سنة (٥٧٥ هـ — ١١٧٩ م) وخر به ، فقال ابن الساعاتى الدمشقى :

أيسكن أوطان النبيين عصابة تمين لدى أيمانها حين تحلف
نصحتكم والنصح فى الدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف (٤)

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المدن والحصون كانت تخرب دون تدمير ما بها من الأطعمة والأكسية والذخائر ، اذ كانت تنقل ، وكان يرحل عنها أهلها بما يقدرون على حمله من أمتعتهم وأموالهم .

وقد استغل صلاح الدين الخصومات بين طوائف عدوه فجلبها من خطته لجلب النصره ، فى ذكاء وفهم ، كما حدث فى حرب دمياط ، فقد أخذ يتصل بجباة من عسكر كل طائفة على مرأى من الآخر ، فزادت الخصومة بين الملك « امرى » والبيزنطيين ، وظن بعضهم الظنون ببعض ، فسهل عقد الصلح وقبلت فيه شروط صلاح الدين (٢) .

وقت المعركة :

ولقد كانت المعركة دائمة فى كل وقت ، ولم يكن لأحد الخيار ، ولكن صلاح الدين كان يؤثر وقت الربيع وأوائل الصيف فى بلاد الشام خضوعا لجوئه ، اذ كان المطر والبرد يعطلان المعارك ، وحر الصيف يفرع المقاتلة ، فكان اذا طار البرد والثلج وطاب الزمان بمجيء الربيع دعا ملوك الأطراف بطلب العسكر فأجابوا وجاءوا (٣) .

وأفضل ما كان اللقاء عنده فى أيام الجمع . حقا ، انه لم يفضل يوما على يوم ، ولم يخضع لباطل النجوم ، ولكنه كان يستبشر ويستنجد

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٥١٩ .

(٢) ابطال الوحدة ص ١٠٠ .

(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٧ .

بالصلاة والدعاء اذا اجتمع الناس فى مساجدهم وصلواتهم ، ولذا فقد لوحظ أن كثيرا من انتصارات صلاح الدين على الحصون والقلاع والمدن وقع أيام الجمع . وليس معنى ذلك أنه لم يحارب فى غيرها ، بل انه حارب كل يوم وكل آن ولم يدع مهاجمة العدو عند كل سانحة ، ولم تكن الانتصارات التى نسبت الى أيام الجمع فى أيام الجمع ذاتها بل كانت فيما حوالها من أيام الخميس أو السبت فنسبت للجمعة وساعاتها دون غيرها من الأيام والساعات .

أرض المعركة :

ولم تكن هناك أرض معينة لمعركة حاسمة ، ولكنها كانت تنتقل من أرض الى أخرى ، حتى ليخيل الى من لم يعرف أرض الشام أن معارك صلاح الدين كانت مضطربة لا تسير على نظام ، ولكن الأمر ليس كذلك ، فقد قسم أرض معاركه الى مناطق ، وجعل لكل منطقة خطتها وأيامها ، ثم تنقل فيها حسبما هيا وأعد ، الا اذا كان لا بد من المفاجأة فكان يشب إليها .

ولم يكن الأمر يضطرب عليه الا اذا كان الفرنجة هم الذين اختاروا أرض الموقعة ، فكان يقع حينئذ فى صعوبات النقل والتموين والتجمع . وفى اشتراكه بنفسه فى معارك كثيرة شبة وقع فيها بعض الناس ، وتلك أن صلاح الدين لم يتخذ له مكانا ثابتا يدير منه على الدوام معاركه ، بل كان يتنقل ويقود أعنفها بنفسه ، فحسبوه قائدا صغيرا لمعركة ضيقة ، وقد دفعنا هذا الظن من قبل وقلنا انه كان أكبر من قائد عام .

وكما كان العدو يرغبه أحيانا على القتال فى مكان كان هو أيضا يرغبه ، بل كان ذلك من أبرع خطته . وكان يفضل أن يلقاه فى الميادين المكشوفة والأرض العراء دون القرى والحصون . ثم عود جنده الهجوم

عليها واقتحامها ، لأن الزمن كله — كما قلنا من قبل فى المقدمة — كان زمن القلاع والحصون ، وأرسل اليهم فيها مغاويره وفدائييه يلقونهم فى القرى المحصنة ويتخطون عليهم الجدر والأسوار .

وكان لقاءه للعدو على الأرض المكشوفة ميسرا للنصر ، بل طالما قضى النصر فى المعارك المكشوفة على روح الحصون والقلاع فسلمت دون قتال ، كما حدث اثر انتصاره فى تل حطين . وسنتحدث عن هذه الواقعة — فيما بعد — بالتفصيل .

أدوات القتال :

ولم تكن أدوات القتال قد تحولت بعد الى ما صارت اليه فى عصرنا . كانت متشابهة ويسهل تقليدها الى حد كبير ، غير أن الألمان فى الحملة الثالثة كانوا قد أتوا بأسلحة ثقيلة ودبابات ، فوصف مؤرخو العرب الفرنجة لذلك بأنهم أهل صنائع وحرف ، ولهم حيل فى صنع الآلات الحربية ، ولكننا لم نقصر عن ذلك فكانت لنا الأسلحة نفسها ، وكان المخترعون العرب والمشاركة يتقدمون بكل نافع وطريف ، ومع ذلك فقد كانت لجيوش صلاح الدين القدرة على اتلاف الأسلحة الثقيلة والدبابات التى يجيء بها الألمان .

الاسلحة الثقيلة :

وأهم الأسلحة الثقيلة كان الدبابات والمنجنيقات . والسلاحان قديمان ، حارب بهما أو بأمثالهما العرب والعجم فى الجاهلية ، وظلتا بعد تقويتهما وتحسينهما من أسلحة الحروب المقدسة ، وهما لحرب الأسوار والقلاع ، وينصب منهما على المدينة حسب اتساعها ومنعة أسوارها ، وتصبان فى الليل ، وتعمل المنجنيقات فى البر والبحر .

واهتم صلاح الدين حين مهاجمة الأسوار والقلاع بتفقد نصبها بنفسه، فإذا لم يخرج واصلته الرسل بأخبارها .

والدبابات — وهى سلاح قديم — قد حارب بها النبى أهل الطائف ، وكانت تتألف من طبقة أو اثنتين أو طبقات ، ويقربونها من الأسوار ، ثم يقذفون منها النفط الملتهب والأحجار الضخمة ، وهى تندفع ، وربما كان اندفاعها على دواليب ، فتدق جدران الأسوار والقلاع لتثقبها بحركتها وتوهى بناءها . ومهما اتسع وصفها فانها لا تشبه دبابات اليوم التى هى كتل من حديد ونار تتحرك وتفتح وتندوس .

الأسلحة الخفيفة :

أما الأسلحة الخفيفة فكانت أنواعا من النشاب والنبال تختلف أسماؤها باختلاف قوتها وبعد مرماها والأقواس التى ترميها ، ولا ضرورة لترديد أسمائها وصفاتها فى كتابنا هذا ، فقد حفلت بها الكتب ووفى الكلام عنها شارح كتاب ابن واصل ، غير أننا ننوه عن نوعين من السهام والأقواس كان أحدهما من سهام البر والآخر من سهام البحر :

فالذى فى البر كان اسمه الزيارات وهى أقواس ترمى أشد السهام رميا وأعظمها جرما ، وكانت تنصب على الأبراج وتحتاج فى قذفها الى عدد من الرجال ولا يكاد يثبت أحد أمامها .

والذى فى البحر كان اسمه الزمبوركات وهى سهام تختص بالبحر لأنها طويلة ثقيلة لتكون أكثر ثباتا عند انطلاقها .

فإذا نفذ النشاب والنبال التحم الطرفان بالأحجار ثم بالرمح والسيوف والمدى ، أو تشابكوا بالأيدي .

وكان من شأن كبار القادة أن يلبسوا المغافر وقمصان الزرد ، ويتقون الرمي بالتراس ، وأجود ما كان يصنع من التراس والرمح وأحكمه وأقومه

كان من صناعة الموصل ، وكانت تصل منها أيضا أحمال من النفط الأبيض (١) . أما مصانع السيوف فكانت بالقاهرة والموصل ودمشق (٢) . ولقد تبين أن المنطقة وإن لم تكن معنية بإخراج الحديد بكميات ضخمة فقد كانت تستخرج بعضه وتصنعه وتكفي نفسها من السلاح الذي هو صنع أيديها ، وكان معظمه من جبال لبنان . وقد عاد لنا هذا المجد اليوم ، فقد قامت المصانع الحربية في مصر على قدم وساق ، واستطاعت في قليل من السنين أن تنتج كل الأسلحة الخفيفة التي تحتاجها حروب زماننا ، وتكفي لسد حاجات البلاد العربية كلها ، بل اتجهت نحو صنع الأسلحة الثقيلة والطائرات والصواريخ ، وهو الأمر الذي يمتاز به عصرنا عن عصر صلاح الدين (٣) . ومن يدري ؟ لعلنا نسمع غدا بأننا صنعنا الأسلحة الذرية ما دمنا قد حططنا الذرة ودخلنا في نطاق الأمم المتقدمة في النوويات .

فرق المقاتلة :

ولقد اشترك في القتال مع صلاح الدين كل من كان يسكن هذه المنطقة بلا استثناء : الأتراك والأكراد والعرب والأرمن والمسيحيون المشارقة ، لم يتخلف منهم جنس ، وقد غفل بعض المؤرخين المحدثين فقالوا : إن عنصر العرب لم يكن حاضرا لأن مواهبه الحربية كانت قد تخلفت فتخلف عن القتال ، ولكن من يقرأ سيرة صلاح الدين التي كتبها أصحابه في زمانه يجد سيرة العرب واشتراكهم في حروبه في كثير من المواضع ، وقد ذكرهم ابن شداد وحده في عدة مواضع ولا سيما عند كلامه عن القروسية والكمين وأهل الغارة فإنهم كانوا يختارون في هذه الفرق لخفتهم وفروسيتهم ، وسكوت بعض المؤرخين القدامى عن عنصر العرب

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٠ ، ٢٤٣ ، ٢٦٢ ، ٣٠٧ .

(٢) نور الدين والصليبيون ص ١٥٥ .

(٣) العلاقات بين العرب والافرنج ص ٩٦ .

انما هو سكوت عن الأغلب الذى لا بد من تمييز غيره ليمتاز ، وما من شك فى أن صلب حروب صلاح الدين كان عنصر العرب ، والعرب كلهم فى المشرق العربى بلا استثناء .

وقد يكون السبب فى اهمال الكلام عن العنصر العربى أن القادة لهم يكونوا منهم ، فانفرد الكتاب بذكر القادة وتبع المحدثون القدماء فاعتروا^١ بأقوالهم وساروا على نهجها ، والا فما معنى اشتراك أهل الشام وفلسطين والأردن ومصر والعراق فى حروب صلاح الدين ؟ وما معنى دفاع الاسكندرية ودمياط وبليس والرملة والقدس وعسقلان وغيرها ؟

وقد تألف الجيش من عسكر دائم هو العسكر النظامى التابع لصلاح الدين ، وهؤلاء يتقاضون رواتبهم بانتظام ، ثم من الجند وهم عسكر الأمراء ومجنودهم ، ثم من المطوعة وهم الذين ينفقون من أموالهم الخاصة أو من أموال من جندوهم ، ثم من المرتزقة (١) .

وقد قيل ان الجندى كان يمون بأن يحصل على ما يحتاجه فى عدة أشهر ، وكل واحد من السوق كان يحمل ما يستطيع أن سلا به منزلا ، وينقله معه من مكان الى آخر مرات متعددة (٢) .

وقد غلب على المحاربة أن يكونوا من المطوعة ، يذهبون الى الحرب ، بأموالهم ، أو بما يقترضونه من الديون ، أو بما يصيبهم من الغنائم . وكان من اليسير أن يجمع قائد أو أمير جنودا مرتزقة من الفرسان والمشاة ، للروح الدينى الذى ساد . وقد جمع أسامة بن منقذ ثمانمائة وستين فارسا لصد الفرنجة عن عسقلان بستة آلاف دينار لا غير (٣) فخص الفارس أقل من ثمانية دنائير .

(١) انظر كتاب جيش مصر أيام صلاح الدين .

(٢) النوادر السلطانية ص ١٦٦ .

(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٩١ .

وكان الحافز الدينى يدفع الى التطوع فى الطائفتين : المسلمين والصليبيين ، ويلاحظ أن الحرية كانت ملك كل متطوع ، فهو يقوم وينصرف حسبما يرى ، ولكنه عند الاقدام يكون أشد اقبالا بمحض ارادته والدواعى الحافزة لاقباله ، وهذه الدواعى هى التى تجبره على الطاعة وقبول أوامر القادة ، وحينما تزول هذه الدواعى أو يخف أثرها فى نفسه بفعل المعركة والاحساس بالواقع الأليم فهو ينصرف بمحض ارادته كذلك ، ولا يرده عن الهرب الا مخافة رأى الناس أو رجوع القوة الى الدواعى الحافزة كما كانت عند اقدامه .

والفوضى التى حدثت فى كثير من المعارك فسببت الهزائم كانت من ذلك النظام ، ولو كانت الجندية جبرا كما هى اليوم لوقعت الانتصارات والهزائم أكثر نظاما ، ومع هذا السوء الذى رأيناه فى ذلك النظام فإن حوافز الاقبال على الحرب كانت أشد جذبا للنفوس من دواعى الجبر والقهر ، وكذلك كانت البطولة أعظم والقتلى أقل عددا منهم فى الكتابات المجبورة .

وقد بدأ كثير من معارك صلاح الدين أكثر نظاما فى أوله وأكثر خلا وتشتتا فى آخره ، بتأثير العوامل التى تحكم الجندى المتطوع أكثر مما كان لسيطرة صلاح الدين .

وكتب الفقه تميز بين المطوعة والمسترزقة ، فتجعل المسترزقة من أهل الفىء والجهاد ، يفرض لهم العطاء فى بيت المال من الفىء بحسب الغنائم والحاجة ، أما المطوعة فهم الخارجون عن الديوان من البوادر والأعراب وسكان القرى والأمصار الذين خرجوا فى النفير الذى ندب الله تعالى اليه بقوله : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله (١) » .

(١) الاحكام السلطانية ص ٢٩ .

وكل صنف من أولئك المقاتلة كان يتوزع الى فرق : فمنهم الفرسان
ومسددو السهام وأصحاب الفارة والتجسس والعمال ونقلة الميرة
والذخيرة : كل حسب مقدرته والحاجة له . ولا بد من التبويه عن فرق
البدو من العرب : فهؤلاء كانوا يختارون لخفة حركتهم وامتيازهم فى
تسديد السهام ، لمعيشتهم فى البادية ويسر تنقلهم من مكان الى مكان فيها ،
فنفعت صفاتهم تلك الحروب .

الابطال والمخترعون :

وقدر صلاح الدين كل فرد اشتهر ببطولة أو قدم اختراعا ، وقد
كافأ شابا دمشقى يسمى « عليا » كان خبيرا بالعمل فى النحاس والكيمياء ،
يعمل فى الأسطول : أحرق بمخترعه أبراجا ضخمة مخيفة للفرنجة من
داخل أسوار عكا ، كانوا قد جاءوا بها لأول مرة فأرعبت الناس ، ولكن
الشاب الدمشقى أبى أن يأخذ من صلاح الدين لقاء عمله فى سبيل الله .
وقدر صلاح الدين البطولة فى عدوه ، وحين سلمت اليه قلعة من
قلاع أنطاكية أحضر بين يديه صاحب القلعة — وكان قد دافع عنها دفاعا
مجيدا — وكان من أكبر أعدائه ، فمن عليه وأعتقه وأعتق سبعة عشر من
أهله وسيرهم الى صاحب أنطاكية ليستميله اليه .
وقد كافأ صلاح الدين أصحابه الأوفياء الأبطال فلم يتركهم طول
حياته ، والأمثلة على ذلك تفوت الاحصاء .

بطولة بيروت :

ولم تنحصر البطولة على عهده فى قوم دون قوم أو بلد دون بلد ،
وكان ما فعله الشاب الدمشقى من ابائه المكافأة على مخترعه أقل الأشياء
فى باب البطولة تلك الأزمان . وإذا كان لقوم من ميزة فى بطولة الجهاد
هنالك فقد كانت لأهل بيروت .

البجارة الإبطال :

فقد كانت بيروت أرسلت مركبا عظيما وشحنته بالآلات والرجال ، وكانوا زهاء ستمائة وخمسين رجلا من رجالها الأشداء ، كان صلاح الدين قد أمر بتعبئته وتسييره الى عكا من بيروت ليطبق على العدو مع أسطول مصر . فأنحدر المركب سريعا في البحر مستترا بظلام الليل جاهدا في الطاعة والابحار فبلغ سريعا مياه عكا .

وما كاد يدنو من مياهها حتى كان العدو قد فطن له وأرسل أربعين مركبا حريبا من خفاف مراكبه فدارت حوله وأحاطت به وقذفته بالنيران .

وفوجيء المركب البيروتي بما رأى فلم يذهل ولم يئأس ، ورأى ألا يسلم دون قتال مرير يكون مثلا مضروبا لكل مقاتل في البحر والبر ، بل رأى ألا يسلم مهما بلغ الأمر ، فجعل يطلق سهامه ونيرانه على العدو في كل الجهات وعلى كل مراكبه الخفيفة ، قد تفرق بجارة بيروت على سطح مركبهم العظيم وتولى كل فريق منهم جهة وقتالا .

ورد المركب على الأربعين بمثل ما فعلت ، واستطاع أبطال بيروت أن يجدلوا من عدوهم على ظهور سفنه خلقا كثيرا ، ويسمعوا زعقات الألم وصرخاته تغلب صوت الهدير والأمواج والقذائف والسهام .

ثم تكاثر العدو وضيق الخناق على أبطال بيروت ، ثم ما زال يضيق الحصار حتى أوشك أن ينال المركب وينال بجارته ومقاتلته ، فلما رأى قائد المركب « يعقوب الحلبي » ذلك وكان شجاعا مجربا ، وأيقن أن الغلبة كائنة للعدو لا محالة أقسم ألا يموت الا عن غزاة وأنفة ، فأمر رجاله أن يأخذوا بمعاولهم في مركبهم هدماء وتدميرا .

وكان البجارة شجعانا مقادير ، فاستجابوا له ، ولم يلبث الماء أن تدفق الى المركب من الثقوب التي خرقتها وأوسعوها ، وأخذ المركب يغوص في الماء ، وما هي الا برهة حتى غاب في قرار البحر قبل أن تصل اليه والى

بحارته النبلاء أيدي الأعداء . ولم ينج من شجعان بيروت رجل ولا آلة ولا ميرة ، ولم يظفر منهم العدو بشيء (١) .

هذا ولم يزل عرب بيروت كما كانوا بالأمس أبطلا ميامين ، وما حدث منهم في المواقف الوطنية شيء يجلب عن الوصف والحصر ، وكما أقبل آباؤهم على صلاح الدين وحبه أقبل أبناؤهم اليوم على حب رائد العروبة حبا ليس عليه من مزيد .

الأسطول :

أشرنا فيما مضى الى أنه كان لصلاح الدين أساطيل تصنع مراكبها في « المنفس » وهي ميناء قديمة على النيل ، قد طرح النيل عليها أرضا فصارت أهلة بالسكان اليوم ، وكانت في محلة باب البحر قريبا من محطة باب الحديد بالقاهرة ، وكانت السفن تدفع منها الى النيل ثم تصل منه الى البحر الأبيض من دمياط أو رشيد ، كما كانت السفن تصنع في دمياط والاسكندرية (٢) وعلى ساحل الشام عند عسقلان أو بيروت .

وكان على أسطول مصر « حسام الدين لؤلؤ » ومن مقدميه « عبد السلام المغربي وبدران الفارسي » وعلى أسطول بيروت « يعقوب الحلبي » . وكانت قطع هذه الأساطيل تروح من اللاذقية الى أقصى ما امتلك صلاح الدين من ساحل أفريقية ، وأحيانا تقصد جزائر البحر وتقف للعدو بها .

وعلى الأسطول غير القتال أن يراقب الشاطئ اذ كانت مراكب الفرنجة تسير موزعة السلاح والأموال على فرنجة الشاطئ ، فكانت قطع المراقبة تتصدى لها وتكسرهما . وعليه أيضا أن يحمل الأزواد لمدين الساحل اذا نفدت منها ، أو توصلها اليها لتدخرها بها للوقائع القادمة أو الحصار المنتظر . وقد كثر ذلك التزويد في فصول الشتاء استعدادا لحروب الربيع

(١) النوادر السلطانية ص ١٤٩ .

(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٢ .

والصيف . وعلى الأسطول أيضا أن تغير قطعه الصغيرة الملحقة بمراكبه الكبيرة على سفن العدو الراسية في الموانئ فجأة وتحرقها (١) ، وكأنها زوارق « الطوربيد » اليوم .

وقد وكل الى حسام الدين لؤلؤ قائد البحر المصرى أن يحمى سواحل البحر الأحمر أيضا ، فقاد بنفسه قطعا من أسطوله كان قد عمرها الملك العادل أبو بكر نائب أخيه صلاح الدين فى مصر فى جهة « عيذاب » على البحر الأحمر فكان « لؤلؤ » مظفرا شجاعا (٢) ، وسنعرض فيما يأتى الى مقاتلته صاحب الكرك الفرنجى فى هذا البحر ودحره أسطوله ورجاله.

وسلاح الأسطول كان أهمه الزراقات ، وهى أنابيب تنبعث منها نار النفط مع رعد ودخان كثيف فتحرق السفن ، وقد اشتهر أسطول صلاح الدين ولا سيما عند عكا بأمره الزراقين .

وقد مرنت أساطيل صلاح الدين على حرب البحر ، ولو كان قدر لها أن تعيش فى البحر وتنمو لكان للشرق اليوم ما للفرنجية من أساطيل . وعرف بحارتها بالحيل والمكر ، وكان من مكرهم اذا رأوا مراكب العدو قد قربت منهم أن يلبسوا زى العدو ويخلقوا لحاهم ويرفعوا أعلامه ويضعون على صدورهم وسطوح السفن علامات الدول الفرنجية ، ولا يتكلم منهم أحد الا من يعرف لغة أجنبية حتى تمر مراكبهم بسلام (٣) . ويفهم من هذا أن مراكب البحر كانت متشابهة الصنع فى ذلك الزمان ، ولم تكن عليها فى بنائها علامات مميزة ولا أشكال تعرف بها .

ومهما قوى أسطول صلاح الدين وتشابهت سفنه بسفن الفرنجة فإن وقوع الساحل كله تقريبا فى يد الفرنجة ، واستيلاءهم على جزر البحر ، ولا سيما قبرص ، كان من أسباب كوارث أسطوله . وزاد الكوارث أن

(١) ابطال الوحدة ص ٩٩ .

(٢) ذيل النوادر ص ٢٨١ .

(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٣١ .

أساطيل الفرنجة كانت متعددة متتابعة ، لا يفنى لها مدد ، ومع هذا كله فقد كان بالإمكان العمل على تقوية الأسطول باستمرار ، ولكن انقطاع العرب والمسلمين عن البحر مدة طويلة قد أعاد أحيانا صورة البحر مخيفة للناس حين انقطعت سيرتهم عن تاريخهم أيام الأموية والعباسية الأولى ، وعاد الناس حتى عقلاؤهم يخافون البحر :

قال ابن شداد — حين رأى البحر لأول مرة — : انه لو قال لى قائل : ان جُزئت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا ما كنت أفعل ! واستسخرت رأى من ركب البحر رجاء درهم أو دينار !

حقا ، ان هذا لم يكن رأى صلاح الدين ، فقد كان يتمنى اذا ملك الساحل أن يركب البحر حتى يرد عن جزائره — القرية على الأقل — جيوش الفرنجة ، ويُلجئها الى بلادها . وقد حدث ذات مرة بينه وبين قاضيه ابن شداد حوار فى هذا ، فقال القاضى :

ان البحر سور الاسلام ومنَعَتَه ! — وكأنه كان متأثرا برأى عمر ابن الخطاب حين رأى ألا يفصل بينه وبين جيوش المسلمين بحر — فلا ينبغى لك يا مولاي أن تخاطر بنفسك !

فقال صلاح الدين :

أنا أستفتيك : ما أشرف الميتين ؟

قال :

الموت فى سبيل الله .

فقال صلاح الدين :

غاية ما فى هذا الباب أن أموت أشرف الميتين !

الوتائع وأكروب

- وقعة البابين
- وقعة دمياط
- حملة على الاسكندرية
- أمر الكرك والشوبك
- وقعة مرجعيون
- معركة حطين
- فتح بيت المقدس

وقعة البابين :

كانت معركة البابين أول معركة حضرها صلاح الدين كقائد ثان مسئول فى حرب ، وكانت فى صعيد مصر جنوبى مدينة « المنيا » ومن الممكن أن يقال انه جرب نفسه فيها لأول مرة فاطمأن اليها واعتمد عليها ، ولعل مهارته فيها كانت عود الثقاب الذى أشعل افتتانه بالحرب ، وان كان حصاره بالاسكندرية بعدها قد خذله بعض التخذيل .

كان « شيركوه » أسد الدين لما زحف الى مصر قبل الفرنجة الذين استنجد بهم شاور السعدى ليعينوه على شيركوه قد عبر النيل عند الجيزة ثم اختار مكان الموقعة عند البابين بين النيل والجبل ليحتمى الجناحان بمواقع طبيعية منيعة (١) ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين على القلب والميمنة وبقي هو على الميسرة ، وفى خطط الحروب التقليدية أن يكون القائد الأكبر على القلب ، فبدل شيركوه الخطة ليخدع العدو .

ولحق به الفرنجة فوجهوا هجومهم على القلب ظنا منهم أن شيركوه يقوده لتكون الضربة حاسمة ، فتراجع صلاح الدين — حسب خطة مقررة — بالقلب والميمنة كأنه منهزم فتبعه « امرى » قائد جيش الفرنجة ظنا منه أن تراجعهم انهزام ، واستمر صلاح الدين يتراجع والفرنجة يتبعونه بثقل جيشهم حتى صارت مؤخرتهم أمام الميسرة التى لم تتحرك وعليها شيركوه ، فلما صار جيش الفرنجة أمامها تحركت لتعترض طريق تراجعهم .

وحين ذلك ارتد صلاح الدين مطبقا على الفرنجة من الأمام وعمه من الخلف فانحصر الفرنجة واستسلموا للضرب والموت ، وأسر قائد قلب العدو وقائد ميسرته ، ونجا « امرى » القائد العام فارا مع من استطاعوا الفرار ، ولم يلق شيركوه فى استيلائه على غنائم الفرنجة أى مقاومة .

(١) نور الدين والصليبيون ص ١١٤ — أبطال الوحدة ص ٨٢ .

وأعجب ما حدث فى هذه الموقعة أن ألفى فارس مع شيركوه وصلاح الدين هزمت عساكر شاور وفرنج الساحل معا ، وكان فرسانهم أضعاف فرسان شيركوه . ولعل صلاح الدين خرج من هذه الموقعة وقد وثق بنفسه وكفايته — وليس مثل الثقة يثرزقها المرء فى نفسه بلا غرور — وكان له أن يثق لأنه ظفر وانتصر .

ولكن صلاح الدين ما لبث حين مضى الى الاسكندرية ببعض العسكر وترك عمه بالصعيد أن وقع محاصرا بها ، وظل لا يستطيع فك الحصار مدة ثلاثة أشهر ، وفى هذه الشهور تعلم أقصى دروس الحصار ، فلم يقع بعد طول حياته فيه سوى ما حدث فى بلبس ، ولكنه كان مع عمه ، ولم يكن كحصار الاسكندرية .

حاصره بالاسكندرية الفرنجة والمصريون من أتباع شاور ، وعاونوه على فك الحصار المصريون الأحرار من أهل الاسكندرية وأعداء شاور ، وعرف صلاح الدين متاعب الحصار وأثره فى الجند والأهلين ولا سيما اذا تأخرت مواد التموين ، ولكنه عرف أكثر من ذلك وأهم : عرف شعور أحرار الاسكندرية نحوه ونحو نور الدين أو نحو المدافعين بايمان وصدق عن أكبر نفور المسلمين ، كما أسف وحزن لأن يجد هؤلاء الأحرار اخوانا لهم من المصريين يحاربونهم مع شاور ويقذفونهم بالنار والنبال ولكنهم كانوا مسوقين . وقد نفعه هذا الدرس فى حصار دمياط الذى جاء بعد ، ولكنه أثر فيه أثرا بالغا فكان يود ألا يعود الى مصر أبدا .

وفى زماننا ، هل يعد حصار القالوجة شيئا بذلك الحصار ؟ أظنه كامل الشبه به ، اذ ذاق فيه المحاصرون ويلات الحصار مائة وثلاثين يوما عرفوا فيها حاجتهم الى المؤونة والذخيرة ، ثم خرجوا بعدها كاملى العدة فى فهم حاجات المحاربين ومطالب الحروب ، واشتقت من القالوجة ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م وتوالت انتصاراتها ، كما توالت انتصارات صلاح الدين بعد حادثة الاسكندرية وتعلمه منها دروس الحصار .

ولم يكن حصار الاسكندرية أول حصار شاهده صلاح الدين فى حياته ، ولكنه شاهد وهو شاب حصار الفرنجة لدمشق أيام نور الدين ، وكان أبوه أيوب حاميا والمدافع عنها وكان يعمل تحت تديره ، فاتخذ أيوب من حيطان القوطة خطوطا مجيدة للدفاع عن مدينته ثم انصرف الفرنجة دون فتحها فكأنت بداية علمه بدروس الحصار (١) .

وقعة دمياط :

كانت وقعة الاسكندرية وصلاح الدين يعمل تحت راية عمه شيركوه لحساب نور الدين ، فلما صار صلاح الدين وزيرا للعاضد — وكان قد ذاق من الفرنجة ما ذاقه فى وقعة البابين وفى حصار الاسكندرية — رأى أن يبدأ جهاده ضدهم حين تم له نصف الأمر ، أى حين صارت له مصر ، أو يلقاهم — على الأقل — من الجنوب حين يلقاهم نور الدين فى الشمال ، فبدأ يشن الغارات عليهم وينازلهم بسرايا من جيشه على طريق الشام عند الكرك والشوبك وغيرهما .

وكما كان استقر فى نفس صلاح الدين من أنه لا بد من امتلاك الساحل كان الفرنجة يرون رأيه ويعملون له ، ورأى الطرفان أن مصر تمكن للمستولى عليها أن يؤثر فى امتلاك الساحل أو زعزعة أمر من يستقر فيه كلما شئت مصر . فلما استقر الأمر لصلاح الدين بمصر وصار وزيرها خاف الفرنجة على ساحلهم فاجتمعوا هم والروم فى سنة (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) وساقوا أساطيلهم البحرية مجتمعة الى دمياط فى نحو ستين سفينة من مختلف السفن تحت قيادة « كونستفانوس » البيزنطى (٢) ، وحشدوا بها كل آلات الحرب والمجانيق والدبابات وآلات الحصار ونزلوا بها الى البر .

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٦٠ .
(٢) نور الدين والصليبيون ص ١٣٥ — أبطال الوحدة ص ٩٦ .

وحتى لا يستطيع نور الدين معاونة صلاح الدين فى دمياط ساق الفرنجة جندا منهم فهاجموا حصن عكا واستولوا عليه من أحد مماليك نور الدين وكان قد ولاه عليه ، وظنوا أنهم فائزون ، فقد شغلوا نور الدين وغابت عنهم كفاءة شيركوه العسكرية بعد أن مات ، وبين الشام ومصر جفوة وقد حان لهم أن يستغلوها .

ولكن الجفوة وسقوط حصن عكا لم يؤثرا على نور الدين فأرسل من فوره أعدادا من الرجال والفرسان والميرة والسلاح الى دمياط ، وأخذ يناوش الفرنجة فى عدة حصون ببلاد الشام حتى يخفف من وطأتهم على دمياط ، وألهب نور الدين ظهور بلادهم وحصونهم بالغارات (١) .

أما صلاح الدين فكان قد سبق أسطول العدو الى دمياط وشحنها بالرجال والسلاح والميرة ، ولم يهمل شيئا مما كان أهمله فى الدفاع عن الاسكندرية من قبل ، ثم لم يلبث المسلمون والمصريون حين أحكموا أمرهم أن أطبقوا على الفرنجة من داخل دمياط ومن خارجها ولم يمكنوهم من اسكمال استعدادهم للزحف ، فهزم الفرنجة شر هزيمة ونهبت أموالهم وعدد الحرب التى حملوها وحرقت المنجنيقات الضخمة التى كانوا ابتداءوا فى نصبها ، وزاد هذا النصر لصلاح الدين تأييدا فى مصر ، وزاد له فى سمعته الطالعة تمكينا .

وكأنما عاد حادث دمياط بعد ثمانية قرون فى شاطئ « بور سعيد » ولقى الفرنجة هنا ما لقوا هناك ولم تعظم الحوادث ولا القرون ، فمن حيث تمت الهزيمة عليهم زاد نصر الرائد العربى تأييده وزاد فى سمعته الطالعة عزا وتمكينا .

ومن الحق أن يعترف لنور الدين وللعاقد بفضلهما فى هذا النصر ، فقد اشترك نور الدين بجند الشام فى المعركة ذاتها ، ثم نزل هو بجند آخر على الكرك وحاصرها فشنت قوى الفرنجة وخفف عن صلاح الدين (٢) .

(١) دول الاسلام ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢ .

أما الخليفة العاضد فقد بذل أموالا عظيمة لصالح الدين أعانته على النصر في المعركة ، ومع أن صلاح الدين كان قد أصبح وزيرا متحكما لا يرد أمره في شيء فقد أقر بفضل العاضد فقال : ما رأيت أكرم من العاضد ! أرسل الى مدة اقامة الفرنجة على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها (١) .

وفي اثر هذا الانتصار رأى صلاح الدين أن يقلد أباه أمر الوزارة فأبى مفضلا أن يكون في معونة ابنه خازنا على بيت المال حتى مات العاضد ويقول ابن خلكان : ان صلاح الدين يوسف بن أيوب كان يريد أن تكون قصته مع أبيه مشاكلة لقصة يوسف الصديق ابن يعقوب عليهما السلام (٢) .

حملة على الاسكندرية :

ولم تردع الفرنجة هزيمتهم في دمياط ، وطمعوا في صلاح الدين حين صارت له مصر والشام وتوزع جنده على كثير من المواقع والحصون ، وأصيب ببعض المتاعب عند الكرك والشوبك ، فعادوا سنة (٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م) مهاجمة الاسكندرية ، وكانت قد وقعت في مصر بعض الأمور التي تحدثنا عنها في باب سياسة السلطان من قبل ، فظن الفرنجة أن الساعة قد حانت فداخلهم الطمع وجردوا حملتهم البحرية في سفن كثيرة قدرت ما بين الثلاثمائة والستمائة من مختلف قطع الأساطيل وزحفوا على الاسكندرية في ثلاثين ألفا أو قريبا منه .

ولكن حرب دمياط كانت قد علمت صلاح الدين وعلمت المصريين أسباب النصر ، فحشد صلاح الدين بالاسكندرية الرجال والسلاح والميرة وتهيأ عسكره وأهل الاسكندرية للقاء الغزاة ، ولم ينس صلاح الدين

(١) ذيل النوادر ص ٢٦٢ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٣٣ - وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٥٣ .

دمياط مخافة أن ينزلق إليها أسطول العدو اذا رمى صلاح الدين بثقله فى الاسكندرية (١) .

فلما جاء أسطول العدو ونزل بعضه الى الشجر لم يجد بعد ثلاثة أيام الا هزيمة نكراء بعد أن استنفد الفرنجة ما لا مزيد عليه من فنون القتال ، فارتدوا عن الاسكندرية بعد أن خلفوا وراءهم غنائم لا تحصى وآلات عديدة من أحسن آلاتهم فى الحروب .

ولئن كان لشيركوه شركة وفضل مع صلاح الدين فى موقعة البابين وحصار الاسكندرية الأول فان صلاح الدين قد انفرد ببطولة دمياط وحصار الاسكندرية الثانى ، وصار ينفرد وحده بالمجد والذكر .

أمر الكرك والشوبك :

الكرك اليوم اقليم فى الأردن فى مكان جنوبى القدس الى الشرق خلف بحيرة لوط ، وكان بالكرك قديما حصن منيع يشرف على طريق الحج والتجارة . والشوبك فى جنوبى الكرك على الطريق نفسه ، وكانت به قلعة حصينة كذلك ، وموضعهما من الطريق يدل على قيمتهما فى التحكم فى الطريق بين مصر والحجاز من ناحية والشام من الناحية الأخرى .

والمنحدر من الشام الى الحجاز أو مصر اذا فاته أن يندحر أمام الكرك اندحر فى الشوبك ، والصاعد كذلك ، يتولاه الشوبك فالكرك ، كلاهما قد رقد خلف الآخر واستعد لكل عابر ، ومن قلعتيهما — غير قطع الطريق — مدد السلاح والميرة للفرنجة فقد كانتا مخازن له . ولم يصر لقافلة أن تسير من هناك فتنجو الا اذا رافقتها قوة ضاربة ، وكان على صلاح الدين نفسه أن يترك دمشق أو يترك القاهرة ليرافق كل قافلة يريد

(١) صلاح الدين الأيوبي وعصره ص ٨٩ .

لها أن تمر من هناك (١) . فأراد أن ينهى أمر هذا الممر الشائن لتتصل البلاد وتأمين السابلة وتمر القوافل .

ولم يكن هناك طريق يصل بين الشمال والجنوب غير هذا الطريق الا من جانب الساحل ، عند عسقلان ، وكانت عسقلان أيضا فى يد الفرنجة تقوم بعمل الكرك والشوبك فى قطع الطريق ، ففكر فيها صلاح الدين أيضا ولكنه أجل أمرها لأنها محمية بالأساطيل . وهذا الممر الشائن من ساحل البحر حتى حدود الأردن تحتله اسرائيل اليوم ، قد عاد الأمر الى ما كان .

وكان على الكرك والشوبك فرنجى مقاتل عنيد اسمه البرنس « رينولد » سماه العرب « أرناط » فتوجه اليه صلاح الدين بجنده فى أول غزوة جدية أرادها وحاصره وناوشه ، ولكن الحصار والمناوشات لم تنته بطائل ، فارتد صلاح الدين عن حصاره وفى نفسه غيظ كبير ، ولكنه عزم عزما قاطعا على أن يؤمن الطريق .

والحق ان نور الدين محمود كان له السبق فى مناوشة صاحب الكرك ، فقد حاصره سنة (٥٦٥ هـ - ١١٦٩ م) ونصب على قلعته المنجنيق وطلب الى صلاح الدين أن يوافيه عندها فامتنع خوفا من أن تضطرب مصر عليه فبقى واعتذر لنور الدين (٢) .

وبدا للفرنجة بعد هزيمة منى بها صلاح الدين عند الرملة سنة (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) وأسر عدد من رجال غاراته منهم صديقه الفقيه عيسى الهكارى — بدا لهم أن يحاربوا المسلمين المجتمعين عند « عين جالوت » ولحقت بهم أمداد الكرك والشوبك ، وكان صلاح الدين فى حلب فانهدر مسرعا الى دمشق فيسان ولحق بأمداد الكرك والشوبك فى طريقها ونازلها من فوره فقتل منها مقتلة عظيمة ، وأسر زهاء مائة من

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٣ .

(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٥٦ .

رجالها . ويقول مؤرخو المسلمين ان صلاح الدين لم يفقد فى هذا الاشتباك غير رجل واحد اسمه « بهرام الشاوش » فاذا كان الأمر كذلك فقد أخذ صلاح الدين عدوه على غرة وأوهى قوة عدوه « أرناط » .

وقد حاول صلاح الدين أن يجبر الفرنجة جميعا الى معركة فاصلة هناك ، وبذل من الحيل والتعميمات كثيرا فلم يمكنوه من اللقاء ، وتركهم متظاهرا أنه يقصد الطور لعلهم يدعون أماكنهم التى تحصنوا بها فيرجع اليهم فلم يدعواها ، فرجع اليهم وسائرهم من « صفورية » الى « عين جالوت » وكان كلما دنا منهم بجنده تداخلوا وادغموا فحمى فرسانهم رجالتهم وحمى الرجالة الفرسان دون أن يلتقوا به أو يمكنوه .

ومهما يكن صلاح الدين قد عاد من عين جالوت منهوك القوى فارغ الزاد فقد أجهد العدو ونال منه وخرب بعض حصونه وقراه ، ثم عاد حتى يستجم المطوعة ويستعد للقاء أشد وجيش أكبر لازالة هذه العقبة الكؤود من الطريق .

وكذلك عوض أسطول مصر كل الخسارات التى منى بها صلاح الدين : فقد كان صاحب الكرك قد طغى وجاوز حده فأعد فى سنة (٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م) أسطولا عند أيلة بالبحر الأحمر وسير فيه فرقتين : فرقة على حصن أيلة تحاصره ، وفرقة سارت نحو « عيذاب » تفسد فى البحر الأحمر ، فبغتت المسلمين ، ولم يكن المسلمون قد عهدوا بالبحر الأحمر فرنجة قط ، ثم مضت نحو « رابغ » تريد الحجاز لتمحو مكة والمدينة ، فقد أراد البرنس أرناط أن يخلع جذور الاسلام .

فسار « حسام الدين لؤلؤ » بقطع من أسطول مصر أعدها على البحر الأحمر ، وبدأ بالفرقة التى تحاصر « أيلة » فأبادهها وأفناها قتلا وأسرا ، ثم تبع الفرقة الثانية وكانت قد أمعنت مضيا فى البحر فاقتفى أثرها فبلغ رابغ فأدركها بالساحل ، وهناك استيأس « لؤلؤ » فى قتالها فأمكنه الله

منها فأبادها كذلك قتلا وأسرا ، وأهدى اثنين من أغدر رجالها الى « منى » لينحرا بها ، وعاد بالأسرى الى مصر فحصدوا جميعا (١) .

ولم يهدى ذلك كله من عناد « أرناط » فمضى في غيه ومكره ، وصار لا يمر رجل ولا قافلة من التجار أو الحجاج الا تعرض له بالشر والقتل ، وكان أشد ما يكون غيه ومكره أيام الحج وأهل الشام ومن وراءهم ماضون الى فريضتهم في الطريق .

وفي السنة التالية لظفر الأسطول بفرقتى أرناط استعد صلاح الدين في دمشق ، وأرسل الى أخيه العادل نائبه على مصر أن يلقاه بجند بلده على الكرك ، وارتحل هو الى الشمال في جولة عند آمد وعينتاب وحلب وحارم ليخفي خطته عن « أرناط » ، حتى اذا تجهز الملك العادل وسار بخلق عظيم من مصر وافاه صلاح الدين هناك بعد أن عبر الأردن وأحرق بيسان ، ولكن العدو ثبت متمكنا في حصونه فارتد العادل وصلاح الدين عن الكرك يائسين .

وكذلك فعل صلاح الدين في العام التالي فأطبق على الكرك من الشام وابنه الملك المظفر من مصر ، ثم ارتدا عن الحصن كما ارتدا من قبل ، ولكن بعد هدنة عقدها مع أرناط ، وكان من بنودها أن يدع أرناط قوافل الحجاج تمر دون أن يعترضها .

ولكن أرناط ما لبث أن نقض عهده فاعترض في سنة (٥٨٢ هـ — ١١٨٦ م) قافلة مصرية عظيمة للتجارة وأسرها وأخذ ما معها فذكره رجالها بالهدنة فغضب وقتل عددا منهم . ويبدو أن الفرنجة كانوا في ضيق لقلة الموارد ، فجعل « رينولد » أمير الكرك يهاجم القوافل مع أنه خسر في عملياته معظم كتائبه (٢) . وعلم السلطان فطلب من صاحب الكرك اطلاق

(١) ذيل النوادر ص ٢٨١ .

(٢) تاريخ العرب لسيدو ص ٢٦٣ .

التافلة فلم يفعل ، فأسرهما له صلاح الدين وأقسم أن يقتله لو أمكنه
الله منه !

وقعة مرجعيون :

وقد يبدو أن صلاح الدين مع ما امتلك من حصون وقرى على الساحل وفي الداخل وفي الشمال — قد ضعف نهائيا عن صاحب الكرك ، وأنه لم يكسب أكثر من تردده على الحصن والرجوع عنه ببعض الغنائم في مقابل بعض الخسائر ، ولكن صلاح الدين كان ينتصر في معارك أخرى انتصارا حاسما هو أكثر من قيمة الكرك والشوبك وعسقلان لو لم تكن هذه الحصون قائمة تسد الطريق .

فقد حدث في المحرم سنة (٥٧٥ هـ - ١١٧٩ م) أن رأى السلطان ومستشاروه أن يقتحموا على الفرنجة بلادهم ويستوعبوا في وثبة واحدة ما بأيديهم من الغلات ، فرحلوا صوب اقليم « البقاع » شرقي جبل لبنان ، فالتقى بهم الفرنجة عند « مرجعيون » في عشرة آلاف مقاتل ، وما أن التقى الجمعان حتى أسفر اللقاء الأول عن هزيمة مشاة الفرنجة ثم تبعهم الفرسان والشجعان يقعون قتلى وأسرى .

ووقع في الأسر مقدم « الداوية » أو الهيكليين فرسان المعبد ، وكانوا فرقة من الرهبان قد حبسوا أنفسهم على الجهاد وزهدوا فامتنعوا عن الزواج والشهوات ثم تعاونوا القوة وعالجوا السلاح ، ولا طاعة عليهم لأحد (١) . وقد صارت لهم أموال وحصون أهمها ما كان بين الرقة وحلب ببلاد الشام .

ووقع في الأسر كذلك مقدم « الاستبارية » — وهو لفظ محرف عن الفرنجية قليلا — وكانوا يسمون « ضياف الغربا » وقد بدءوا في القرن التاسع الميلادي بإيطاليا ، ثم في بيت المقدس ، فلما اشتركوا في الحروب

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٦٤ .

المقدسة انقلبت حالهم من علاج المرضى وإيواء الغرباء فصاروا من أشد الفرق قساوة وضراوة فى الحروب والعناد .

ووقع فى الأسر « ريمون » صاحب طرابلس « وهوج القيصرى » أمير طبرية و « بولدوين » أمير الرملة ثم أصحاب جبيل وجنين ، ويافا وابن صاحب « مرقية » وعدد كبير من خيالة القدس وعكا ما يزيد على مائتين وثيف وسبعين ، ولم يفك مقدمو هؤلاء أنفسهم الا بعشرات الألوف ومئاتها من الدنانير الصورية أو القطائع التى كانت بأيديهم واطلاق من كان لديهم من أسرى المسلمين ، وقد هلك منهم فى الأسر كثيرون منهم مقدم الداوية الذى سلمت جثته لقاء فك أسير من أسرى المسلمين .

وقد بعث صلاح الدين الى بغداد بجماعة من أسرى « مرجعيون » وتحف وثقائس فوصلت قبل أن يموت الخليفة المستضىء بقليل من الأيام (١) .

ثم انصرف صلاح الدين عن مرجعيون مفرقا جيشه الى فرق تغزو الفرنجة فى بقاع الشام كافة وخارج حدودها ، فنازلتهم هذه الفرق فى « بانياس » على أبواب دمشق ، وفى « جب جنين » بسهل البقاع ، وفى غور الأردن ، وفى بيروت ، وعلى الفرات والرها ونصيبين وسنجار وحران .

غير أن أهم ما حدث فى تلك الغزوات استيلاء صلاح الدين على قرية فى الأردن تسمى «طبرية» وكانت تابعة لريمون صاحب طرابلس الفرنجى ، وكان هذا قد هادن السلطان حين أطلقه ودخل فى طاعته ، فأرسلت الفرنجة اليه بطريقكا وقسوسا يهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه على ما فعل ، فانقلب معهم ورجع فعادى السلطان (٢) .

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٥ - دول الاسلام ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) ذيل النوادر ص ٢٨٩ .

معركة حطين :

وحين مكن الله لصلاح الدين فى معركة « مرجيـون » من رقاب قادة الفرنجة ورؤسائهم رأى أن يسـنـبـر غور المجد كله فتابع الجهاد ، وناـدى فى عسكره وعساكر النواحي أن يجتمعوا لديه فى مرج صـفـورية ، فلما اجتمعوا سار بهم الى طبرية . وما كاد يـطـأ أرض القرية فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنة (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) حتى سلمت له فى ساعة من نهار ، فقد فتحها عنوة وعملت فيها أيـدى الجند ما شاءت ، ولم ينج فيها مكان من الويل الا قلعـتها وحدها فقد تأخرت عن التسليم .

ومنذ وقعت طبرية فى يد صلاح الدين أوشكت معركة الجليل أن تكون ، حتى يتم فيها مجد بطل المسلمين ، ثم ما لبثت أرض الجليل أن شهدت مشاهد لخسائر صليبية فادحة منذ أقبل اليها صلاح الدين يقود عسكراً جراراً مخيفاً من المسلمين يبلغ عدده ثمانين ألف محارب ، امتلك بهم طبرية فى بضع ساعات من نهار ، حيث تنحى عنها « ريموند » حاكم طرابلس الصليبي على الفور (١) .

وحين شاهد الفرنجة مصرع طبرية العاجل الرهيب تجمعوا والتأموا فى خمسين ألفاً تحت راية « جوى » ورأى مجلس المشورة فى القدس أن يجتمع الصليبيون فى « صفورية » ، ولكن « ريموند » صاحب طرابلس — وكان قد علم باتساع الخطة التى دبرها صلاح الدين ورأى جيوشه وقوته بعينه فترك له طبرية — خطب فى الصليبيين يقول :

« انه لأمر » ذو حماقة أن نخاطر بعساكرنا فى أرض قفر أمام صلاح الدين . وان صلاح الدين لا بد من أن يرحل عن طبرية اذا لم تتقدم اليه وقد تركتها بارادتى للعدو لكى أحمى معكم مدينة أورشليم . وان طبرية اذا ضاعت فلن تضير المملكة اللاتينية بالقدس شيئاً .. وان انقاذ طبرية

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٨٣ .

يهمنى شخصياً أكثر مما يهمكم أنتم يا أصحاب السمو الأمراء ، فهي خاضعة لسلطاني وفيها امرأتى وأولادى وثروتى . ولكنى لا أرى ما ترونه من وجوب مهاجمتها . لأننا حين نخطو هذه الخطوة نكون قد وقعنا فى الشرك الذى نصبه لنا صلاح الدين . وليس من غرض له الا استدراجنا الى الخروج من صفورية لمنطقة صحراوية قاحلة فى شهر تموز (يوليو) حتى نهلك فيها من العطش وحد السيف (١) .

ولكن هذا رأى الذى يعده مؤرخو الفرنجة ممثلاً حكمة واتزاناً لم يتقبل من القواد الآخرين ، وشكوا فى « ريموند » للمودة التى كانت بينه وبين صلاح الدين ، فصدر الأمر لعساكر الفرنجة بالزحف من فورها الى الحرب واتخذت طريقها الى طبرية لتلقى صلاح الدين (٢) .

وتحرك الجيش الصليبي فى ربيع الآخر سنة ٨٣ هـ فى اليوم الثانى من حزيران (يونيو) سنة ١١٨٧ م من سهل صفورية قاصداً طبرية كأنه جبال تتحرك أو أمواج بحر تثور وتزبد ، فلما تحقق صلاح الدين من سيرهم اليه قرت عينه وابتهج قلبه ليقينه بالنصر ، وبات هو وجنده فى ليلة كلياالى العيد .

فلقد طالما تمنى لقاء عدوه فى معركة مكشوفة فلم يمكنه عدوه ، فحان له فى طبرية ما تمنى ، وكان صلاح الدين فارساً جرىء الجنان ، مثل ذلك العربى الذى سأل الحجاج بن يوسف يوماً أن يفسر له جرأة جنانه حين ادعاها فقال له : أما جرأة جنانى فانى لم ألق فارساً قط الا كنت عليه فى نفسى مقتدراً ! فكذلك كان صلاح الدين قائداً جرىء الجنان وكان عليهم مقتدراً فى نفسه فبات ليلته فرحان .

وكان على « ريموند » صاحب طرابلس أن يطيع أوامر الفرنجة فسارت عساكره فى المقدمة خضوعاً لرأى الأغلبية ، وسار فى القلب جمهور

(١) صلاح الدين الأيوبي ص ٧٤ .
(٢) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٥٩ .

عظيم من أعيان العساكر وأبطالهم مع عود الصليب الحقيقى — كما قيل —
يحملة مطران عكا ، وسار ملك « أورشليم » مع الخيالة الهيكليين وجماعة
ضياف الغربا فى مؤخرة الجيش .

فلما صاروا على ثلاثة أميال من طبرية التقت مقدمتهم بمقدمة صلاح
الدين ، وبدأ التناوش من بعيد ، وما كادت شمس الجمعة ثالث أيام
حزيران تطلع حتى التحم العسكران التحاماً متواصلاً ، ذاق فيه الفرنجة
طعم موت مرير ، ورأوا فيه فنونا من القتال لا قبل لهم بها ، وبعد مقتله
فطية فصل الليل بينهما فهذا الميدان .

حتى اذا أشرقت شمس السبت فى الرابع من حزيران أسرع مؤخرة
الصليبيين وفيها ملك القدس وأشد فرسانهم وأبطالهم ، لتدرك بحيرة
الجليل فأطبق عليها المسلمون من كل جهة يرشقونها بالنبال كأنها شأيب
المطر ، فدخل الملك خيمته وهو خائف مرتعب وقد وثق أن الموت قد
أحاط بهم .

وكانت حرارة حزيران تلتهب فوق قضبان من الأعشاب اليابسة التى
تكسو أرض المعركة كلها ، قد رمى المسلمون عليها النيران فاشتعلت
وتأججت ، وكان الصليبيون قد وردوا هذه النار عطاشاً فبحثوا عن الماء
وراحوا وراءه فى كل مطرح فلم يجدوه ، ووقف المسلمون حائلاً بينهم
وبين بحيرة الجليل .

وبعد نهار وبيل غظاهم ليل من الضيم والذل ، فلما طلع النهار
التالى أخذوا بالمسير عرضاً يصعدون فى التلال العسرة قرب البحيرة
فاندفعت نحوهم عساكر صلاح الدين بصيحات ترعش المفاصل . ولقد
جال فرسانهم مرة ومرتين واستبسل أبطالهم وخاضوا بخيلهم فى صفوف
المسلمين ، ولكن الخوف الذى ملكهم والاضطراب الذى ساد صفوفهم
والعطش الذى أصابهم وأخذ عود الصليب من يد حامله — كل ذلك دفع

بهم الى اليأس والانتحار فجعل من لا تأكله النيران يلقي بنفسه على
الحدائد والسيوف أو يلقي سلاحه مستسلماً لعسكر صلاح الدين .

وسرعان ما كان الفرنجة متمزقين قطعاً قطعاً ، وجنود صلاح الدين
تحيط بهم فرقة فرقة ، وجعلت كل قطعة منهم تذوب بين أيدي المسلمين
ذوباً سريعاً ، الا قطعة واحدة كانت قد تجمعت بكامل عدتها واعتصمت
بتل هناك يقال له « حطين » بين طبرية وعكا ، بينه وبين طبرية مسافة
فرسخين (١) ، وما أن تجمعت هذه القطعة حتى رأت نفسها محاصرة
من المسلمين والموت يتلقفها من كل جانب ، وبلغ من قتل منهم فى ذلك
اليوم أكثر من عشرة آلاف (٢) ، ولم ينج من الموت الا هارب أو أسير .
ولم يجد قواد الفرنجة الا أن يجيئوا مسلمين ، ومن وراءهم أعداد
هائلة متهافئة على الأسر تنتظم فى جباله ، حتى لقد رأى جندى من جنود
حوران يجز فى طنب خيمة واحد نيفا وثلاثين أسيراً ، أخذهم وحده ،
ونظمهم فى جبل خيمة وجرحهم به لفرط ما أصابهم من الرعب والخذلان .
ولم تكنف أطناب الخيام لربط الأسرى . ثم رأى المائة والمئتان قد
اجتمعوا فى مكان واحد تحت حراسة جندى واحد من جنود
صلاح الدين (٣) .

ووقع فى ذلك اليوم من الأسرى ملك بيت المقدس « جوى »
وصاحب جبيل وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الأستار ،
وهؤلاء غير من قتلوا وأسروا ، وكان الصيد الثمين فى معركة حطين
البرنس « أرناط » صاحب الكرك والشوبك وعدو الاسلام اللدود .

أما « ريموند » صاحب طرابلس وقائد المقدمة فانه لما لقي المسلمين
ووجد بأسهم — وكان فارساً جباراً — فقد فتح له منفذاً فى صفوفهم

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٥٩ .

(٣) النوادر السلطانية ص ٦٣ .

فأفسحوا له ليقطعوه وفرقته عن بقية الجيش الزاحف ، فلما وجد نفسه قد انزل عن الجيش رأى أن يفر ففر ومعه بعض جنده الى طرابلس ، ولم يعش طويلا فقد أصابته ذات الجنب فهلك من قريب (١) .

وقد اتفق رواة العرب ورواة الفرنجة على هول الكارثة فقال ابن الأثير : ان الذى كان يشاهد عدد القتلى لم يكن يظن أن هناك غيرهم أسرى ، ومن كان يشاهد عدد الأسرى لم يكن يظن أن هناك غيرهم قتلى . وأخبر بعض مؤرخى الفرنجة أنه مر فى مكان المعركة بعد عام فشاهد عظام القتلى من الفرنجة فى أرض المعركة ما تزال آكاماً متراكية أو نثاراً مبددة ، غير ما أكلت السباع والجوارح وما ساقطت المياه الى الوديان .

وكان جبل حطين ذلك الذى كسى بالدم جبلا متواضعا ، سمي — من قبل — جبل التطويبات ، اذ صعد فيه السيد المسيح حين أُنذر البشر بديانة ذات صلح وسلام ومحبة ، فأكثر من قوله : طوبى .. طوبى .. ولم يكن يُثنى فى تطويباته الا على الفقراء والمتواضعين دون الطغاة والمتكبرين .

وقد عجب بعض رجال الكهنوت من أن يكسى جبل التطويبات بالدم ، ولكنها كانت نبوءة صادقة للسيد المسيح ، اذ نكس البطاشون عليه رؤوسهم ، وأصبح الأمراء المختالون المعاندون فى ذلة الصعاليك ، وصارت الأسد الزائرة كالأغنام المبددة فى كل واد ، وأقبل على حطين مصرع طاغية متجبر لم يرع للعهد حقاً ولا ذمة ولم يخش الله فى دم برىء .

وكان البرنس « أرناط » « رينولد دى شاتيون » صاحب الكرك قد أسر فى عهد نور الدين محمود ويبيع بحلب ، ثم انتصر الفرنجة فانطلق أرناط فى وقعة الرملة (٢) ، فكان جزاء المسلمين منه تكبره وتجيده واشتداد قسوته ، فكان اذا غلب لا يخفر ذمة ولا يرعى عهداً .

(١) النوادر السلطانية ص ٦٢ — ذيل النوادر ص ٢٨٩ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٤٢ .

وهادنه صلاح الدين على أن يدع قوافل السلم للحج أو التجارة تمر دون أن يعترضها ، فاجتازت به حين الهدنة قافلة مصرية تريد الحج فغدر بها وأخذها فنكل برجالها وعذبهم وأدخلهم المطامير والجبوس الحرجة ، فذكروا له الهدنة والعهد ورعاية الميثاق ، فتناولهم بالأذى وسب نبيهم بلسان بذىء ، ولعله سبه بالعربية فقد كان أوفر أمراء اللاتين المأما بها .

وبلغ صلاح الدين كل ما فعل وقال فأخذته حمية الدين فنذر الله أن يقتله بيده ان أظفره الله عليه . فلما دارت الدائرة على الفرنجة فى حطين نصب السلطان خيمته ومر جنده أمامها بالأسرى فى أيديهم ، وجيء بالملك « جوى » وقريبه البرنس « أرناط » — كما قيل — فلقبهم السلطان فى خيمته ، وأجلس « جوى » ملك القدس الى جانبه ، وكان يلهث من العطش فأمر له السلطان « بجلاب مثلوج من قشع الزبيب ، فشرب بعضه فأطفأ عطشه — والجلاب معروف الى اليوم بالشام ولبنان يطفئون به العطش فيطفئه من قريب — فلما روى مد يده ببقية الكأس الى « أرناط » فمنعه صلاح الدين أن يشرب أمامه لأنه لم يأذن له .

وكانت عادة العرب قد جرت على أن الأسير يأمن القتل اذا أذن له بطعام أو شراب ، وجرت عادة صلاح الدين على ما كان العرب يفعلون ، فكان شرب أرناط للجرعة المثلوجة من الجلاب ايذاناً له بالنجاة من الموت ، ولكن صلاح الدين كان قد أقسم أن يقتله ان أظفره الله به ، وأقسم على ذلك مرتين .

ولم يحث صلاح الدين فى قسمه ، ولم يهمل عادة العرب ، فان البرنس لم يشرب باذن منه ، وانما ناوله صاحبه ليحتال لخلاصه ، فقال صلاح الدين : انه لم يأذن له . وثقل الترجمان لهما ما قال صلاح الدين .

ورأى صلاح الدين أن يثبرىء ذمته من دمه فعرض عليه الاسلام لعله ينجيه فأبى ، فقال له صلاح الدين : ترى لو ركبت أنا رأسى وسلكت مسلكك ثم وقعت أسيراً فى قبضتك فأى المواقف يكون موقفك

منى ؟ فأجاب أرناط فى غلظة وغفلة وقحة : أقطع رأسك دون تردد !
فاتنفذ السلطان وصاح به : يالك من وقح ! أفى خيمتى وتحت رحمتى
تجيبنى بهذه اللهجة (١) ؟ ثم تقدم منه وسل خنجره وضربه ضربة حلت
كفنه ، ثم أشار الى الحراس أن يجهزوا عليه ، فأخذته السيوف ، ثم
طرحته جثته خارج باب الخيمة .

ولم يعتب أحد على جزائه فقد رآه كثير من المؤرخين أشد زعماء
اللاتين مغامرة وأكثرهم تعديا وتقضا للعهود (٢) ورأى بعضهم أن مغامراته
كانت الثغرة التى سببت انهيار المملكة اللاتينية فى القدس أو عجبت
بانهيارها . وطالما أنذره صلاح الدين وطلب منه ارجاع ما اغتصبه من
قوافل التجار والحجاج فتمادى ولم يأبه فكان عقابه الخلاص منه (٣) .

ولما رأى الملك قتل أرناط فزع على نفسه فأمنه صلاح الدين وطيب
خاطره اذ لم يكن جناية أرناط وان كان عدواً ، وقال له : لم تجر عادة
الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فانه تجاوز حده فلقى ما لقى . وكان
قولة صلاح الدين فى عادة الملوك ألا يقتلوا الملوك قد جرت الى زماننا
وفى مصر وحدها فقد تترك فى مصر ملك مخلوع دون أن يمس بالأذى
وودع بالحفاظ عليه وعلى ماله الذى يحمله ، وكأنما جرى عليه حكم
صلاح الدين وكان حكما كريما نبيلاً .

حتى اذا انتهى صلاح الدين من أمر أرناط أمر أن يؤتى بالجماعات
المتعصبة المعاندة من فرسان الداوية والاستتارية فمروا بهم قدامه وهم فى
كبول الحديد فصرخ فيهم قائلاً : أريد تطهير الأرض منكم . ثم سلط
عليهم الفرسان فأخذوهم بظبات السيوف وطرحوا أجسادهم كل مطرح .
وهكذا قضت وقعة حطين على قوى الفرنجة التى تجمعت حول التل ،
وتخطت فى سرعة مذهلة ذلك المكان الى كل الأمكنة حوله من قريب

(١) صلاح الدين الأيوبي ص ٧٨ .

(٢) تاريخ العرب المطول ص ٧٦٦ .

(٣) الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ص ٥٨ .

أو من بعيد ، ولم يصب الفرنجة ولا وقعت بهم كربة منكرا منذ خرجوا الى الشام فى سنة (٤٩١ هـ - ١٠٩٦ م) أشد وأدهى مما وقع بهم فى حطين (١) .

وأحسن المسلمون بقوتهم ولم يضيعوا نصرتهم فى زهو أو خيلاء ، فمضوا تحت راية قائدهم العظيم فأزالوا الحامية الفرنجية من قلعة طبرية ، ثم مضوا الى عكا فاحتلوها وأنقذوا منها أربعة آلاف أسير من المسلمين ، واستولوا على ما فيها من أموال وذخائر ، ووقعت فى قبضتهم متاجر ضخمة لا تعد صنوف بضائعها ، فقد كانت عكا موطن تجارة ومرفاً بضاعة وتصدير .

وتفرقت العساكر على الساحل وفى الداخل ، فسقطت فى أيديهم الحصون والقلاع ، واستولوا على نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرية ثم قصد السلطان « تبين » فى جبال بنى عامر المظلة على بانياس بين دمشق وصور (٢) فاحتلها ثم مضى الى صيدا فأذغنت له ثم الى بيروت فأذغنت وأسلمت اليه القيادة .

وكر صلاح الدين راجعا من طريق الساحل عابرا بعيدا عن « صور » لتجمع عساكر الفرنجة بها ، فوطىء أرض فلسطين بالرملة فالدارون فعسقلان ، ثم أجلى الفرنج عنها واحتلها بعد أن احتلوها خمسة وثلاثين عاما (٣) . وقصد بعض جنده القلاع حول القدس ثم احتلوا غزة والبطرون وبيت جبرين (٤) .

وقد بدت عظمة صلاح الدين فى القيادة فى فتوحه بعد حطين ، اذ قسم جنده أقساماً : فسار ثقل جيشه معه يطوف الساحل جنوباً حتى

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٠ - معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ١٤ .

(٣) النوادر السلطانية ص ٦٥ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٨ .

عسقلان ليؤمن طريق مصر من الساحل ، فيما عدا صور ، واتجهت فرقة من جيشه الى الساحل الشمالى من صيدا حتى جبيل قرب طرابلس ، واتجهت ثالثة من الناصرة عرضا حتى غزة ، وأما مصر حتى اليمن والشام حتى آمد والموصل فكان قد أمنهما من الداخل منذ عهد بعيد . وبذلك طهرت منطقة القدس أو كادت تطهر من الأعداء (١) ، وبات الأمر أمر صور وبيت المقدس ، أما الكرك والشوبك فقد قتل عنهما أرناط وتوشكان أن تسلما .

فتح بيت المقدس :

كان المسلمون قد أهملوا العمل ، حتى علمائهم أهملوه ، ولجأ ألوف منهم من مختلف الآفاق الى بيت المقدس يعيشون فيه ويجاورون المسجد الأقصى ، فعادت للمسجد الجامع أبهته وتم رواؤه من حيث تعطلت مرافق كثيرة فى البلدان بسبب هذه الأبهة وهذا الرواء .

ولم تجدد العبادة هؤلاء نفعا حين تركوا أمر الجهاد فقتلت منهم مقتلة عظيمة ذهبوا من بين سبعين ألفا من سكان القدس أبادهم الفرنجة قتلا وذبحا واحرقا سنة (٤٩٢ هـ - ١٠٩٩ م) بل امتدت أيدي الصليبيين أيضا الى اليهود فنالتهم بالثقتيل والاحراق والتعذيب .

وصارت مملكة بيت المقدس التى انتزعها الصليبيون من الدولة العبيدية أعظم دولة للفرنجة أقيمت فى المنطقة ، وأوسعها رقعة ، اذ امتدت حدودها من شمال بيروت الى جنوبى عسقلان ، واشتملت على جميع الأراضى المحصورة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط ، كما شمل نفوذها المنطقة الشرقية للاردن والبحر الميت وبلغ خليج العقبة ، وكانت هذه المنطقة الشرقية للأردن تعرف بامارة الكرك ، ومتولى مملكة القدس يلقب ملكا .

(١) وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٧٨ .

ومنذ وقعة حطين وقع في قلوب المسلمين والفرجة أن يوم القدس قد حان ، ولم يصبح بعيداً ، وقد هان أمر القدس ولم يَعتد مخوفاً لأن معظم حاميتها قد هلك في حطين ، ومع مَنْ صار إليها من هاربي طبرية وحطين وعسقلان وكل الحصون التي فتحت بعد حطين فإن أمرها أصبح ميسوراً ، ونية فتحها باتت معلومة مشهورة وإن كان صلاح الدين قد عمى خطته إذ فرق جيشه إلى جهات غيرها ثم أذن لمن شاء من المنفيين من أسره أن يسيروا هم ونسأؤهم وأولادهم إليها .

وكان صلاح الدين والمسلمون يرون امتلاك الفرجة لبيت المقدس أمراً قد وسع الخرق على المسلمين ، وقد فكر في أمره وهو في مصر ، ولكنه رأى أنه لا يتمكن منه وهو بمصر ، لبعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب عن المسير ومتابعة الجهاد ، وقد جرب فهلكت القوافل عند الكرك والشوبك عدة مرات ، فرأى أنه لا يمكنه فتح البيت إلا من الشام ، فرأى أن يملكها ويسوق الجند منها فيكون الفتح قريباً والحرب سهلة التكوين (١) .

وما حدث في زماننا عند العدوان الثلاثي وسحب الجيش المصري حين ذاك من صحراء سيناء توضح حكمته تجارب صلاح الدين عند الكرك والشوبك ، فكيف وقد كان طيران الأعداء فوق رؤوس جنودنا في العدوان الثلاثي والصحراء مكشوفة واسعة المدى ، والعدو محكم خطته وغدره ، فكان الأمر بانسحاب الجيش إحدى فرائد رائدنا العظيم تؤيده فيها تجارب صلاح الدين .

ووحدة مصر والشام كانت سر خوف العدو الدائم أيام صلاح الدين كما هي اليوم سر خوفه ، إذ يد الشام أقرب وأطول لتتال كل جيب في هذه المنطقة وتقدر عليه ، وهذا سر ما قاله « سيديو » : من أن توحيد البلدين كان فيه سر ما أصاب الصليبيين من قوارع .

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩ .

وبعد وقعة حطين أصبحت آمال صلاح الدين نية واجبة التحقيق ،
فقد بلغ فى المعركة أوج عظمته وانتصاره ، كما بلغ الفرنجة حضيض
انهزاماتهم ، ولفظت الحملة الصليبية الثانية الروح ومعها رمق الحملة
الأولى ، وتطلعت عيون المسلمين مع عينى صلاح الدين تريد القدس .

وكل ما حدث بعد حطين من تطهير انما حدث من أجل القدس ،
بل كان هو الهدف الأكبر الذى يريده العرب والمسلمون منذ سقطت فى
أيدي الصليبيين ، ومهما فعل صلاح الدين من اخفاء الخطة فقد وضحت ،
كما أن الكتب والقصائد وحملة الدعاية فى كل مكان كشفت الخطة
بالتنبؤ بالفتح والتحريرض عليه ، ولا سيما كتب العماد الأصفهاني والقصائد
التي أنشدت فى انتصار حطين .

والتنبؤات كلها خبط وأمانى ، وانما حظ من يتنبأ اذا جاءت الأقدار
بتصديق ما قال . وقد أكثر الشعراء من التنبؤ لصلاح الدين بفتح القدس ،
ولكن الذى أصاب الحظ الأكبر منهم — فيما قرأنا — انما هو القاضى
محيى الدين بن زكى الدين قاضى دمشق وخطيبها بعد حلب ، اذ تنبأ بأنه
يفتح القدس فى رجب ، وكان ذلك قبل وقعة حطين ، وحين فتح صلاح
الدين حلب ، ففتحت فيه .

ومع أن القافية كانت تستوجب ما قال ، فقد كانت نبوءة صادفها
حظ التصديق وكأنما كان القدر قد كتب ولبى : قال :

وفتحكم حلباً بالسيف فى صفر مبشر "بفتوح القدس فى رجب

فكان فالأ حسناً ، ولكن لم يكن فى السنة نفسها التى فتحت فيها
حلب .

وحين قضت عساكر صلاح الدين لباتتها من فتح بلاد الساحل
وسقطت القرى والقلاع فى منطقة القدس اجتمعت على قائدها العظيم عند

عسقلان : اجتمع عليه منهم ما يقرب من ستين ألفاً ، عدا من انتظم في سلك المقاتلة من النساء والصبيان — فقد حلا الجهاد ولعت الغنائم — ولعلها أول مرة يشترك فيها النساء ، أما الصبية فطالما عاونوا في القتال ، ولكن في حدود ضيقة ، وكان اشتراكهم عراكاً كما سنعرض له عند الكلام على مرج عكا .

ولعل الذي منع نساء العرب والمسلمين من الحرب في كل المواقع انما كان أمر الدين للمرأة بالاحتجاب ، والذي منع الصبيان الشفقة عليهم حتى يشبوا ويكبروا ، ولكن جرت في الاسلام حوادث اضطرت القادة والأئمة الى استخدام النساء والصبيان .

فقد أمر على بن أبي طالب أن يسار بأمر المؤمنين عائشة بعد وقعة الجمل الى بيتها في المدينة في كوكبة من جند النساء لم يسير مثلها في الاسلام ولا العرب من قبل : في أربعين فتاة أو سبعين من بنات عبد القيس قد لبسن ملابس الجند من الرجال ، وأمرهن أمير المؤمنين أن يمضين ثم يعدن اذا وافين بعائشة المدينة (١) ، فلم يعدن بعد ما فعل على كرم الله وجهه أن لا يستخدم النساء ، وعلى أصدق الناس عملاً وفتوى .

أما الصبيان فان رسول الله قد أخرجهم حقاً من صفوف من أرادوا القتال معه في بدر ، شفقة عليهم وعلى المسلمين حتى يشبوا ويكثر المسلمون ، ولكن لم يعد هناك مانع من استخدامهم حين كثر المسلمون ، وقد استخدمهم الحجاج بن يوسف في فتح حصون فارس ، فأفلحوا وانتصروا : ففي الأغاني أن الحجاج ضرب البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان واستعمل عليهم « بلالا الضبي » وأغزاهم قلاع فارس ، وكان يقال لذلك الجيش « جيش يبيى » سمي كذلك لأن المرأة كانت تجيء ابنها وقد جرد فضمه اليها وتقول له « بأبي » جزعاً عليه فسمى جيش

(١) شذرات الذهب ج ١ ص ٤٢ - اليعقوبى ج ٢ ص ١٦٠ -
جعفر بن محمد ص ٨ .

بأبى ثم سهلت الهمة الى ياء . ولعله أول نفر لكشافة الصبيان أعد في حروب العالم . فلم يكن من بأس على صلاح الدين أو غيره أن يستخدم في حروبه النساء والصبيان ليزيد من قوته وبأسه ، ما من ذلك ريب . وقد استخدموا في عصرنا الى أبعد حد وجنى من وراء اشتراكهم ظفر كبير .

ونعود بعد ذلك الى ما كنا بسيله في فتح القدس فتقول : فلما تم اجتماع المقاتلة من الفرسان والرجالة عند عسقلان زحف بهم صلاح الدين الى ناحية القدس ، فنزل عند جانبها الغربى فى منتصف رجب سنة (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) ولكنه لم يستقر عنده لأنه ظل خمسة أيام يطوف حوله لينظر من أين يقاتله ، فرآه حصناً ممتعاً ، الا من الشمال عند خندق محفور ، فمضى اليه ونصب مجانيقه ورمى بها .

ثم أرسل صلاح الدين الى فرنجة القدس بكتاب يقول فيه : « اننى أنا نظيركم أيضاً وأعرف أن اورشليم هى بيت الله ولست آتيا لى أدنس قدسيته بسفك الدماء فعليكم أن تدعوها وأنا أكفيكم أمركم وأهب لكم من الأرض بقدر ما تستطيعون أن تعملوا فيه » . فرد فرنجة القدس على صلاح الدين قائلين : « اننا لا نسلمك المدينة ولا نبيعها » فلم يبق الا أن يتقاتل الفريقان (١) .

ثم تقاتل الفريقان أشد قتال ، ولم يلبث الذين خرجوا من الفرنجة أمام السور أن زالوا عن مواقعهم فبلغ المسلمون الخندق وجاوزوه الى السور وتقبوه ، ثم حشوا ما تقبوا منه بالأخشاب ليحرقوه ، فلما رأى الفرنجة ذلك انزعجوا وارتاعوا وشرعوا يطوفون شوارع المدينة بالصلوات والتضرعات وسكب الدموع ثم رأوا (٢) أنهم مهزومون لا محالة وأنه لا مدد لهم من الخارج فاتفق رأيهم على طلب الأمان .

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٩٠ .

(٢) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٩٢ .

وكان صلاح الدين رجلاً حصيفاً يرى النصر فرصة ، وقد فُتِحَ له باب الخير فاتتهزه ولم يوصده ، لأنه لا يعلم متى يغلق دونه — كما أشار حديث نبوى شريف — فمضى لفتح القدس (١) ، فحين كاتبه الذين فى القدس من الفرنجة على الأمان والتسليم قبل على الفور ، وتسلمها فى اليوم السابع والعشرين من رجب ، وكان يوم جمعة وفيه ليلة الاسراء ، ولم يفعل السلطان بأهله كما فعلوا بالمسلمين من القتل والسبى يوم فتحوه ، فحين برز البطريك يطلب لنفسه وقومه الأمان لى صلاح الدين .

وقطع العدو فى الصلح الذى عقد بين الطرفين على نفوسهم عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة ، وعن كل صغير من ذكر أو أنثى دينارين ، والدنانير صورية ، وذلك هو الفداء لكل من ابتغى الخروج ، فمن لم يقدر أخذ أسيراً .

وخرج العدو فحصل صلاح الدين ممن خرجوا نحواً من مائتى ألف دينار وعشرين ألفاً (٢) ، وعجز كثير منهم عن الفداء ففقدروا ما بين ثلاثة آلاف وستة عشر ألفاً ، ما بين رجل وامرأة وصبى ، فأخذوا أسرى .

وأُنزل الصليب عن قبة الصخرة ، ومحيت التصاوير وعلقت القناديل ، ولكن كنيسة القيامة لم تمس جرياً على القاعدة التى كان اختطها عمر بن الخطاب (٣) . وصليت الجمعة فى المسجد الجامع ، وخطب لها القاضى محيى الدين بن الزكى ، وكان قد صاحب صلاح الدين من حلب فولاه خطبة الفتح ، فجمع فيها الخطيب كل تجميدات القرآن .

وكان نور الدين محمود بن زنكى قبل أن يموت قد صنع منبراً فى حلب ، تعب عليه مدة ، ونذره للقدس ، فأرسل صلاح الدين فجاء بالمنبر من حلب ونصبه فى المسجد الأقصى (٤) .

-
- (١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٨ .
 - (٢) النوادر السلطانية ص ٦٧ .
 - (٣) دول الاسلام ج ٢ ص ٧١ .
 - (٤) ذيل النوادر ص ٢٩٢ .

وشاع فتح القدس في الساحل والبلدان ، فوفد المهنتون من مصر والشام والنواحي : من كل رجل له اسم وشأن ، وقد قال بهاء الدين بن شداد : انه لم يتخلف رجل معروف عن الحضور ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل .

ثم جاءت رسل الملوك بالتهاني : رسل الروم وخراسان والعراق الشمالي وصاحب العجم السلجوقي ، جاءت كلها تهنيه ، الا خليفة بغداد ، فقد أرسل يعاتبه (١) حين خوفه مستشاروه من قوة صلاح الدين ، ولكن السلطان تلقى عتابه بصدوره واسع رحب .

وكان عاما خصباً ، كثر فيه الخير وعم النصر ، فأقبل الحجاج المسلمون من كل حذب وصوب يريدون بيت الله الحرام ، فقد أمر من الطريق ، وبات السعي الى بيت الله ميسوراً ، فاجتمع أكثر الوافدين بدمشق ثم ساروا منها مارين بالكرك والشوبك بعد أن خلصت من شقيها العنيد .

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٩ .

بداية المتاعب

- غنائم القدس
- كسرة صور
- فتح اللاذقية
- الحملة الصليبية الثالثة
- قلعة الشقيف
- وقعة الجسر
- عند عكا
- الوقعة الكبرى
- اضطراب الأحوال
- سقوط عكا

غنائم القدس :

كانت جملة ما أخذ من بيت المقدس من مال الفداء مائتا ألف دينار وعشرون ألفاً صورية ، وهي أقل من المصرية قيمة ووزناً : وهو مال ضئيل القدر اذا قيس بما كان في القدس من مال ، بل اذا قيس بما ترك في أيدي الخارجين به متى دفعوا الفداء ، فقد كان يترك الرجل اذا دفع عشرة دنانير أن يمضى بمئات الألوف من المال والتحف والجواهر وغالى الأثاث دون مراقبة ، حتى سرقت أموال القدس وذهبه وجواهره بغير حساب .

وغالى صلاح الدين وأهله وأمرأؤه كل المغالاة في الإحسان ، فجمعوا مال الفداء ثم ما لبثوا أن فرقوه على الجند والأمراء والعلماء والشعراء وأهل النهى ، وليت الأمر كان سديدا ، فقد وقف الملك العادل أخو صلاح الدين ووقف مثله الأمراء من آل أيوب ومن غيرهم يشفعون في الأسرى فيطلقهم صلاح الدين من غير فداء ، ثم فعل هو كما فعل أهل بيته وأمرأؤه ، ولم يدر صلاح الدين ولا بنو أيوب أنهم يحفرون بأيديهم متاعب الغد .

قال ابن واصل :

ثم ان كل واحد من الأمراء وأصحاب الأطراف ادعى أن جماعة من رعية اقطاعه مقيمون بالقدس ، فكان يطلقهم ويأخذ منهم القطيعة ، كمظفر الدين بن زين الدين : ادعى أن جماعة من أهل « الرها » بالقدس ، وعدتهم ألف نفس . وكذا صاحب « ألبيرة » ادعى أن فيه جماعة من أهل بلده من الأرمن وعدتهم خمسمائة نفس .

وجعل جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زى الجند من المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطائع قرروها . واستوهب جماعة من السلطان عدداً من الفرنجة فوهبهم لهم ، فأخذوا قطيعتهم .

وكان فى القدس بعض نساء ملك الروم قد ترهبت وأقامت به ،
ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر
النفيسة شئ عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ولبن معها فأمنها السلطان
وسيرها .

وأطلق السلطان من القدس ابنة الملك « امرى » وزوجة « أرناط »
والبطريك الكبير بما معه من أموال وجواهر وكان مقدم عسكر الفرنجة
قد أخذ زينة الكنائس والذهب والفضة التى تجملت بهما دائرة قبر المسيح
وضربها تقوداً فلم يبق بكنيسة القيامة شئ من جوهر أو ذهب وفضة (١) ،
وقد قيل للسلطان : خذ ما معه لتقوى به المسلمين ، فقال : لا أغدر به !
ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير (٢) ، وهم الأمراء بنهب البطريك لما رأوا
معه من الأموال فمنعهم صلاح الدين وقال لهم : الوفاء خير ، وكان بها
ملكا (٣) .

وقد ترك صلاح الدين كل من دفع مال الفداء يذهب الى صور بما
معه من مال ومتاع ، ومنذ انتصر فى حطين وهو يدع كل هارب من كل
حصن أو بلد يذهب اليها ويحتشد فيها ، وصاحبها المركيز يؤويهم ويقوى
جانبه فى صور ، فاشتدت شوكتهم وحميت جموعهم .

وبعد قليل أدرك صلاح الدين أنه أخطأ ، وعرف غلطته فى تأمين
أعدائه وإبلاغهم مآمنهم فى صور ، وهى بلدة من مملكة القدس ، فقد
اجتمعوا فيها وصاروا عليه خطراً داهماً . وهى غلطة وقى الله داعى الجهاد
منها اليوم فلم يقع فيها ، فانه طرد الى خارج البلاد كل عدو عرفه أو
شك فيه ، ولم يبلغ أحد منهم مأمناً فى داخل البلاد ، لأنه يعلم أنه ربما
أتى الحذر من مأمنه .

(١) تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق ج ٢ ص ٩١ .

(٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٠ .

وبدل أن يفرح صلاح الدين بانتصاره في القدس ويستجمل عض
بناته أسفا ، وشمر ساعده للقتال عاجلا قبل أن يدهم ، وأسرع ليؤمن
خطوطه الى صور من الساحل قبل أن يهاجمها ، فارتحل من فورهِ الى عكا
وشحنها بالأسلحة والرجال والذخيرة والميرة — كخطته في دمياط
والاسكندرية — وأعدّها للقتال .

وكان على صلاح الدين وأهله أن يخافوا ، فإن الخوف من النكسة
في زهوة النصر أولى ، ولكن يبدو أنهم غفلوا قليلا ولم يكونوا خائفين ،
فكانوا مخطئين .

ويبدو أن صلاح الدين كان يترك الفارين من كل مكان يذهبون الى
صور حتى يضربهم فيها الضربة الأخيرة ولكنه لم يتمكن . وكان يريد
التشبه بعمر بن العاص حين فتح مدينة « اخنا » قرب الاسكندرية وفرض
على صاحبها الجزية فخرج الى الروم فقدم بجيش منهم فهزمهم الله وأسر
صاحب « اخنا » فقال الناس لعمر : اقتله ، فقال : لا ، بل نطلقه لينطلق
فيجيشنا بجيش آخر (١) .

هذا عمرو بن العاص ، فلعل صلاح الدين كان قد أضمر في نفسه
ما أضمره عمرو لما كان عليه من الثقة والشجاعة ، وربما حرضه على
هذا زهوه بالانتصار تلو الانتصار ، فلما فشل رمى بالخطأ ولو انتصر
ويمكن الله له منهم في صور لكان أنفضج رأى وأحسن حظ ، ولم يسبقه
اليه غير عمرو بن العاص .

كسرة صور :

فلما فرغ من اعداد عكا رجع الى صور وحاصرها من بعيد بما
تكامل لديه من آلات الحصار في البر ، وأسطول مصر من البحر ، وتم

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٢٤ .

حصارها وبدأ الرجحان في جانب صلاح الدين ، ولكن ما لبث هذا الرجحان أن انقلب الى كرب مفاجيء شديد :

ذلك أنه كان على الأسطول « بدران الفارسي » ، ومع أنه كان رجلاً ناهضاً جلدأ في البحر ، فقد غفل عن وصية قائده « عبد المحسن » أمير البحر بأن يأخذ حذره ويتيقظ ، لأن الفرنجة أقدر في البحر وأمكن ، ومتى سنحت لهم الفرصة فلن يهملوها . ولكن بدران وبحارته كانوا مأخوذين بانتصارات صلاح الدين وقوته فغفلوا عن الوصية وأهملوها ، وباكرهم أسطول الفرنجة من صور فلم يطيقوا قتاله ، وقتل العدو جنداً عظيماً بعد أن أصابوا السفن وغنموا خمساً منها وعليها مقدمو المقاتلة في الأسطول .

هذا في البحر . أما في البر فكان الشتاء قد اشتد وقرس برده وتراكت أمطاره ، فلما رأى الناس ما حل بالأسطول توارى كثير منهم عن القتال فلم ير السلطان الا أن يدع المعركة ويستعد من جديد ، فرحل ضيق الصدر مكتئباً حزيناً ، لأنها كانت أول كسرة شديدة أصيب بها .

فتح اللاذقية :

ورأى صلاح الدين أن يتابع الجهاد حتى لا يطمع فيه الفرنجة فشغلهم بغزو حصون متفرقة ، وجعل يظهر البلاد في دائرة تقع على محيطها حلب وأنطاكية واللاذقية ودمشق ، ثم أرسل أخاه العادل فتسلم الكرك والشوبك وما هناك من بلاد (١) .

ومع أن صلاح الدين قد ارتد عن صور ، ثم ارتد كالمنهزم عن حصن كوكب لأن طريقة كانت مغمورة بالثلوج ، وكان هو محشوداً بالجنود الأشداء مملوءاً بالميرة والسلاح — فانه استطاع أن يعوض عن خسائره بانتصار في اللاذقية كثير الغنائم والأموال .

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٤ .

وقد حدث عندما غزا اللاذقية أن جمع لها جنداً من دمشق ، ثم سار بهم مخترقاً طريق الساحل من طرابلس فأطرسوس فيجلة ، وكانت اللاذقية في تلك الأزمنة بلد التجار — كما يحاولون اليوم أن تكون ويعود إليها مكانها القديم — فلما دخلها صلاح الدين غنم منها مغنمة عظيمة من الأموال والمتاع .

وعند اللاذقية حدثت معركة الأحجار ، فقد نفذ السلاح من الفرنجة والعرب جميعاً ، فأخذوا يتقاذفون بالأحجار ، وتكاثر المسلمون فغلبوا وسلم الفرنجة . وكتب قاضي جبلة الأمان الذي طلبوه : كتب أن يطلقوا بأنفسهم وذرائعهم ، خلا الغلال والذخائر وآلات الحرب والدواب ، ما عدا ما يركبونه منها ليصلوا بها الى مآمنهم ، وتسلمها صلاح الدين سنة (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) .

وأدرك صلاح الدين في اللاذقية ما فاتته في القدس فلم يلدغ مرة أخرى ، وصارت القاعدة عنده : أن ينزل الأعداء متى سلموا بأنفسهم وثياب أبدانهم . وكما جرى صلح اللاذقية على هذه القاعدة جرى صلح أنطاكية وزاد عليه أن يُطلق أهل أنطاكية ما كان بأيديهم من أسرى المسلمين .

الحملة الصليبية الثالثة :

كان النصر في حطين والقدس بالنسبة للعدو أمراً مثيراً ، وكأنه تأميم قناة السويس في عصرنا ، فحين بلغ صلاح الدين قمة مجده اجتمعت أوروبا عليه أكثر من ذي قبل ، وسأقت اليه الحملة الثالثة الصليبية مع الفرنجة المتبلدين فحاربوه في عكا ، كما سأقت فرنسا وانجلترا جيوشهما في عصرنا مع اليهود فحاربوا القائد عبد الناصر في بور سعيد لأنه بتأميم القناة بلغ قمة المجد ، وإن يكن أولئك أفلحوا في زمنهم فإن العدو في عصرنا لم يفلح ، فانصرف عن بورسعيد وجر معه أذبال الخيبة والعار .

وقبل أن تصل هذه الحملة كان الفرنجة الذين اجتمعوا في صور من أهل الحصون والبلاد التي احتلها صلاح الدين قد صاروا في عالم لا تحصى كثرته وأخذوا يستنجدون بمن وراء البحر ، واتخذوا وسائل التعصب والاثارة في استنجادهم ، فهلح النساء ووصل من الأمداد ما لا يحصى عدداً.

وقد بلغ من اهتمام أوروبا هذه المرة أنهم فرضوا على كن من لهم يرغب التطوع فيها أو تعذر عليه ، أن يدفع عشر مداخله مع عشر ثمن أملاكه المنقولة وسموها « العشور الصلاحية » وحرّم رؤساء الكنائس كل من يتأخر عن دفعها (١) .

وقاد هذه الحملة « فردريك بارباروس » أمبراطور المانيا « وفيليب أوجست » ملك فرنسا و « ريتشارد » قلب الأسد ملك الانجليز .

أما الجيش الألماني فقد وجد في طريقه البرى عداوة بيزنطة وقوات السلاجقة ، وغرق أمبراطوره في نهر « سالف » بجبال أرمينية فرجع معظمه الى المانيا ومضى أقله في بقية من السفن الى عكا وصور بقيادة « فردريك الثانى » نجل الأمبراطور الغريق ولم يلبث الامبراطور الابن أن مات قبل الوصول الى عكا ، فلم تكن لبقية الجيش الألماني التي وصلت أثر كبير .

وأما الجيشان الفرنسى والانجليزى فقد التقيا في صقلية — وما أشبه اليوم بالأمس — ولما لم يكن ملكاهما على اتفاق فقد أبحر الفرنسيون الى عكا وحدهم فبلغوا شاطئها في ٢٠ نيسان (ابريل) سنة (٥٨٧ هـ — ١١٩١ م) .

وأما « ريتشارد » فقد استقر في قبرص بعد احتلالها من البيزنطيين ثم أبحر الى عكا بعد أن استنجد به ملك بيت المقدس « جوى » المطلق من أسر صلاح الدين .

(١) صلاح الدين الايوبى ص ٨٧ .

وتتابعت أمداد الفرنجة ، اذ طاف الرهبان والقسوس وبطيرك القدس الذى أطلقه صلاح الدين بما معه من مال فى أوروبا يستجدون أهلها ، وقد لبسوا السواد وأظهروا الحزن واقتدوا ببطرس السائح ، فعظم ذلك على الفرنجة فحشدوا وحشروا ، حتى النساء خرجن للقتال ، ومن لم يستطع الخروج استأجر له عوضاً أو أعطى معونة ، فاجتمع من المحاربة ما لا يقع عليه الاحصاء .

وهذا كله نراه فى زماننا ، حيث يطوف اليهود فى البلدان يستجدون ويجمعون الأموال ويسهلون الرحلة للرجال وهم يتحازنون !

ولقد كانت صور شغلت بال السلطان زمناً ولكنه لم يجد إليها سبيلاً ، ثم شغله أمر عكا ، فقد صارت مثل صور مهددة بالضياح ، وكلا الثغرين يؤثر فى الآخر ويستطيع أن يتحكم فيه ، ولم تكن هذه الفكرة فى حاجة لذكاء خارق وإنما هو أمر" بديهي يدركه كل رجل يعرف موقع البلدين ويدرك المدى الذى يجب أن تكون عليه سياسة الساحل .

ومن ثم انطلق صلاح الدين فطهر المواقع حول عكا ورتب أمورها ، هى ، وولى عليها اثنين من خاصة رجاله : بهاء الدين قراقوش ، وأمره بعمارة أسوارها وأمدّه بمهندسى مصر وعمالها وآلاتها ، وسيف الدين المشطوب أمير الأكراد الأكبر ، ولم يكن أحد من أمراء الدولة يضاهيه فى المنزلة أو يدانيه .

قلعة الشقيف :

وقصد صلاح الدين الى قلعت الشقيف ، وهى اليوم فى أرض لبنان فى طريق مرجعيون ، وكانت — ولم تزل — قلعة خطيرة قائمة على قمة جبل قائم فى اعتدال وعلو شاهق كأنه حائط بنيان ، فأحاط بها وحاصرها ، فقصد صاحب الشقيف ووقف على خيمته فأذن له وأكرمه وأبدى له

الطاعة ووعده أن يسلمه القلعة لقاء مكان يقطع له في دمشق لتعسر معاشرته الفرنجة بعد تسليم قلعتها ، كما طلب أن يؤمن له السلطان اقامته بالقلعة حتى يخلص أهله وأتباعه من صور .

وكان الرجل داهية مكرراً ، قد تعلم العربية من عربى مسلم كما كان تعلمها أرناط صاحب الكرك ، فظل يتردد على السلطان وينظره فى الدين ويحسن محاورته ويتأدب فى كلامه ، فلما عرف صاحب الشقيف بضعف السلطان عن صور وقلقه عند عكا ماطله ونوى الغدر وخيانة العهد ، وأدرك السلطان سره فلم يكشفه به وجعل يلقاه ويلاطفه ، حتى اذا كان عنده ذات يوم وقد أمن واطمأن وناظر السلطان وحادثه ثم قام ليودعه ويمضى الى قلعته منعه السلطان وضرب له خيمة قريباً من خيمته وأقام عليه حرساً خفياً ، ولم يأذن له بالرجوع الى الشقيف .

وكان قد ضرب للسلطان موعداً ليسلمه القلعة ، فلما فات الموعد أرسل السلطان معه عدداً من رجاله لينادى نائبه من خارج القلعة ليسلمها ، فلما دنا من القلعة بحيث يسمع صوته لو نادى ، تكلم ورفع صوته وتحدث مع نائبه بلغة رمزية يحرضه فيها على ألا يسلم . فلما كوشف السلطان بما فعل أرسله الى دمشق مهيناً مردولاً .

وقعة الجسر :

ولم يرض غير قليل حتى وقع ما ظنه صلاح الدين ، فقد ظهرت نية الفرنجة فى محاربته ، وكان معظم جنده فى أرض تقع بين صيدا وصور ، والأولى فى شمالى الثانية وكلاهما على البحر ، والمسافة بينهما اليوم مسيرة ساعة بالسيارة ، فاتجه الفرنجة نحو صيدا الى الشمال فتبعهم عدد من رجاله المسلمين بين المائة والمائتين وعبروا وراءهم على جسر هناك فلما صار الجسر وراء الرجال أقبلت أمداد الفرنجة فقطعت الجسر وارتدت المقدمة عليهم فحصدتهم حصداً .

ولقد أحدثت هذه الفعلة فى نفس صلاح الدين ألماً بالغا ، فقرر أن يقتص من الفرنجة بحرب الكمين فرتب له ثم استخرج من جنده عشرين فارسا من الشجعان على جياذ الخيل وأمرهم أن يناوشوا العدو ثم يتراءوا له منهزمين حتى ييلغوا الكمين فيقعوا فيه .

وفعل الفرسان ما أراد وتبعهم الفرنجة يحملون عليهم ويرهقونهم ، فلما رأى الفرسان عنف القتال أنفوا التظاهر بالانهزام وحملوا على العدو دون أن يتراجعوا بالحيلة للكمين فقتل منهم الفرنجة عددا كبيرا . ومع أنهم أصابوا الفرنجة وقتلوا منهم فقد تلقى عسكر المسلمين فى يوم الجسر ضربتين شدينتين : أولاهما من خطأ السرعة والغفلة ، وثانيتهما من عصيان القائد وتقويت الحيلة .

عند عكا :

ثم بلغ صلاح الدين أن جموع الفرنجة قد خرجت من صور منحدرة الى عكا ، وهى فى جنوبى صور ، وهى رحلة شاطئية يسيرة على من 'رم الشاطئ' ، فأسرع هو ليعوض فرق المسافة اذ جنده فى شمالى صور ، رسار من طريق الداخل وهو أوعر من الشاطئ وأصعب ، فاخرق عددا من القرى والجبال ، ثم استطاع مقدم عسكره أن يدخل عكا قبل الفرنجة ، وانضم الى حاميتها ، ثم أرسى السلطان جنده على « تل كيسان » فى ظاهر عكا وجعل يرسل الى داخلها البعث بعد البعث حتى اجتمع فيها خلق لا يحصى ، أما هو فقد رتب جيشه للمعركة وقسمه الى قلب وجناحين وأحاط بعسكر العدو دانيا من خيامه .

وكان العدو كثير العدد ، يتجاوز فرسانه الألفين ، وتتجاوز رجالته الثلاثين ألفا ، أما المدد من البحر فكان لا ينقطع . وكان العدو بالنسبة لعكا فى وضع أفضل من وضع صلاح الدين اذ كان أقرب اليها والى

أسوارها منه وحولهم خندق قد حفروه يحجز بينهم وبين المسلمين (١) ،
وأما هو فمحيط بالعدو من خارجه ومن خارج الخندق .

وتهافت جند المسلمين على الالتحام بالعدو وقتاله فنهاهم صلاح
الدين حتى تأذن ساعة القتال بالبدء لحصانة الفرنجة فلم ينتهوا ، فأوجس
القائد العظيم خيفة وأيقن أنه مقبل على خسائر فادحة اذا ظل هذا التهافت
والعصيان ، وما لبث أن تحقق ظنه فأحاط الفرنجة بعكا وحاصروها
وقطعوها ، والخندق يحميهم وراءهم من المسلمين .

ولم يفزع صلاح الدين مما حدث ، وصمم هو وأمراء عسكره أن
يفتحوا في صفوف العدو طريقاً الى عكا فحملوا على الفرنجة حتى فتحوا
الطريق وأوسعوه فمرت به الباعة والسوقة ، ودخل صلاح الدين منه
مستخفياً اليها فتفقد سورها ، ولكنه شاهد عسكر العدو قد صار تحت
الأسوار .

وحدثت مناوشات كثيرة لم تنته بطائل ، ولكن عدوى الخطف والأسر
سرت وفشت ، وتقاتل صبيان العرب وصبيان الفرنجة فتصارعوا وتخاطفوا
أسرى ، وضرب بعضهم بعضاً ، وقد شوهد صبيان العرب يتصالحون بعد
موقعة ويفكون أسيراً من صبيان الفرنجة بدينارين ، قد حفظوا بنود
تأمين القدس فنفذوه .

الوقعة الكبرى :

ودامت المعركة حول عكا الى ما يقرب من سنتين لم تنته بيوم
حاسم ، حتى اذ كان يوم الأربعاء الحادى والعشرون من شعبان سنة
(٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م) فوجيء المسلمون بوثة هائلة من جيش الفرنجة
احتلوا فيها رؤوس التلال فبدأت المعركة الحاسمة على الفور .

(١) آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٢٤ .

وضع المسلمون ميسرتهم قبالة مينة العدو ، ووضعوا المينة أمام الميسرة ، وتواجه القلبان . وكان على القلب الأفضل بن صلاح الدين وعيسى الهكاري الفقيه ثم عسكر الموصل وديار بكر وناבלس وعلى الميسرة سيف الدين المشطوب وعلى بن أحمد الكردي ثم عسكر الأكراد والمهرانية والهكارية وعسكر سنجار والأسدية وأما المينة فكانت ضعيفة ، وكان في القلب ضعف أيضاً : كان في عسكر ديار بكر ، اذ كانت فيهم غرة عن الحرب .

وكأنما لمح العدو ضعف المينة فهاجمها بميسرته القوية فخف القلب ليعاونها فضعف القلب أيضاً أمام قلب العدو فحمل عليه معظم جيش العدو ، فاضطرب القلب وانكسر ، وكانت الضربة شديدة في عسكر ديار بكر ، ثم ما لبثت المينة أن ذابت وانهزم الناس متبددين وبلغ العدو قريباً من خيمة السلطان .

وأما الميسرة فلم تهجم مينة العدو فظلت ثابتة لا تتحرك ، وكأنها لم تكن ، ونادى السلطان يشجع ويستنهض ويرد ، فتابع المنهزمون الفرار ، حتى بلغوا سواحل طبرية ومشارف الشام . ثم حان للميسرة أن تتحرك فردها العدو على أعقابها .

وقد اشترك صبيان المسلمين مع الميسرة في المعركة ، وكأننا أخذهم الحماس فأرادوا الأخذ بالثأر ، وظلوا يقحمون أنفسهم في النار حتى فقد منهم ما يقرب من مائة وخمسين من الغلمان المجهولين كما قتل عدد كبير من الغلمان المعروفين . وهذا كله كان في البر . أما في البحر فقد تأخر الأسطول !

وازداد الكرب وساء النظام فأعمل الغلمان النهب في جميع الخيام حين خلت من الجند ، فلم يدعوا غالياً ولا رخيصاً الا ذهبوا به ، واشتركت معهم العامة وفشا اللصوص ، ثم تخاذل الأمراء حين رأوا الضربة تأتي من العدو والصديق على سواء ، فودوا العودة الى بلادهم رغبة في الامارة

وعزة الملك ، ولم يدر السراق والأمراء أنهم بالسرقة والتخاذل قد هدوا قوتهم وأوهنوا صفوفهم .

وحين هذا الانخزال أحس كثير من الفرسان أنهم تعبوا فقد أقاموا تحت المعركة وفوق متون الخيل خمسين يوما ، حتى ملت الشجاعة وضجرت الخيل ، وكان صلاح الدين أحوج ما يكون الى صحة وقوة وصف مرصوص ، فأوهن صحته وأضعف قوته أولئك الذين هم بليّة كل معركة مهزومة ، وأولئك هم السراق ، فقد هجموا على خيام القادة والأمراء وخيام صلاح الدين نفسه لينتهبوها ، وهم ينتهبون غب كل هزيمة أو الشعور بها ، فكانوا كالذين نسميهم الصف الخامس فى زماننا ، تتخذ المنايا أيديهم وأقوالهم جسورا الى أغراضها .

وقد كثر هؤلاء فى معركة عكا كما يكثرون فى كل زمان مدبر : يكثرون فى نكبة القدر حين لا يستطيع القدر أن يتخذ جسورا لعبوره من أيدي العدو المغير . والقائد المحظوظ فى المعركة المحظوظة هو الذى يفتح عينيه لهؤلاء ويقطع أيدي السراق قبل أن تمتد فى حماية الجهل المظلم والشر المبيد .

ولم يعد راجعا بأى نجاح نداء السلطان برد المنهزمين ، أو بجمع ما نهب من أيدي السراق ، ولم يعد راجيا أن ينتظر المدد أو تصلح أرض المعركة لمعركة أخرى ، فقد تراكت القتلى من الجانبين ، واثارت أنفساس الوحش تهدد بالمرض كل باق فيها ، وأشار عليه الأطباء بالتحول عن المكان ، فاستقر أمره على التحول عن المكان كما أشار الأطباء .

ولسنا نسى أن الاعتماد على البطولات الفردية عند عكا قد صنع بعض خيوط الهزيمة ، وأن الجيش لم يتوزع توزيعا عادلا على القلب والجناحين فتتوازن قواه ، وقد نامت الميسرة فلم تستيقظ الا بعد أن ذابت المينة وانحطم القلب ، ثم لم يخفف البحر عنم فى البر شيئا لأن الأسطول تأخر وكذلك وصلت أمداد مصر من البر بعد فوات الأوان .

اضطراب الاحوال :

وبرغم الأحوال التى رآها صلاح الدين قد ثارت من حوله وتحوله عن المعركة فانه أخذ يرسل الى عكا من البر والبحر بكل ما يستطيع من حيلة ذخائر وميرة ورجالا وعددا لتظل قوة من الداخل ، ثم نوى أن يعاود العدو بالهجوم لينهى حصارها ، فأشار عليه مؤتمره فى « مرجعئون » أن يؤخر المنازلة حتى تجتمع عليه عساكر الأطراف فى مستهل الربيع .

وكان صلاح الدين قد أرسل الى الخليفة الناصر ابن المستضى فى بغداد يستجده كما أرسل الى ملوك المغرب والى أمراء سنجار والجزيرة والموصل واربل ، وسار برسائل استنجاده الى الشرق قاضيه بهاء الدين بن شداد ، ثم أرسل الى مصر باعداد أسطول لحملة جديدة .

أما أمراء الشرق فاستجابوا بأنفسهم وأموالهم ورجالهم ، وأما ملك المغرب فلم يرد ، وأما خليفة بغداد فوعد وعدا جميلا ، ثم ورد رده مع رسول يصطحب جماعة من رماة النفط ومعه رقعة من الخليفة تتضمن الاذن لصلاح الدين أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ، لينفقها فى الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز !

وكان أمرا عجبا مثيرا للضحك والحزن ، ولكن صلاح الدين قبل رماة النفط مع استغنائهم عنهم ، ورد الرقعة التى تحمل فتوى الاجازة باقتراض المال ، وسير أخاه الملك المظفر ليعبر الأطراف ويسير الى العراق فى جمع العساكر المطوعة ، فأرسل الديوان العزيز الى صلاح الدين ينكر على المظفر مسيره فى البلاد واستيلاءه على مساكن بغير اذن ، وجاء صلاح الدين ذلك العتاب والاستنكار حين كان فى هم يكمد النفوس .

ورافق الشؤم رسول الخليفة فزحف الفرنجة يوم وصوله على أسوار عكا ونصبوا ثلاثة أبراج ضخمة لم يأتوا بمثلها من قبل ، قد ركبت على

حواليب ورتبت طبقات وشحنت بالسلح والمقاتلة وطلبت بمواد لا تحرقها النار (١) .

وفى أثناء ذلك جعلت أمداد المسلمين تصل ، وجعل صلاح الدين يعرضهم بأعلامهم ويبارقهم وطبولهم وبوقاتهم ليزعج العدو ويقلق باله ، ولكنه — وهو يفعل ذلك — كان منصرف الفكر الى احراق الأبراج قبل أن تندفع الى أسوار عكا ، فحشد جموع رماة النفط ووعدهم بالمكافأة الجزيلة ان هم أحرقوها ، فجربوا ثم عجزوا .

وحين فرغت منهم الحيل تقدم شاب دمشقى بحار يسمى « عليا » كان يعرف الكيمياء والنحاس معرفة أهل زمانه ، فكان يعرف المواد التى اذا مزجت أذابت مواد طلاء الأبراج ، فتقدم هذا الشاب من صلاح الدين وعرض عليه أن يعاونه فى الحصول على ما يريد من داخل الأسوار فمكن له صلاح الدين ، فمزج الشاب مواده فى قدور كبيرة من النحاس ثم صير الخليط جمره نار ثم قذف بالجمرات من داخل السور برجا فاشتعل لوقته كأنه بركان . قد أفلح الاختراع .

وفى فرحة من جنون رمى الدمشقى برجا ثانيا فاشتعل ، ثم رمى الثالث فى ثورة من ضجيج العدو فالتهب ، وتحمس صلاح الدين وجنده فزحفوا يستدرجون العدو للقتال فلم يبرز لهم ، وحاول صلاح الدين أن يشيره فلم يثر ، فركدت المعركة عدة أيام .

ثم عادت أنباء الشؤم تفد وأقذاره تجرى : فقد علم صلاح الدين بأمر فردريك أمبراطور ألمانيا الزاحف اليه من طريق البر ، فسير اليه جيوش منبج وكفر طاب وبارين وحلب وحماة ليرده ، وكان هؤلاء جميعا من الميمنة فخفت وضعفت بمسيرهم ، فلما رأى الفرنجة عند عكا خفة الميمنة هاجموها فثالتها أيديهم ، وبلغوا خيمة الملك العادل ذاتها ، وان كان

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٧ .

المسلمون قد ردوهم فى آخر الأمر فقد كانت هزيمة جديدة لصالح الدين .

وحينئذ بلغت القلول الألمانية أبواب صور ، ودارت على الفور بينهم وبين المسلمين من خارجها معارك هائلة ذاق الألمان فيها مرارة قتال لم يشهدوه فتركوا صور وانحدروا الى عكا وانضموا الى محاصريها هناك ، ثم بدأت تظهر فى المعارك حيل الألمان فى الصناعة والآلات ، التى وصفها ابن شداد وصف رجل مرتاع لما شاهد ورأى ، ومع أننا — فى عصرنا — نستطيع أن نتصورها فى بعض الدبابات وقناطر الجسور فانها كانت بالأمس شيئا عجيبا مخيفا ، ولكن الفتى الدمشقى كان لها بالمرصاد من وراء الأسوار .

ودامت المعركة مائة حتى وفد الشتاء الثانى ولم يلتحم الفريقان فى معركة حاسمة ، ورأى صلاح الدين أن يسرح العسكر للراحة وأن يستبدل بالذين ضنوا وتعبوا داخل عكا غيرهم ، مهما كان الداخلون من جديد غير مجربين ، ففعل ، ولكنها كانت غلطة من السلطان وإرادة من القدر ، ثم حدث تفريط فى الاحصاء فكان الذين خرجوا منها أضعاف من دخلوا اليها (١) .

فلما جاء الربيع وطاب الهواء ورجع اليه الأمراء والعسكر من كل البلدان قدم أسطول فرنسا ثم تبعه الأسطول الانجليزى واستدارت أساطيل العدو كلها حول عكا لتمنع المؤونة عنها ، وتبتدىء المعركة الحاسمة مع صلاح الدين .

سقوط عكا :

وجرت اشتباكات كثيرة بين الطائفتين ، ولكن لم تغلب واحدة منهما الأخرى ، فأخذ الضيق بصلاح الدين كل مأخذ ، وصارت قلوب الناس

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٨ .

كصفحة الماء تتأثر بأى نسمة تهب ، وتتعاقب عليها المسرات والأحزان كما تتعاقب الرياح المختلفة بسطوح المياه فتدور معها من جانب الى جانب وتثور .

ولما كان الفرنجة أدنى الى الأسوار من جند صلاح الدين فقد استطاعوا بدباباتهم ومنجنيقاتهم أن يهدوا جزءا من الأسوار . ولما عرفوا أن البلد قد ضعف من داخله بما فعله صلاح الدين من الاستبدال ركزوا هجومهم عليه وزحفوا من كل جانب ، فتوزع أهل عكا وعسكرها للدفاع عند الأسوار وعلى المجانيق وفى الخنادق وتجاه الساحل ، ولكن السور تخلخل وضعف وبدأ ينهار ، فغادر الأهليون عكا وتركوا بها المحاربة والميرة والسلاح .

أما صلاح الدين وجنده المحيطون بالفرنجة فقد كانوا يستعدون لفك الحصار عن أهلها ، ثم طال بهم الاستعداد ، فلما هموا فوجئوا بأن جند عكا قد طلبوا الأمان ، فكان الخبر المفاجيء أكبر من الفواقع ، لأن عكا كانت تحتوى على كبار أمراء المعسكر وشجعان الجند . واستيأس السلطان وجنده وقتلوا حتى كان الرجل من رجاله يصاب بعشرات الضربات فلا يمنعه ذلك من القتال ، وكذلك استيأس الفرنجة واستبسلاوا ، وأبلى نساؤهم فى القتال كما أبلى الرجال (١) .

ومضى العدو فى تقدمه فتمكن من الخنادق ثم تابع الزحف ، فلما رأى سيف الدين المشطوب رئيس الحامية أنه لا رجاء فى الخلاص تقدم من قائد الفرنجة يطلب الأمان .

« ثم سلمت عكا ، على أن تعطى للفرنجة كل ما فيها من العدد والآلات والمراكب ، وتؤدى لهم مائتى ألف دينار ، ولا يفك الأسرى حتى تدفع اليهم الأسلحة والأموال وعود الصليب الذى أخذ فى القدس ، بينما

(١) النواردر السلطانية ص ١٥٧ .

بفك أسرى الفرنجة الذين عند صلاح الدين ، أما غير المقاتلة فيخرج من شاء سالماً بنفسه ونسائه وذريته ومتاعه ، ويكافأ من توسطوا في الصلح بأربعة عشر ألف دينار .

وأرسلت الشروط للسلطان فاستكبرها ، وبينما هو يستشير فيها كعادته ولم يبت فيها برأى لأنه كان يفكر في انقاذ عكا ، فوجيء بأعلام الفرنجة وشعائرها ونيرانها تخفق على الأسوار والقلعة وبرج القتال ومثذنة الجامع الكبير ، وكان ذلك بعد معارك مريرة دامت حول عكا سنتين كاملتين . وحبس الفرنجة من احتجزوهم في أماكن متفرقة من البلد مقابل الوفاء بالشروط (١) ، ثم طلبوا من السلطان ما فرضه الصلح فخشى أن يعطى المال قبل فك الأسرى فيأخذوه ويغدروا ، فتوقف دون البذل ، فلما علم ريتشارد ملك الانجليز بذلك غدر بأسرى المسلمين :

أخرجهم من حبوسهم مقيدين الى تل العياضية ، وجرت ثلاثة آلاف منهم في الجبال ، ثم حملوا عليهم فقتلوهم صبراً : ضرباً بالسيوف وطعناً بالرمح . وحاول المسلمون من الخارج رد الكيد عن أسراهم فلم يفلحوا ، وتسلموا في اليوم التالي جثثهم من مصارعها : وقد عرف أنهم قتلوا كل مقدم ، وكل من كانت له يد قادرة في الاختراع أو البناء أو القتال ، وأخذ الفرنجة بالاستيلاء على عكا كل سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر فكان أخذها أنكى خبر ورد على المسلمين .

وأدخل العدو الى عكا كل من كان منه خارجها ، وسدو ثغرها ، وأصلحوا ما تهدم من السور وما فسد من الثغر ليحموا أنفسهم فيها ، وكان يوماً بيوم ، وعادت أغاني العرس رجع نواح !

وقد عادت عكا فيما بعد للمسلمين ولكن أحفاد ريتشارد لم يغفلوا ، ذاعطوها — في عصرنا — لاسرائيل سنة ١٩٤٨ م ، ونصن اليوم في عام (١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م) وهي في أيدي اليهود ، ولكنها ستعود .

(١) ذيل النوادر ص ٢٩٩ .

وأما صلاح الدين فيصوره أحد كتاب عصرنا حين سقطت عكا
فيقول (٢) :

ووقف صلاح الدين على رابية عالية يطيل منها النظر الى عكا
الأسيرة بعد صراعها الجبار . وقد بدا في جلاله ونبله وحزنه العميق كأنه
قد استرسل في صلاة صامته ذات خشوع . ولبث وقتاً طويلاً وهو في
موقفه ذاك ما يريم ولا يتحول بوجهه عن المدينة ، كأم تنظر الى قبر ابنها
القتيل ، وفي نفسها عوامل شتى من الفجيعة والنقمة والتمرد الكظيم . ثم
لوى عنق جواده وأطلق عنانه ، فانطلق يشق به الرمال السوافي ، وكان له
جناحي نسر ، كما أن لصاحبه ابناء النصور .

ثم عرف أصحابه أنه يريد الانفراد بنفسه ، في نزهة من تلك
النزهات الكثيرة التي يقوم بها الى تخوم البادية أو قلب الصحراء كلما
ألم به ما يؤلمه ويشجيه ، ثم يعود منها أقوى عزيمة وأصلب مراساً وأشد
صبراً على أعباء الكفاح .

(١) صلاح الدين الأيوبي ص ٩١ .

أخريات الأيام

- على ساحل فلسطين
- جس النبض
- حريق عسقلان
- شئون وأقدار
- أمر غريب
- المركيز والملك
- عند يافا
- صلح الرملة
- بدء الاختلاط
- نية الحج
- مرض السلطان
- نهاية الأيام

على ساحل فلسطين :

وخرج « ريتشارد » قلب الأسد من عكا في جمع عظيم من المشاة والفرسان في مستهل شعبان سنة (٥٨٧ - ١١٩١ م) وضرب خيامه في طريق الساحل نحو الجنوب ، ثم شرعوا في الزحف قطعاً متتابعة بموازية الساحل ، فصار صلاح الدين بازائهم من طريق الداخل واندفع مسرعاً يقصد الى عسقلان .

وكان الفرق بين الخصمين عظيماً : ذلك أن العدو عدو جديد ، لم يحارب طويلاً بعد فهو في كامل عدته ورجاله وانتظام أمره ، أما صلاح الدين فقد ارتحل بازائه فجأة ، فهلك حاجات المطوعة حين أمروا فجأة بالرحيل ، ثم أسرع في سيره تاركاً جماعة من خاصة جنده يراقبون العدو ، وسبق هو فأرسي بثقل جيشه على « قيسارية » ، حين رآها صالحة للقاء اذا حدث لقاء .

وقد شوهد من نظام الفرنجة ما أعجب وأدهش ، فقد سار جيش البر وأسطول البحر متقابلين في خطا واحدة وثيدة . وكان جديراً بالمسلمين ألا يستهينوا بعدوهم ، فقد كانت الاستهانة به ركناً من أركان الهزيمة ، وتبدو هذه الروح في قول ابن شداد : فانظر الى صبر هؤلاء على الأعمال الشاقة من غير دين ولا نفع (١) .

جس النبض :

ولقد كان نظام الفرنجة واحتمالهم وهم على شاطئ البحر أمراً عجبياً ، فقد كان الرجل ينغرز في درعه عدة سهام وهو يسير على هيئته من غير انزعاج ، ولا يخرج عن صفه ولا يتأخر عن سيره ، وكان جديراً أن يخيف المسلمين .

(١) النوادر السلطانية ص ١٧١ .

ولكن لم يكن هذا النظام والتداخل وشدة الانضباط الا ليحفظوا
أنفسهم ، حتى لا يشذ أحد فيلتحموا فى معركة ، فقد باتوا يعتقدون أن
المعارك التى مضت — منذ بدأت الحروب المقدسة — لم تأت الا بفقدان
الأنفس والأموال ، ومهما فعل الفرنجة فلن يأخذوا القدس ولن يجاوزوا
الساحل ، ومهما فعل المسلمون فلن يدخلوا عكا أو يقهروا عدوهم فى
البحر . وسرعان ما بدأت هذه العقيدة تؤتى ثمارها ، فاتصل الفرنجة
بالجند الموكل بمراقبتهم وطلبوا اليه الاتصال بالملك العادل .

وسرعان ما اجتمع الملك العادل بريتشارد وبدأت المفاوضات ، وشرع
الملك فطلب أن تسلم اليه البلاد كلها ، فجرت منافرة أخشن كل منهما فيها
لصاحبه فانفصلا ، ولم يعد يد من معاودة القتال ، فالتحم الفريقان عند
« أرسوف » وحمل الفرنجة حملة شديدة على الجيش كله ، فاندفع الناس
بين أيديهم فراراً وكسراً ، ثم اجتمع الناس وتفرقوا واجتمعوا وتفرقوا
فقتلت من الأمراء والأبطال والناس والخييل مقتلة عظيمة ، ولولا أن العدو
وقف دون اتمام الزحف مخافة أن يكون فى طريقه كمين لباد الناس .

حريق عسقلان :

كان العدو منتصراً ولا سبيل الى رده ، وكان صلاح الدين والناس
معه قد أئخذوا بالجراح ، ولو اندفع العدو فى طريقه فأخذ عسقلان
لسهل عليه أن يجعلها مفتاح القدس ، ثم يقطع بها طريق مصر ، ويعود
خطب الكرك والشوبك مرة أخرى ، وكان صلاح الدين قد أخذها من
الفرنجة بعد أن احتلوها خمسة وثلاثين عاماً (١) .

فلما أدرك صلاح الدين ذلك ترك أخاه العادل لمراقبة العدو عند يافا
والرملة وأسرع هو الى عسقلان ليحميها ، ثم مالبث أن رأى نفسه يعجز

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢٢ .

عن حمايتها ، فاستشار فيها ، فأشار عليه « سليمان بن جندب » بخرابها واحراقها لئلا يتم عليها ما تم على عكا ، وكان سليمان من أكابر أمراء حلب ومشايخ الدولتين النورية والصلاحية ، وكان رجلاً مخلصاً ، شهد مع السلطان حروبه كلها (١) ، فقرر السلطان احراقها ، وطلب من أخيه العادل أن يرأس الفرنجة فى الصلح حتى يفرغ من احراقها .

ولم يكن تخریب المدينة بالأمر الهين على نفس صلاح الدين ، فقد حدث أن فقد أولاده كان أهون عنده من تخریبها ، وهذا شعور لصلاح الدين أخبر به كاتبه ابن شداد ، وليس فيه أدنى مبالغة ، لأنه — بعد هزيمة عكا — رأى قيم الأشياء قد هانت عليه حتى رقيم أولاده ، واقلبت رقة صلاح الدين الى عنف لا يطاق .

ثم دعا الناس الى الاخراب ، وكانت عسقلان بلداً نضرا مرغوب السكنى محكم الأمور عظيم البناء ، — وكان يقال لها عروس الشام لحسنها ، وكانت العروس الثانية غزة — (٢) فحزن الناس عليه من أهله وغير أهله ، ولكنهم أطاعوا ، وفقد الناس فى الهجرة منها ما يفقدونه دائماً عند غارة مفاجئة أو حريق داهم .

وكان أمر أهلها كأمر أهل فلسطين اليوم : فقصد قوم مصر ، وهاجر قوم الى الشام ، وجرت فتنة هائلة ، ولكن لم يصب أحد من أهلها بسوء فى عرضه أو نفسه ، كما حدث من اليهود حينما احتلوا فلسطين .

ثم أضربت النيران فى السور والأبراج والدور والأمتعة والأطعمة وكل شيء ، وما كاد صلاح الدين يراها طعمة للنيران حتى التاث مزاجه وامتنع عن الركوب والأكل يومين كاملين حزناً وكمداً . ثم سرت حمى التخریب والاحراق فأحرق صلاح الدين برج « الاشيار » وكان مشرقاً

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ .

(٢) آثار البلاد واخبار العباد ٢٢٢ .

على البحر هناك كالقلعة ، ومضى الى اللد والرملة فخرّب قلعتيهما ، وأمر بتخريب قلعة النطرون .

وما أصاب عسقلان كان كأنه تخريب أبدى ، فلم تقم لها قائمة أبداً ، وكأنها مدينة يثرب ، منذ رميت فى وقعة الحرة لم تنفك من رميتها حتى اليوم ، بل كأنما نسيّت اليوم عسقلان فقد مر على خرابها قرابة ثمانمائة عام .

شئون وأقدار :

وفى غمرة هذه البؤس والأحزان أصاب الله العدو بالفرقة والخصومة ، فجرت بين المركز صاحب صور وبين ملوك الفرنجة فتنة ، وأشدها ما كان بينه وبين ملك الانجليز ، ومات « فيليب » ملك فرنسا عند انطاكية فى مرض أصابه ، ومضى ريتشارد الى عكا خائفاً عليها من صاحب صور .

فلما بلغ الخصام أوجهه بين الفرنجة كتب ريتشارد الى العادل ما كتب به العادل الى السلطان يقول : لقد مضى الأمر الى غايته ، ولم يعد هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، فأما القدس فهو متعبداً ما نزل عنه ، وأما البلاد فيعاد اليها ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو عندنا عظيم ، نأخذه ونصطليح ونستريح .

فكتب السلطان بعد المشورة يقول له :

ان القدس هو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم ، لأنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلن ننزل عنه ولن نفرط فيه . وأما البلاد فهي أيضاً لنا أصلاً ، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها من المسلمين . وأما الصليب فلن نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام (١) .

(١) النوادر السلطانية ص ١٨٧ .

أمر غريب :

ثم تراسل السلطان والفرنجة فى الصلح على أمر غريب :

ذلك الأمر أن يتزوج الملك العادل بأخت ملك الانجليز ، ويكون لهما ملك القدس وعكا ، ويتزوجان ملكين . وهو أمر غريب لم يكشف المؤرخون عن سره ، فظل غريباً عجيباً ، وقد كانت الحال بين العادل وريتشارد قد حسنت فاذا لقي أحدهما الآخر لقيه بالهدايا والتحف والتجمل والمواكب ، وكانا يلتقيان على مودة ومجبة أكيدة .

ولعلها كانت حيلة انجليزية ، ولكنها لم تتم — على كل حال — لأن المسلمين والمسيحيين على السواء لم يوافقوا عليها ، وأنكر القساوسة الزواج الا أن ينتصر العادل ، ورفض صلاح الدين الرأى واستنكره (١) وعده مكررة انجليزية . وكانت أخت ريتشارد زوجة لصاحب صقلية من قبل ، فلما مات زوجها جاء بها أخوها من الجزيرة ليتزوجها ملكة على القدس وبلاد الساحل ، ورأى فى تزويجها العادل أيسر سبيل .

وعرض ملك الانجليز أنه متى تم الزواج وتسلم الملك عود الصليب واستقر الداوية والاستقرار فى القرى والحصون وفك الأسرى من الجانبين واستقر الصلح ، فانه يرحل الى بلاده على الفور ، وينفصل الأمر .

قال ابن شداد :

فلما مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت* عليه الحديث وتلو*نا عليه الرسالة ، بمحضر من الجماعة ، فبادر الى الرضا معتقداً أن الملك لا يوافق على ذلك أصلاً ، وهو مكر وهزل منه ، وسير صلاح الدين والعادل بهذا الرضا رجلاً اسمه « ابن النحال » فلما وصل الى مخيم العدو ولقى الملك بادره الملك قائلاً : ان أخته رفضت الزواج الا أن ينتصر العادل ، ثم ادعى الملك أن الكهنة قد أنكروا عليه هذا التزويج ، فأرسل الى البابا

(١) النوادر السلطانية ١٩٥ - ذيل النوادر ص ٣٠٠ .

رسولا يعود في ستة أشهر ، فان أذن البابا وقع الزواج والصلح ، وان لم يأذن فمن حق الملك أن يزوج العادل بنت أخيه بدون إذن لأنها بكر . فانفصل القوم .

وحتى يدل الملك على حسن نيته فقد أطلق من أسره « سيف الدين المشطوب » أحد أبطال المسلمين ، وكان من أسرى عكا ، اذ كان على حمايتها وحراستها وهو الذي سلمها طالبا الأمان ، ولكن صلاح الدين كان — في ظنه بأنها حيلة — مدركا صادقا .

ثم تابع الملك مراسلاته بعد انقطاع قصير وطلب لقاء السلطان ، ففضل السلطان أن يتفاوضا بالرسل بينهما مبدئيا رأيا نبيلًا : ذلك أنه يرى أن اجتماع الملوك لا تجوز بعده العداوة ، وهو أدب سياسي رفيع . فظلت المفاوضات بالرسل وظل صلاح الدين لابسا لبدة الحرب مستعدا فقد خاف غائلة الغدر ، وظن أنه لو وقع به الموت فان عساكر المسلمين ما تكاد تجتمع ، وتقوى الفرنجة ، فالمصلحة أن يبقوا على الجهاد حتى يخرجوا من الساحل أو يأتي الموت (١) .

وكان الحق ما ظنه في نفسه صلاح الدين ، فقد أصبح المحور الذي تدور عليه المعركة ، وكان هو قائدها ومشعلها وميزانها ، فلم يكن جائراً حين نظر الى من حوله من أهله ومن غيرهم فوجدتهم دونه ، فتمنى أن يبقى ليظل مجاهداً ، أما اذا وقع به الموت فان عساكر المسلمين تتفرق ويقوى عليهم الأعداء ، وهكذا يكون قدر كل زعيم يبلغ في قومه وعند عدوه ما بلغه صلاح الدين : النصر في بقاءه والخوف كل الخوف من ورائه .

الركيز والملك :

وعرض الركيز صاحب صور محالفة صلاح الدين على أن يقا تلا الفرنجة معاً ، فما يأخذه منفرداً يصير له ، وما يأخذه المسلمون منفردين

(١) النوادر السلطانية ص ١٩٦ .

يصير لهم ، وما يأخذانه معاً يقتسمانه بينهما فيكون البلد للمركز والأموال
والأسرى للمسلمين .

ومال صلاح الدين الى المركز ومال أصحابه الى الملك ، وكل منهما
أيد رأيه بالدليل ، ولكن المركز ما لبث أن قتل غيلة بيد رجلين من
الباطنية أو من رجاله دسهما عليه الملك ، دخلوا عليه في زى الرهبان
فقتلوه سنة (٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م) (١) فلما قتل توقف الملك عن طلب
الصلاح ، وأجرأه على ذلك موت المركز وتظاهر المنصور بن الملك المظفر
على عمه صلاح الدين بالعصيان .

وما أن مات المركز حتى جعل السلطان يتخطف العدو على طريق
« يافا » في اشتباكات متفرقة لم يلبث « ريتشارد » أن عوضها جملة
بمهاجمة قافلة مصرية دله عليها عملاؤه من خونة البادية ، فتبدد رجالها
في البرية ورموا أموالهم ، وجمع الفرنجة ما أمكنهم جمعه من دوابها
وأحمالها ورجع الملك في جحفل من غنائمه ، وقد قالوا : ان الجبال في
تلك القافلة كانت زهاء ثلاثة آلاف والأسرى خمسمائة وتقرب من ذلك
عدة الخيل .

وجاء السلطان أن الفرنجة — بعد أن جربوا قواهم وحصلوا على
ما حصلوا عليه من الغنائم — قد طمعوا في القدس ، فأسرع اليه السلطان
يرتب حمايته ويفسد المياه ويخرب الصهاريج حوله ، وأظن في ذلك
اطنابا عظيما بحيث لم يبق حول القدس نقطة ماء تشرب أصلا .

وأرض القدس يصعب أن تطلب فيها بئر أو تحفر ، لأنها جبل
وحجر صلب ، فافساد المياه والصهاريج حولها يعطش الغزاة ، والمياه
بعيدة اذا أرادوها ، وكانت هذه خطة من خطط الحرب في هذه المنطقة ،
حتى في عصرنا الحديث .

(١) ذيل النوادر ص ٣٠٣ .

ورجحت — بعد المشاورة — كفة أصحاب السلطان الذين أرادوا لقاء العدو خارج القدس ، مخافة أن يحصروا بها إذا دافعوا من داخلها ، وتعاد كارثة عكا ، وكانت أقسى درس وأمر تجربة ، فاستقر الأمر على هذا الرأي لتبقى القدس فى أيديهم إذا انتصروا وإذا انهزموا .

وبينما كان المسلمون يتشاورون كان الفرنجة كذلك يتشاورون :

كانوا اتخبوا ثلاثمائة من أعيانهم ، فانتخب هؤلاء اثنى عشر رجلا منهم ، فانتخب هؤلاء ثلاثة : كان انتخبا من ثلاث درجات ، وقد اعتادوه ، فما قضى به الثلاثة المنتخبون أخيراً فعلوه لا محالة . واجتمع الثلاثة وأعلنوا قرارهم ، وكان الرحيل عن القدس دون مهاجمتها .

ومن قبّل هذا التحكيم كان الفرنسيون أشد القوم حماساً لمهاجمة القدس ، بحجة أنهم لم يجيئوا الا من أجله ، واستصعب الانجليز الحرب فى موضع فسدت مياهه وغاضت ، وخافوا أن يدلّل الله عليهم فيحدث بحملتهم ما حدث من قبل فى حطين فأرأوا المحاسنة أولى ، وكذلك قضى الثلاثة أصحاب التحكيم .

ثم راسل الملك صلاح الدين فى وجوب حقن الدماء ، وعرض كل من الطرفين بأسه وقوته ، وأبدى أنه لا يهرب الآخرين . والحقيقة أن كلاهما رهب الآخر وخافه ، اذ كانت المخاسر ماثلة أمام عين كل منهما أكثر من المزايا : كانت خسائر عكا أمام عين صلاح الدين ، وكانت خسائر حطين أمام عيون الفرنجة جميعاً .

واستقر رأى المسلمين على جواب أرسلوه للملك يقول :

إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان . ان ابن اختك يكون عندى كبعض أولادى . وسيلغك ما أفعل به . وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القيامة . وأما بقية البلاد فنقسمها : فالساحلية التى بيدك تكون بيدك . والذى بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا . وما

بين العاملين يكون مناصفة . وعسقلان وما وراءها يكون خراباً ، لا لنا ولا لكم (١) .

ومع أن الصلح لم يتم من قريب فإن قواعد هذا الجواب أصبحت أساس كل المفاوضات ، وليس شيء دونها يقبله صلاح الدين مهما حدث من أمور .

عند يافا

وبينما كان الطرفان يتراسلان للصلح علم المسلمون أن ملك الانجليز قد ترك يافا التي كان يتراسل منها وقصد بجنده الى بيروت ، وتركها — كما ظن — محصنة مدججة بالسلاح لا يقوى عليها أحد ، فرآها المسلمون فرصة لاحتلال يافا ، وما لبثوا أن كانوا أمام أسوارها يهدمونها ، فتصدى لهم الفرنجة تصدياً شديداً ، فكانوا كلما خرقوا خرقاً في السور سدده الفرنجة بالأسنة والرماح وصبروا صبراً مذهباً ، ولكن المسلمين استبسلوا ، ولم يبق رجل في قلبه بقية من إيمان الا زحف وقاتل ، فلما أيقن الفرنجة بالهزيمة طلبوا الأمان .

ولم يقبل السلطان الا بأن يجاوز العدو البلد الى القلعة ، فانحاز العدو اليها ، فتحول الناس الى القلعة وحاصروها ليلاً . وبينما هم كذلك وإذا أبواق الأساطيل الفرنجية تزعق في البحر عند السحر ، فأمر صلاح الدين أن تقتحم القلعة على الفور ، فنهى الناس للاقتحام .

واتضح للأسطول حين وضع الصبح أن أعلام المسلمين ترفرف على البلد كله ، وضجيج الناس فيها بالتهليل والتكبير يغمرها فظن القلعة قد سقطت أيضاً ، فتوقف في عرض البحر ، ولكن جندياً من حرس القلعة

(١) النوادر السلطانية ص ٢١٧ .

قفز منها الى الماء ثم سبح سبحا قويا حتى بلغ مركب الملك فصعد اليه وأخبره بحقيقة الحال فاندفع الأسطول يطلب الساحل .

ورجع حرس القلعة فتشبهوا بها — بعد أن كانوا قد تهيأوا للتسليم — حين رأوا نيفا وخمسين مركبا بينها مراكب « ريتشارد » تقصد البر ، وما هي الا ساعة حتى نزل الجند ودخلوا الميناء وحملوا على المسلمين ، ففروا بين أيديهم حتى جاوزوا خيمة السلطان .

ويافا وان كانت قد أخذت ثم سقطت فى ساعات ، فان ملك الانجليز دهش لما فعله المسلمون من أخذها ، وقد كان يظن أنها لا تسقط بأيديهم فى شهرين ، فأخذوها فى يومين ، وكان الملك قد تركها مدججة بالسلاح ، مشحونة بأقوى الرجال ، فهل أخذها السلطان الا وهو قوى شديد ؟!

وأضاع الناس — للمرة الثانية — بفرارهم أمام الأسطول انتصار صلاح الدين ، كما أضاعوا كرامة الانتصار وعظمته اذ كانوا قد أطنبوا فى القوضى عند دخول يافا ، وانهالوا على البلد ينهبونه ويسرقونه ، وقد انبرى لهم « عز الدين جرديك » — الضابط المعروف فى قتل شاور — واشتد فى ردعهم وضربهم ولكنهم كانوا غير مضبوطين بعد ولا محصورين فى مكان .

وهكذا صرعت الشهوات قوم صلاح الدين مرتين : مرة فى مروج هكا ، ومرة عند يافا ، ولم تنفع التجربة الأولى فعادت الكارثة ، ولا سبب الا سوء النظام والاغترار بالنصر ، ولو وكل بهذه العامة من الناس قساة فى المواقف الحرجة لم يفسدوا ولم يعتدوا .

وليس على صلاح الدين من لوم ، فقد كان يحذر دائما أن تكون الغنائم سببا فى النكسة ، فكان يمنع العسكر غب الانتصار من النهب والاستحواذ على الغنائم ، وكان العسكر يعرف منه ذلك ويكرهه ، وقد تصدى ذاته يوم يافا للعسكر يمنعه من النهب فأضر له بعض العسكر

الغيظ ، فكأنهم اتقموا لطمعهم حين الهزيمة ولم يستطع أحد أن يردهم عما أرادوا (١) .

صلح الرملة :

قال « ريتشارد » ذات مرة لبعض من صادقه من خاصة السلطان — فى جد مرة وفى هزل مرة أخرى — : ان هذا السلطان عظيم ، وليس فى أرض المسلمين من هو أكبر منه وأعظم ، وان هذا الأمر لا بد أن يكون له من آخر ، وقد هلكت بلادنا وراء البحر ، وما فى دوام الحروب مصلحة لأحد . فذهب من سمع هذا الكلام وأبلغ السلطان .

وقال أحد ملوكهم — ولعله ريتشارد أيضا — : ان صلاح الدين عمل ما لم يعمله أحد مثله . اتنا أحصينا من جاء فى البحر فكانوا سبعمائة ألف مقاتل ، ما رجع منهم العشر ، والباقون ماتوا قتلا أو غرقا أو أسروا (٢) .

ثم ترددت الرسل بين الطرفين لتعديل أساس الصلح وقاعدته ، فتنازل السلطان عن يافا للملك ، فطلب عسقلان أيضا ، وطلب الموافقة العاجلة حتى يستطيع أن يرتحل الى بلاده قبل حلول الشتاء ، فأرسل اليه السلطان يقول :

وأما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه ، وأما بقاء الملك هنا فى الشتاء فلا بد منه ، لأنه يعلم أنه متى غاب عن البلاد التى استولى عليها أخذت بالضرورة ، كما تؤخذ أيضا اذا أقام ، ان شاء الله تعالى (٣) .

وفى تلك الأثناء اشتدت الخصومة بين الانجليز والفرنسيين فعبر الفرنسيون البحر الى بلادهم ، ومرض « ريتشارد » فأرسل الى صلاح

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠١ .

(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٥ .

(٣) النوادر السلطانية ص ٢٧٨ .

الدين يطلب ثلجا وفاكهة : خوفا وكشرى ، فأرسل له السلطان ما اشتهى ، ورد الملك شاكرا للهدية ملحا فى طلب الصلح شارطا أن يأخذ عسقلان ليكون له بذلك جاء فى بلاده فرفض السلطان .

و ذات مساء أرسل الملك خمسة من مقدميه يخبرون السلطان أن الملك تنازل عن عسقلان ، وقد صحت نيته على الصلح على القاعدة التى تقررت من قبل ، فلما استوثق السلطان كتبت شروط الصلح بين الفريقين :

وكان من بنودها أن يستقر بيد الفرنجة يافا وقيسارية وحيفا وعكا وكل عمالات تلك البلاد . وأن يدخل صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس وبلاد الاسماعيلية والولايات الاسلامية فى عقد الصلح . وأن تكون الهدنة بين الرملة مناصفة بينهما . اما عسقلان فتبقى خرابا . وتدوم الهدنة بين الطائفتين ثلاث سنين تبدأ من يوم الأربعاء ٢٢ من شعبان سنة ٥٨٨ هـ — (٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١١٩٢ م) .

وكانت حوادث يافا ماثلة أمام عيني السلطان ، فأقر الصلح مخافة أن يحتاج الى الناس فلا يجدهم ، ثم رضى الهدنة ليستعد فيها ويتجهز ويشحن القدس والبلاد بالعمارة والآلات .

وتبادل الطرفان نسخة كتاب الهدنة ، وحلف نواب الملوك ، وطاف الرسل فى البلدان ليحلف الأمراء الذين لم يحضروا الصلح من الفرنجة ومن المسلمين .

وكان من المترسلين بين صلاح الدين والفرنجة رجل يقال له « العدل الزبدانى » من كورة الزبدانى المعروفة بين دمشق وبعلبك وهى مصيف دمشق . كان يترسل بين صلاح الدين والفرنجة ، ولم يكن محمودا فى طريقتة فكرهه الناس ، فقال الشهاب الشاغورى الدمشقى بهجوه :

بالعدل تزدان الملوك وما شان ابن أيوب سوى العدل
هو دلو دولته بلا سبب فمتى أرى ذا الدلو فى الجبل (١)

بدء الاختلاط :

ثم أمر صلاح الدين فنودى فى البلاد والطرق والأسواق أن الصلح
قد انتظم سائر البلاد ، فمن أراد من أحد الجانبين أن يدخل بلاد الآخر
فهو حل له ، ونودى فى المسيحية أن طريق الحج للقدس قد فتح لمن أراد .
فلما كان التاسع والعشرون من شعبان رحل السلطان الى النطرون
ورحل ريتشارد الى عكا ، ثم اختلط العسكران ، وخرج جماعة من
المسلمين الى يافا طلبا للتجارة ، ووصل خلق عظيم من الفرنجة يريدون
القدس حجاجا ، وفتح لهم السلطان الباب ، وأخذ معهم الحراس يحفظونهم
حتى يرجعوا ، وسرح السلطان العسكر ، ودخل السلم البلاد .

نية الحج :

وكان السلطان حذرا من عدوه حين عقد الهدنة معه ، فحين أمضى
عقدها سير عسكرا وعمالا لهدم سور عسقلان خشية أن يعود ريتشارد
عما مضى فيه ، ويزحف الى المنطقة الحرام فيملك عسقلان .

وكما كان يخاف غدر الفرنجة كان يخاف اهمال المسلمين ، وقد شهد
القاضى ابن شداد أنه لم يكن يؤثر الصلح ، لأنه لا يدري ماذا يكون
بعده ، فلعل المتبلدين من الفرنجة يخرجون غدا لاسترداد بقيتها ، ويقعد
كل وارث من ورثته فى رأس قلعته لا ينزل للحرب والمدافعة فيهلك
المسلمون (٢) .

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٢٣٧ .

ولكن صلاح الدين حين أقبل على الصلح هذه المرة كان صافى النفس ملهما ، فقد أسرعت الأيام الباقية فى حياته تمضى على عجل الى نهايتها ، وكان من الخير أن يعقد الصلح والناس ضعاف من كل جانب فلا يستطيع الفريقان الالتقاء فى معركة حاسمة . وكان الضعف الذى أصاب المسلمين يمس جمهورهم ، أما ضعف الفرنجة فكان فى اختلاف ملوكهم . ولم يطلب صلاح الدين الصلح مع علمه بضعف قومه ، وإنما طلبه أعداؤه ، فكان توفيقا من الله له وسعادة لتاريخه .

وما لبث صلاح الدين أن رأى الفرنجة تفد جماعات الى بيت المقدس تؤدي الفريضة عنده — كما كانت تؤديها قبل بطرس الناسك — فقرت عينه وأبى أن يمنع أحدا عن عبادته ، وكان « ريتشارد » الملك قد اعرض على فتح الباب على مصراعيه لكل حاج ، فاعتذر صلاح الدين بأنه لا يستحل منع قوم يرون زيارة بيتهم المقدس . فزحفت كل يوم جموع غفيرة تريد الزيارة ، وتكر الملوك والرؤساء فى زى السياح والتجار فأكرمهم السلطان وأكرم كل قادم .

ثم هاجه ما رأى من اقبال الناس على بيت المقدس فهتفت نفسه بأن يحج هو أيضا فى عامه الى بيت الله الحرام . ثم أشاع نيته فى البلدان ، وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت اسمه ليحصى انذاهبين معه فى الطريق . ثم كتب بيانات وجرائد بما يحتاج اليه من الثياب والأزواد وسيرها الى البلاد ليعدوها ، والتزم أن يتدىء الاحرام من بيت المقدس مع الناس .

وعلى فجأة شاع أن السلطان قد امتنع عن أداء الفريضة ، لأمر دفن سره فلم يذع قط ، وقال الناس : انهم خوفوه من خليفة بغداد اذ لم يستأذنه فى الحج ، فقد يظن بمسيره الظنون (١) . وقالوا : ان الأمراء ثبطوه قائلين : لا تعتمد على هدنة الفرنجة خوفا من غدرهم (٢) . وقالوا :

(١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٢) ذيل النوادر ص ٣٠٤ — النوادر السلطانية ص ٢٤٢ .

أقام السلطان يتصيد هو واخوته وأولاده ، ويتفرجون في أراضى دمشق ومواطن الظباء والصبا ، وكأنه وجد راحة مما كان به من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ، فنسى عزمه على الحج ، واعترضته أمور وعزمات . وقالوا ان القاضى الفاضل كتب اليه يقول : ان كشف مظالم الخلق أهم من كل ما يتقرب به الى الله (١) .

مرض السلطان :

لم يكن هذا الفارس الشجاع سليم البدن والأيام ، بل كان ذا علة تعاوده ويكاد يموت منها كل مرة (٢) . وكان الأطباء فى انتظار دعوته المفاجئة كلما مرض (٣) . وأكثر ما كانت تعاوده العلة عند الكسرة والهزيمة ، فيثور به مزاجه الحاد ويغلب عليه اليبس وقلق الليل .

ولقد صح أن يقال : ان جسد صلاح الدين كان مرآة قلبه ، فكان يصح ويمرض فى المعركة الواحدة مع تيارها وأمواجها ، وكثيرا ما التاث مزاجه بحمى صفراوية (٤) ، ولعله كان مكبودا وداء الكبد يتحرك عند الحزن والهم الثقيل . ولم يكن صلاح الدين حين ذلك يقبل تسلية أو تسكينا .

وأحيانا كان السلطان يصاب بالمغص (٥) . وأحيانا بالرمد فيغسل عينيه بالماء ، يستشفى به . وكان جلده شديد الحساسية : يلتهب اذا حزن فيحتجب فى خيمته عاجزا عن الأكل والشرب متقلبا على جنبه لايهدأ ولا ينام ، فاذا دعت المعركة اليها نسى ما به من آلام .

(١) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٠ - غوطة دمشق ص ١١٣ .

(٢) ذيل النوادر ص ٢٨٧ .

(٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٢ - المنجد : حرف الهاء .

(٤) النوادر السلطانية ص ٥٣ ، ١٢٧ .

(٥) ذيل النوادر ص ٢٩٨ .

وقد مرض صلاح الدين فى سنة (٥٨١ هـ - ١١٨٥ م) بكفر زمار مرضا شديدا خاف من غائلته ، فارتحل طالبا « حران » وهو يتجلد ، وكان خليقا به أن يرتحل على محفة ، فوصل حران وقد بلغ غاية الضعف حتى يسوا منه وأرجفوا بموته (١) .

ومرض السلطان فى مرج عكا حتى طمع فيه عدوه ، ولكنه صار ينازلهم فى معارك صغيرة متفرقة مع التياث مزاجه وضعف بدنه ، وكان أحيانا — وهو يمسك على الألم — يأمر أولاده بمخالطة الحرب ويظهر من خيمته لتحسيس الناس .

وجاء عام الصلح بالشتاء والأنواء فأقام صلاح الدين بدمشق يستجم بعد رحلاته على الساحل وإشاراته بتقوية الحصون والأسوار ، وكانت دمشق حين ذلك تحت زميله القائد المظفر « عز الدين جرديك » فوفر له ما طلب من الراحة والاستجمام .

نهاية الايام :

وعلى حين فجأة أمسك صلاح الدين عن خليط الطعام وكثيره ، ثم اعتكف معتذرا عن لقاء الناس ، وأحس بضيق فى صدره وكسل والتياث ، ثم رأى ذات يوم أن يخرج راكبا فى ثياب عادية نازعا عنه ثوب الفارس ، ولم يكن ينزعه أبدا ، فلما علم الناس خرجت دمشق على بكرة أبيها كى تراه . وكان يوما قد عاد فيه الحجيج من مكة فخرج لاستقباله (٢) مستعبر العين والفؤاد .

ورآته دمشق وهو خارج الى الغوطة ينتزه ، ثم انتظرت حتى يعود — كعادة دمشق فى اكرام العظماء — وطال بالناس الانتظار — ثم انصرفوا دون أن يروه ، فقد سلك طريقا أخرى بعيدة عن الناس فى الرجوع ، بين الزروع والظلال ، وكان آخر ركوب له ، وآخر يوم رآه الناس فيه .

(١) النوادر السلطانية ص ٥٦ .

(٢) الناصر صلاح الدين ص ١٣٧ .

وفى وهن تلك الليلة ذاتها غشيت صلاح الدين حمى صفراوية ، وشكا قلق الليل ، وأصبح وعليه أثر الحمى ، فلما أحضر طعام الظهر وجلس الكبار للغداء على موائده كمادتهم لم يستطع أن يقوم الى مكانه . بينهم ، فجلس ابنه الملك الأفضل مكانه ، وغاب هو عن عادته ، فانحدرت دموع الناس .

ثم أخذ المرض يزداد حتى وجد الألم فى رأسه (١) ، ثم لزمه الأطباء ، اذ غلب عليه اليبس فلم يلفظ رطوبات بدنه ، وصار يتألم من كل ما يشربه . ويحسه غريبا مرا غير مألوف .

وفى ثامن صفر سنة (٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م) أخذ ذهنه يغيب ، وتقاربت نوبات الغشى عليه ، فاشتد الخوف فى دمشق ، وترقب الناس أفواجا أخباره عند باب داره وتوسموا فى صفحات الوجوه .

وفى السادس والعشرين من صفر كانت قد عجزت حيل الأطباء فيه ، فرؤى أن يحلف الولاة والأمراء لابنه الأفضل فحلفوا . فلما كانت الليلة التالية دخل فى النزع ، وحال بينه وبين أصحابه النساء ، ثم توفى بعد صلاة الصبح فى مطلع نهار الأربعاء السابع والعشرين ، بعد أن غاب ذهنه ثلاثة أيام ، فكان يوما لم يصب المسلمون فيه بمثله من عهد بعيد .

ولقد صار هذا البطل العظيم فى يد الموت كأحد الأفراد ، همه فى جسده ، وما يصنع بطعامه وشرابه ، وما ترتفع حرارة بدنه وتنخفض . غير الذكر الطيب والمجد الذى لا يغيب .

قال الحافظ شمس الدين :

لقد غشى أهل دمشق يوم موته من البكاء والهول والضجيج ما لا يعبر عنه ، حتى كانت الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا ، وعظم الأسف واشتد القلق (٢) .

(١) النوادر السلطانية ص ٢٤٦ .

(٢) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٥ .

وقال بهاء الدين بن شداد :

وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بأنفسهم ،
وما سمعت هذا التمنى الا على ضرب من التجوز والترخص ، الا فى ذلك
اليوم ، فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى
بالنفوس (١) .

ثم جلس الناس ، وجلس ابنه الملك الأفضل للعزاء (٢) ، وشغل
الحزن كل واحد من النظر الى غيره ، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه
شاعر أو يتكلم فيه فاضل أو واعظ ، كان أولاده يخرجون فتكاد تزهرق
الأرواح لهول منظرهم . ثم خرجت جنازته الى الجامع الأموى الكبير ،
فصلى عليه الناس أرسالا . ثم دفن فى الدار التى فى البستان — وكان
متمرضا فيها — خلف الجامع بالكلاسة . ودفن فى الضفة الغربية منها .
وكان نزوله فى حفرة قريبا من صلاة العصر .

ومات صلاح الدين وعمره يقرب من سبعة وخمسين عاما ، وكانت
مدة ملكه للديار المصرية نحو من أربعة وعشرين عاما ، وملكه للشام
قريبا من تسعة عشر عاما ، وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا ، وبنتا واحدة
تزوجها الملك الكامل بن العادل فيما بعد . وكان أكبر أولاده الملك الأفضل
على ، ولد بمصر سنة (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) فكانت سنه لا تزيد عن
خمسة وعشرين عاما .

ولم تكن قصة رجل فى المسلمين شبيهة بأسطورة الا قصة صلاح
الدين ! كان فارسا لم ينزل عن صهوة جواده أكثر من ربع قرن طارحا
فرسه للهيجاء ، قارعا باب كل حصن ، مقتحما بنفسه كل معركة : افتتح
بسيفه وباخوته بلادا من اليمن الى الموصل ومن طرابلس الغرب الى
أسوان (٣) ، وحمل فيها دينه من كل زين ، ورد عنها كل عدوان .

(١) النوادر السلطانية ص ٢٥٠ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٢ .

(٣) دول الاسلام ج ٢ ص ٧٥ .

مراجع الكتاب

- ١٠ - الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ... ط مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٦م لاسعد طلس
- ٣ - آثار البلاد وأخبار العباد ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٦٠م للقزويني
- ٣ - آداب الشافعي ومناقبه ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٣م لابن أبي حاتم
- ٤ - أبطال الوحدة ... « الحكومة دمشق لمفلح على
- ٥ - الأبيوردى ... « دار اليقظة دمشق لممدوح حتى
- ٦ - الأحكام السلطانية ... « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٠٩م للماوردي
- ٧ - أسامة بن منقذ (محاضرة) ... « المكتبة الوطنية حماة ١٩٢٩م لظاهر الفسائي
- ٨ - الاعتبار لأسامة بن منقذ ... « جامعة برنستون بأمريكا ١٩٣٠م تحقيق فيليب حتى
- ٩ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق لمكسيموس موندوند ... « دير الرهبان اورشليم ١٨٦٥م مكسيموس مظلوم
- ١٠ - تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٨م بعلبكي
- ١١ - تاريخ العرب لسيدو ... « عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٤٨م ترجمة عادل زعير
- ١٢ - تاريخ العرب المطول ... « دار الكشاف بيروت ١٩٤٩م لفيليب حتى وصاحبيه
- ١٣ - تاريخ اليعقوبي ... « صادر وبيروت بيروت ١٩٦٠م
- ١٤ - ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٧م لنظير حسان سعداوى
- ١٥ - جعفر بن محمد ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٤م المؤلف
- ١٦ - جيش مصر أيام صلاح الدين ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٦م لنظير حسان سعداوى
- ١٧ - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ... « دار الكتب الشرقية تونس ١٩٥٤م لمحمد الدوسي المطوى
- ١٨ - الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربى بمصر والشام ... « دار الكتاب العربى القاهرة ١٩٤٩م لمحمد سيد كيلانى
- ١٩ - حياة صلاح الدين الأيوبي ... « المكتبة التجارية القاهرة ١٩٣٦م لاحمد بيلى
- ٢٠ - الحياة العملية فى الحروب الصليبية بمصر والشام ... « مكتبة نهضة مصر القاهرة لاحمد أحمد بدى
- ٢١ - خريدة القصر وجريدة المعصر للعقاد الكاتب ... « المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٥٥م تحقيق شكرى فيصل
- ٢٢ - خمسة من معاصرى صلاح الدين ... « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٩م لنظير حسان سعداوى
- ٢٣ - دار الطراز لابن سناء الملك ... « دار العلم للملايين بيروت ١٩٤٩م تحقيق جودت الركابى
- ٢٤ - دول الاسلام ... « دار المعارف بالهند الدكن ١٣٣٧هـ للحافظ شمس الدين
- ٢٥ - ديوان ابن عتير ... ط مطبعة دمشق دمشق ١٩٤٦م تحقيق خليل سردم

- ٢٦ - ذيل النوادر... .. « مطبعة المؤيد القاهرة ١٣١٧هـ لشاهنشاه بن أيوب
- ٢٧ - روضة المناظر... .. « بهامش ابن الاثير القاهرة ١٣٠٣هـ لابن الشحنة
- ٢٨ - سيرة القاهرة « لستانلى لنيبول » « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥١م ترجمة حسن ابراهيم وآخرين
- ٢٩ - الشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى... .. « مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٥٠م لحافظ حمدي
- ٣٠ - صلاح الدين الايوبى... .. « دارالعلم للملايين بيروت ١٩٥٦م لقدري قلمجى
- ٣١ - صلاح الدين بطل حطين... .. « دار الفكر العربى القاهرة ١٩٥٨م لعبد اللطيف حمزة
- ٣٢ - صلاح الدين الايوبى وعصره... .. « مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٢٧م لمحمد فريد أبو حديد
- ٣٣ - العلاقات « بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية »... .. « م الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٨م لركى النقاش
- ٣٤ - الفنون الاسلامية م س ديماندا... .. « دار المعارف القاهرة ١٩٥٤م فرنكلن... .. ترجمة أحمد محمد عيسى
- ٣٥ - قوات الوفيات... .. « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥١م لابن شاعر الكتبى
- ٣٦ - الكامل... .. « مطبعة السعادة القاهرة ١٣٠٣م لابن الاثير
- ٣٧ - كتاب الروضتين... .. « مطبعة السعادة القاهرة ١٩٥٦م لآبى شامة
- ٣٨ - كنوز الاجداد... .. « مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٠م لكرد على
- ٣٩ - مجالى الاسلام لحيدر يامات... .. « داراحياء الكتب العربية ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٥٦م
- ٤٠ - مظاهر الحضارة المغربية... .. « الدار البيضاء مراكش ١٩٥٧م لعبد العزيز بن عبد الله
- ٤١ - معجم الادباء... .. « دار المأمون القاهرة لياقوت
- ٤٢ - معجم البلدان... .. « صادر وبيروت بيروت ١٩٥٥م لياقوت
- ٤٣ - مفرج الكروب... .. « المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧م لابن واصل
- ٤٤ - الناصر صلاح الدين سلسلة « اقرأ »... .. « دار المعارف القاهرة ١٩٦٠م لسامى الدهان
- ٤٥ - النوادر السلطانية... .. « مطبعة المؤيد القاهرة ١٣١٧هـ لبهاء الدين بن شداد
- ٤٦ - نور الدين والصليبيون... .. « دار الفكر العربى القاهرة ١٩٤٨م لحسن حبشى
- ٤٧ - نهاية الارب فى معرفة انساب العرب للقلقشندي... .. « الشركة العربية القاهرة ١٩٥٦م بتحقيق ابراهيم الايبارى
- ٤٨ - وفيات الاميان لابن خلكان... .. « مكتبة النهضة القاهرة ١٩٤٨م بتحقيق محيى الدين محمد الحميد

الفهرس

٣	تقديم
٥	بطل محارب
٦	ضوء من الماضي
٧	بلايا الداخل
٩	انتقاص الارض
١٠	صلاح الأمة
١١	مشاق الطريق
١٤	مؤازرة الناس
١٧	بعض الأخطاء
١٨	قياس الأزمنة
٢٠	القدوة الحسنة
٢١	كتابى فيه
٢٥	يوسف بن أيوب
٢٧	مولد الأبطال
٢٧	قلعة تكرت
٢٩	نجم الدين أيوب
٣٠	يوسف بن أيوب
٣٢	فى الموصل وبعلبك
٣٣	فى دمشق
٣٣	مع شيركوه
٣٤	شحنة دمشق
٣٦	يوسف وملاعبه
٣٨	سلم المجد
٤٠	منازل سكناه
٤٢	العظمة والألقاب
٤٤	فى الوسط العربى
٤٧	سياسة السلطان
٤٩	نظام الأسرة
٥١	التولية والعزل
٥١	القسوة واللين
٥٣	المدارة والاحتجاب
٥٤	القدوة الطيبة
٥٥	مكافحة الشر

صفحة

٦٠ الخلاص من الضرغام
٦١ الخلاص من شاور
٦٨ وزارة مصر
٧١ خليج الخليفة
٧٤ الحذر والحيلة
٧٥ حظ جديد
٧٨ دمشق وحلب
٧٩ موت اسماعيل
٨١ الباطنية
٨٥ القبائل المتطرفة
٨٥ توحيد البلاد
٨٩ مواصلة المغرب
٩١ التدبير والمال
٩٣ مركز الدولة
٩٤ قلعة صلاح الدين
٩٥ سور القاهرة
٩٦ جسر الجيزة
٩٧ ميناء المقس
٩٧ طراز جديد للمعاهد
٩٨ الاقطاع
٩٩ رعاية الانتاج
١٠٢ موارد المال
١٠٤ بيت المال
١٠٦ الاسراف فى العطاء
١٠٨ تبذير بنى أيوب
١٠٩ ضرورات العطاء والانفاق
١١٠ تقسيم المملكة
١١٣ العلوم والآداب
١١٥ التقليد الدينى
١١٥ القرآن والحديث
١١٦ طريق السنة
١٢١ الاصلاح الدينى
١٢١ مذهب الشافعى

صفحة

الشعر والشعراء	١٢٣
نظم الموشحات	١٢٤
الشعر الهزلي وشعر الهجاء	١٢٥
النثر المقيد	١٢٦
العلوم الكلامية	١٢٧
صناعة الوعظ	١٢٧
علم الطب	١٢٨
الحيل والهندسة	١٢٩
الفنون	١٢٩
المنظرات والرحلات	١٣٠
دور الكتب	١٣٢
حركة التأليف	١٣٤
الاختراع والافتنان	١٣٥
شئون القتال	١٣٧
حب السلام	١٣٩
الاعداد للجهاد	١٤٠
حرب الفرنجة	١٤١
أهداف الحرب	١٤٢
خطط القتال	١٤٤
وقت المعركة	١٤٩
أرض المعركة	١٥٠
أدوات القتال	١٥١
الأسلحة الثقيلة	١٥١
الأسلحة الخفيفة	١٥٢
فرق المقاتلة	١٥٣
الأبطال والمخترعون	١٥٦
بطولة بيروت	١٥٦
البجاعة الأبطال	١٥٧
الأسطول	١٥٨
الوقائع والحروب	١٦١
وقعة البابين	١٦٣
وقعة دمياط	١٦٥
حملة على الاسكندرية	١٦٧
أمر الكرك والشوبك	١٦٨

صفحة

١٧٢ وقعة مرجعيون
١٧٤ معركة حطين
١٨٢ فتح بيت المقدس
١٨٩ بداية المتاعب
١٩١ غنائم القدس
١٩٣ كسرة صور
١٩٤ فتح اللاذقية
١٩٥ الحملة الصليبية الثالثة
١٩٧ قلعة الشقيف
١٩٨ وقعة الجسر
١٩٩ عند عكا
٢٠٠ الوقعة الكبرى
٢٠٣ اضطراب الأحوال
٢٠٥ سقوط عكا
٢٠٩ أخريات الأيام
٢١١ على ساحل فلسطين
٢١١ جس النبض
٢١٢ حريق عسقلان
٢١٤ شئون وأقدار
٢١٥ أمر غريب
٢١٦ المركيز والملك
٢١٩ عند يافا
٢٢١ صلح الرملة
٢٢٣ بدء الاختلاط
٢٢٣ نية الحج
٢٢٥ مرض السلطان
٢٢٦ نهاية الأيام
٢٢٩ مراجع الكتاب
٢٣٣ الفهرس